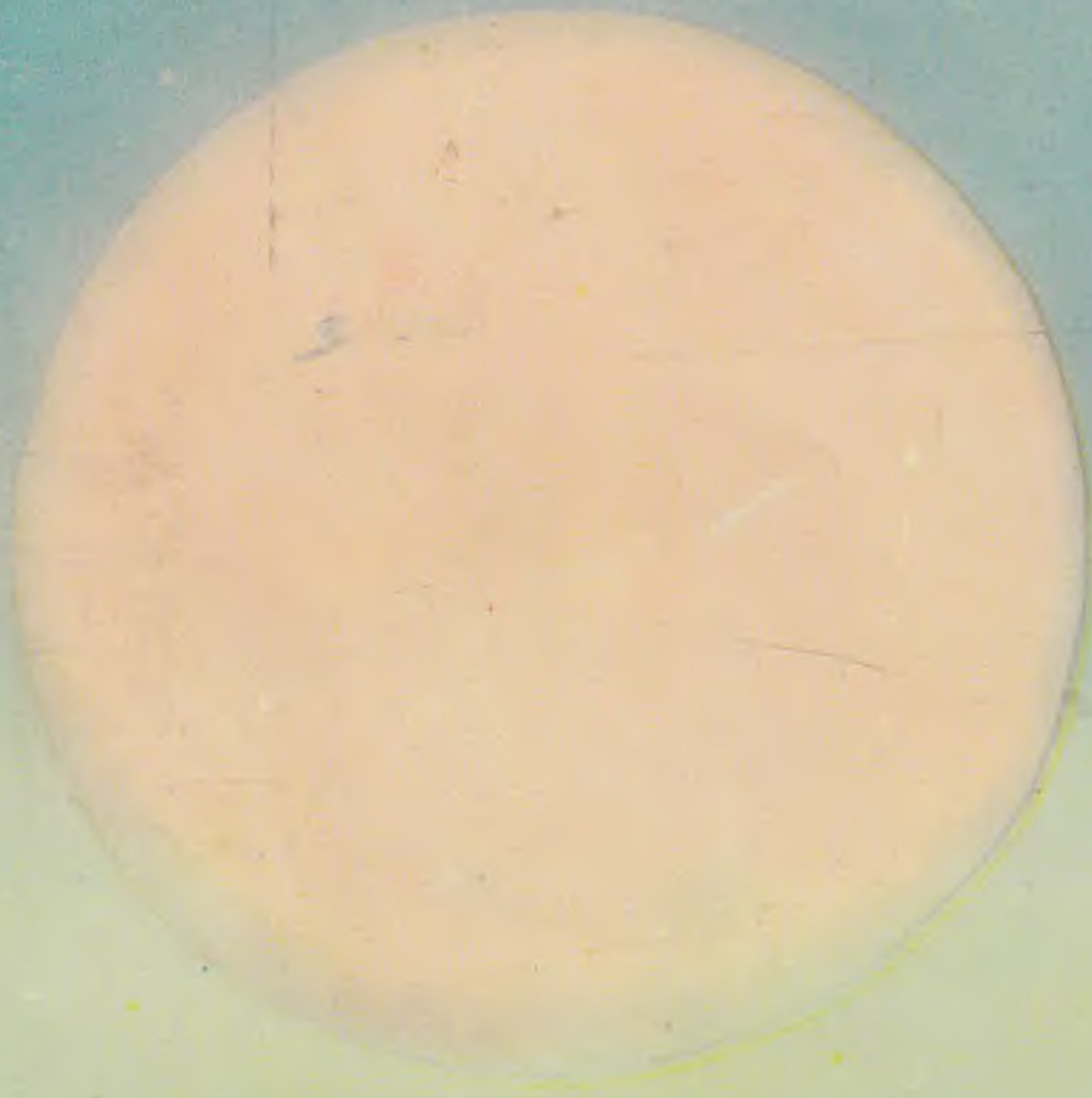


أحمد بهجت



سارالک

عند الاستغناء

Sp
2
B
1

بحار
الغيب
عند
الصوفية

أحمد بعبت



مؤسسة المعارف
للطباعة والنشر بيروت

دار ومطابع المستقبل
بالقاهرة والاسكندرية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م
الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

الغلاف للفنان خلف طايح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وقفة امام صورة

اذا وقفت روى امام البحر .. احسست اننى اقف امام كفاء لى ..
فالبحر - كما يقولون هرمان ملفيل - ارض غفل ازلية مجهولة الهوية ،
والانسان هو الآخر ارض مجهولة الهوية ، ولا احد يعرف - سوى الله
تعالى - هل تنتمى هذه الروح بال ميلاد لعذوبة الحليب ، ام انها ابنة شرعية
لوهج النار ..

وفى الانسان وداعة تتبدى فى البحر سطحا ازرق .. غير ان وراء هذه
الوداعة قوة تدمير هائلة .. واى قطرة من المياه تسقط بانتظام على صخرة ،
تستطيع ان تثقب الصخرة بقوة لا تستطيعها رصاصة تنطلق من سلاح ..

وكثيرا ما سحق البحر بثورته آلاف السفن منذ بدء الخليقة الى اليوم ،
ومع ذلك ، فان تكرار هذه الأمور جعل الانسان يفقد احساسه برهبة البحر
وقوته ، تلك الرهبة التى تقترن باسم البحر منذ بدء البدء ..

ايضا يفقد الانسان احساسه بالرهبة التى تعيش داخله لأنها تعيش
داخله .. يعتاد عليها كما يعتاد على التنفس ، ومع الوقت ينسى انه
يتنفس ..

وأول سفينة قرانا عنها كانت تسبح على صدر طوفان ولد من دعوة
نبي غاضب ، وقد أغرق هذا الطوفان عالما بأكمله ، لم يترك عينا تطرف
أو حياة تتردد ..

« وفتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى
الماء على أمر قد قدر » ..

ولقد نسي المعاصرون هذا الطوفان القديم .. رغم أنه لم يزل يهدر الى
اليوم ، وهو الذي حطم سفن هذا العام وسفن العام المنصرم ، هذه هي
الحقيقة ..

أيها الأحياء الحمقى .. ان طوفان نوح لم يتوقف .. وما زال يغطى
أربعة أخماس هذا العالم الجميل ..

نحن نعيش على الأرض .. نتصور أننا نعيش على أرض ..

وحقيقة الأمر ان الإنسان يعيش على الماء .. في جزر وسط الماء .

قارات الدنيا وطرقها وبلادها ومدنها وقراها كلها جزر صغيرة ضئيلة وسط
موج لا يكف عن لطم الشاطئ .

وحين التقطت سفن الفضاء صورة للكرة الأرضية ، لم ينتبه احد منا
الى ان الكرة الأرضية ليست أرضية ..

انما هي كرة مائية ..

ظهرت زرقاء في الصور الفلكية .. لان أغلبية الأرض مياه ، وهي أغلبية
ساحقة تتيح للبحار ان تفوز في أي انتخابات بينها وبين الأرض ..

أربعة أخماسها مياه .. والخمس الباقي هو المعارضة ..

ورغم ان أهل الأرض يتعصبون للأرض ، وأحياء المياه بمعصور للماء ،
ويهلك أبناء الأرض لو سقطوا في الماء ، وتحتضر خلائق المياه لو حُرحت الى
الأرض ..

رغم هذا فان هناك تفرقة ظالمة بين الأرض والبحار .

لماذا تعد المعجزة في الأرض معجزة وتفقد اسمها في البحر ؟ لقد انشقت الأرض أمام قورح وجنوده وابتلعتهم الى الأبد ، وصرخ العبرانيون أمام المعجزة ، وتنشق المياه كل يوم وتبتلع سفينة فلا يقول الناس عما حدث انه معجزة .. ليست قوة البحر معجزة .. ليس غضبه معجزة ..

تأمل البحر حين يثور ، عبثا تسال عن رحمته أو ترجوه ضبط انفاسه ، انه يغمر الأرض لاهثا ناخرا كأنه جواد حرب هائج مجنون تجندل عنه فارسه ..

ثم .. ها هو الفارس يعود لامتطاء جواده بعد ان بعثته الرياح الشرقية من الموت ..

وها هو البحر الفاضب المهول يتحول الى طفل بالغ الوداعة .. وتتحول أمواجه الثائرة من أفواه مفتوحة للموت .. الى سطور من أبيات شعر زرقاء تقبل أقدام الشاطئ ..

واحيانا تنصرف مشيئة الله تعالى الى شيء يتصل بالبحر ..

ويطيع البحر قوانين لا ندري عنها شيئا ، وتنشق مياهه من طريق مفاجيء يسير فيه موسى مع بني اسرائيل .. ثم يتذكر البحر انه قد نسي شيئا فيعود لاحتضاره ، ويلتزم على جيش فرعون وجنوده ..

مع .. كلما راد تأمل الانسان في البحر زاد احساسه بدهاء البحر ومكره .. معظم مخلوقات البر تدب فوق البر ظاهرة للعيان مكشوفة واضحة ..

اما البحر فبالغ الدهاء .. ومعظم وحوشه المخيفة تنساب تحت الماء ، غير ظاهرة في معظم الاحيان ، مستخفية استخفاء الماكر الرواغ تحت أجمل الألوان الودبعة الزرقاء ..

هل يحاكي البحر الانسان في دهائه .. أم ان الانسان تعلم دهائه من البحر . لا احد يعرف ..

بوصفنا من الشر سوف شهد للبشر .. وان كانت الحقيقة ستظل مجهولة رغم هذه الشهادة ..

اليس الانسان هو المخلوق الذى تتأمل صفحة وجهه الجميل وتنظر
فى عينيه الهادئتين ولا تعرف انه سيفرس خنجره فى ظهره حين تعطيه
ظهره ..

هذا المكر مدين بمولده للبحر الكامن فى روح الانسان ..

لا نريد ان نطيل وقوفنا امام البحر ..

فقط نريد ان نتأمل البحر .. ونتأمل هذه الارض الخضراء الوديمة
الطيبة التى تحيط به من كل جانب ..

تأملهما كليهما .. البحر والبر ..

الا ترى فيهما شيئا غريبا لشيء مستقر فى نفسك ..

مثلما يحف هذا المحيط المهول بهذا البر الاخضر .. كذلك تنطوى روح
الانسان على جزيرة حافلة بالسلام والبهجة ، جزيرة تحيطها مرعبات هذه
الحياة الغامضة المروعة ..

رعاك الله ..

لا تغادر تلك الجزيرة فانك ان غادرتها فلن تعود اليها ابدا ..

.....

وقفنة امام البحر

اعرف ان الانسان هو المخلوق الذى يستمع الى النصائح ولا يلتزم
بها . ومهما يكن من امر ، فان البحر العظيم الذى كنا نتأمله منذ لحظات .
ليس فى حقيقته الا صورة للبحر ..

الانسان هو البحر الحقيقى ..

حين يحب الانسان .. نحول الى حيفة البحر

نعطى ظهرنا للصورة ونتأمل الاصل ..

نتأمل بحار الحب عند الصوفية ..

لماذا اخترت كلمة البحار تعبيرا عن الحب .. هل هو الولع بالاسرار
الكامنة في مياه البحر .. اليس الماء اصل كل شيء حتى ..

.....

قبل ان يبدأ البدء او يكون الكون ..

قبل ان تصفع الشمس ظلالها على الارض ..

قبل ان تخلق الارض من انفجار كونى او ابتسامة كونية نتيجة امر
يتألف من حرفين ..

قبل اى قبل ..

كان الله ولا شيء مع الله ولا شيء قبله ..

كيف كان ..

اين كان ..

افضل ان نذيب الاسئلة في خشوع ماء يترجرج موجه بالسجود ..
(« وكان عرشه على الماء ») .

سبحانه وتعالى ..

كيف كان عرشه ..

هذا سر سكت عنه الحق ..

اين كان عرشه ..

هذا سر اجاب عنه الحق فزاد السر ولم ينقص ولم ينكشف (« وكان
عرشه على الماء ») ..

اى ماء .. اين كان هذا الماء ..

اسرار وراء اسرار ..

.....

الشاطيء اسرار ..

وبحار الحب عند الصوفية اسرار ..

والصوفية اهل عطش الى الحقيقة .. والحقيقة كائنة في الماء وحيانا يكتب العارفون كلماتهم على الماء .. وحيانا يسير رجال على الماء ويهلك من العطش رجال افضل منهم ..

امر محير حقا ، ولكنه لا يستوجب اهدار المحاولة ..

قبل ان ننشر اشريعتنا البيضاء ونبحر في بحار الحب ، نريد ان نعبر نهرا صغيرا متقلبا .. هو هذا الجدل حول الصوفية ..

يعتقد البعض ان التصوف كلمة لا علاقة لها بالاسلام .. كلمة دخيلة على الاسلام .. ويرى البعض ان التصوف بمعنى الصفاء في حب الله هو لب

الاسلام .. ومثلما يقف البعض من التصوف موقف العداء والحدر والتشكك والرفض ، يراه البعض غاية سير السائرين ومقصد أمل العابدين .. ولكل فريق حجته واسلوبه في اثبات وجهة نظره ..

ننظر في اوراق الفريقين قبل ان نقطع برأى ويستبد بنا اعجابنا بهذا الراى على امتداد التاريخ الاسلامى ..

نشب العداء بين الصوفية وغيرهم من الفرق .. وتجادلوا كثيرا واختلفوا كثيرا ..

من اعداء الصوفية علماء الكلام ، فقد رفع علماء الكلام رايات العقل ، على حين رفع الصوفية شعار القلوب والأسرار ..

من اعداء الصوفية اهل الظاهر ، وهؤلاء هم الذين يلتزمون بنصوص الآيات ويقفون عندها فلا يتزحزون ، والاصل انهم ينظرون الى ظاهري الأشياء ، يأخذون بظاهر الآيات ، لأن القوص فيما وراء ذلك ليس في امكان الانسان ، لأن السرائر والقلوب والنوايا والخفايا اسرار لا يطلع عليها غير الله ..

**اما الصوفية فقالوا انهم يدعون اهل الظاهر في المياه الآمنة ، وسيمضون
هم في البحار غوصا وبحثا عن كنوز القبايع ..**

من اعداء الصوفية اهل الشريعة احيانا ، ويسمى الصوفية انفسهم
اهل الحقيقة تمييزا لهم عن اهل الشريعة ، ويتساءل اهل الشريعة اذا
كانت الحقيقة ليست كائنة في الشريعة فلماذا أنزلها الله ؟

ولقد حفلت كتب القدماء بهذا الجدل الطويل ، ولم يخل الامر من
معارك استخدمت فيها السيوف احيانا حين اعيى المجادلين المنطق ..

اما المعاصرون ففيهم رافضون كثيرون ..

كل الملاحدة يرفضون التصوف باعتباره تجربة روحية ، لانهم لا يؤمنون
بالروح كما يؤمن بها المؤمنون ..

وفي الفلاسفة من يرفض التصوف كاسلوب من اساليب البحث عن
الحقيقة لانهم يرون الفلسفة هي الاسلوب الوحيد للبحث عن هذه الحقيقة .
وفي المعاصرين من ينظر الى التصوف فيراه شرا كله ، ويعتبره لونا من ألوان
الهروب العاجز اليأس الى الخرافات والعجائب . وفي الباحثين من يدرس
التصوف فيرجعه الى أصوله الهندية والفارسية ويبين تأثيره بلاهوت
المسيحية وفلسفة بوذا واضرابه ..

وفي المسلمين المتشددین من يعتقد ان التصوف انحرف عن الاسلام
وجهاده الى رهبانية اسلامية جديدة لم يأمر بها الله ولم يصعها الرسول .
رسم دواعي الرافضين للتصوف تكاد تنحصر في الأدلة التالية

**اولا : ان التصوف بدعة ، فلم نسمع عن الكلمة في عصر رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وقد صرح الرسول الكريم بقوله : ((من أحدث في
امرنا هذا ما ليس منه فهو عليه رد)) .. وما دام التصوف بدعة فهو
مرفوض .**

**ثانيا : ان التصوف مرض ، اندلع كالنار في جسم الأمة الاسلامية من
اطرافها مما وراء الجزيرة العربية ، حيث تحركت البقاع من ثقافة المجوس
في خراسان وبلغ في محاولة لاستعادة الأرض التي فقدتها في عقول المسلمين**

الجند ، وتسالت عقائد الحوليين فيما تاخم الهند من بلاد العراق ،
وانبعثت اباطيل الفلاسفة فيما اتصل من البلاد بارض مصر واليونان ..
وهكذا تسلل التعقيد الغامض الى العقيدة الاسلامية الواضحة المشرقة
.. وادى صراع الصوفية مع علماء الكلام الى خلق ما يشبه قذائف الأعماق
التي تنفجر داخل جسم الأمة الاسلامية بأصوات مكتومة لا تتيح لأحد ان
يحذرهما .. وبعد ان كان الاسلام هو دين العقل والقلب والمنطق والعدل
صار معرفة تبحث عن نفسها في الذوق والشوق والمشاهدة والمكاشفة
والعشق والجذب ، وغير ذلك من افانين التصوف ومبتكراته المسرحية ..
ثالثا : ان التصوف كهانة ورهبانية ، وبهذين الوصفين يخرج من
الاسلام وان تدثر بعباءة الاسلام ..

.....

هذه اهم حجج الرافضين تماما للتصوف ..

والحقيقة ان اول أدلتهم في الرفض يكفي وحده لاغلاق باب الجدل ..
فهم يعتقدون ان التصوف بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في
النار ..

والحق ان موقف الرافضين للتصوف ليس كله بهذا القطع .. ان
هناك من ينظر اليه فيقبل منه اجزاء ويرفض منه اجزاء ، ويختار ما يتفق
معه ويرفض ما لا يقبله .

وقد آثرت ان اورد رأي اهل الذروة في الرفض لا تكلم عن رأي اهل
الذروة في القبول ..

في الصوفية من يدافع عن نفسه بغير أسلوب الدفاع .. لا يهاجم الفكرة
التي ترمى التصوف بالخروج على الاسلام والرسول ، وانما يؤكد ان
التصوف هو قلب الاسلام وفطرة البشرية وهو سلوك رسول الله صلى الله
عليه وسلم ..

بقول كتاب من كتب المحدثين في التصوف ..

« التصوف عبادة وطهارة وزهد . ثم كشف وفيض واشراق

اتصال بالخالق الأعظم الذي صدر عنه الكون ، ليست حياة محمد في الغار صورة كاملة للصوفي الحق ، ليس هذا التأمل المحمدي في عظمة فاطر السماوات والأرضين ، أساسا للأذواق والمواجيد الصوفية ، وسبيلا للكشف والفيض والإشراق .. غير أن محمندا تبي ولا نبي بعده ، وإنما أحياءه وأتباعه على سنته وهديه كان صلوات الله عليه أمام الصوفية الأكبر ، وكان يواصل التعبد والتهجد ، وكان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه فتقول له السيدة عائشة :

— لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ..

فقال صلى الله عليه وسلم :

— أفلا أكون عبدا شكورا .

ويروى الصوفية أحاديث كثيرة عن زهده وتحنثه في الغار وكراهيته للدنيا وإيثاره للأخرة وتواضعه للخلق ..

وقد دخل عمر رضي الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده يضطجع على حصير خشن ترك آثاره على جنبه ، فبكى عمر ، فسأله الرسول عما يبكيه قال ان أرى كسرى وقيصر على الحرير والاستبرق وأراك على هذا الحصير .. فغضب الرسول وتساءل : أتريدها كسروية يا عمر ؟

هذا رأى المغالين في تأييد التصوف وذلك رأى المغالين من أعداء التصوف بسطناهما لنعرف ماذا يقول كل فريق ..

ونحن لسنا مع الفريقين لأننا لسنا مع الغلو أو التزيد ..

لست أعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان صوفيا ..

لست أملك أن أطلق على الرسول صفة لم ترد عنه ولم يوصف بها في حياته ..

هو اجترأ إذا أن نسميه بعد موته صلى الله عليه وسلم بوصف

مستحدث .. حتى لو كان هذا الوصف مائدة من المديح والتعظيم .

الرسول صلى الله عليه وسلم نبي مرسل .

وهذه درجة لا يمكن للبشر الفانين معرفة قدرها .

وليس بعد النبوة درجة أو صفة أو تكريم أو امتياز .

ايضا لسنا ضد التصوف الى الحد الذى نخلعه من الاسلام ونرميه

بتهمة البوذية والفارسية والهندية ونراه مرضا يصيب الروح فتهرب الى
التيه والشتات ..

لو تصورنا أن قاضيا من بنى البشر يريد أن يحكم على التصوف فكيف
يحكم عليه .

يجب على القاضى أن يكون هادئ العقل .. غير منحاز الى معسكر
ضد معسكر ..

يجب على القاضى أن يكون امامه قانون يحكم به .. ومعيار يزن على
اساسه ..

لا ينبغي أن يطمئن القاضى لقانون غير القرآن ..
نحتكم الى القرآن اذا .

ما وافق القرآن كان حقا وان حمل اسم التصوف او اسم الظاهر ..
او اى اسم ..

وما خالف القرآن كان باطلا وان حمل اسم الحقيقة ..
هذا هو المعيار الذى نطمئن له ..

.....

قبل ان نحتكم الى القرآن ونبدأ سياحتنا فى بحار الحب .
نريد ان نعرف اسرار هذا الجدل الطويل حول الصوفية .
لماذا اختلف الناس وانقسموا ؟ .

ان جواب هذا السؤال رغم بساطته سر من اسرار الخليقة .

خلق الله الناس على قدر من التفاوت فى الفهم والاحساس والمقدرة

في الناس من يمشى وراء عقله ، ومنهم من يمشى وراء قلبه ، وفيهم من يرفع لواء الضمير ، وفيهم من يخرج على هذا كله لشيء أخطر ، وعدم تساوي القدرة البشرية أو العقل البشري يعني أن الناس سوف تختلف ..

ولقد خضع الاسلام في القرون الأربعة عشرة التي عاشها على الأرض لما خضعت له كل الأديان السابقة عليه من ضروب الدرس والفهم والتفسير والتأويل ، وإذا كان كتابه قد ظل بغير تحريف ، فإن في هذا الكتاب قد تعرض لما يتعرض له فهم أي كتاب مقدس .

ان ظهور اتجاهات في العقائد والمبادئ والمعاملات ، قد أدى لنشوء مذاهب في الفلسفة والفقه ، ومدارس في علم الكلام والتصوف .

وكان طبيعيا أن يبدأ الاختلاف والمعارضة .

ان للمتكلمين فهمهم الخاص لامهات العقائد والدفاع عنها .. وللصوفية موقفهم المختلف عن موقف علماء الكلام ..

بل ان المتكلمين ليسوا سواء في فهمهم للعقيدة .. والصوفية ليسوا سواء في نظرتهم الى الأمور .

والذين يؤولون الكتاب ويفسرونه يختلفون أحيانا اختلافات محيرة .. نضرب مثلا بقوله تعالى ((يد الله فوق أيديهم)) اذا فهمها انسان بمعنى اليد ، مع التنزيه والتقديس ، وفهمها انسان آخر بمعنى القدرة ، فأيهما على حق ..

ان الاثنين على حق ..

يجب ان تعترف ان كثيرا من المختلفين يتكلمون باسم الاسلام وينتمون اليه ويصورون الاسلام لغيرهم كما تصوره هم انفسهم .. وهم في هذا كما يقول سادتنا واساتذتنا مجتهدون . ان اخطأوا فلهم اجر ، وان أصابوا فلهم اجران .. ومن حقهم علينا ان ندين لهم بالفضل والشكر وأن نحاول فهم آرائهم ووضعهم في سجل التراث الفكري الاسلامي أولا .. والتراث الفكري العالمي بعد ذلك .

والحقيقة انه ليس هناك في فهم مسائل الدين ما يمكن ان نسميه كاذبا

او صادقا .. ما دام قائما على اساس من الكتاب والسنة . وما دام المتأول لا يخرج بالنص عن المعانى التى جرى بها العرف فى اللسان العربى .. بل اقصى ما توصف به تأولات المتأولين أنها حرفية ضيقة ، او متحررة واسعة ، او أكثر عمقا فى الروحانية . او مناسبة لموضوعها ..

ان الصلاة عند الفقهاء أفعال وأقوال مفتوحة بالتكبير مختتمة بالتسليم ..

والصلاة عند الصوفية مناجاة قلبية بين العبد والرب .. ليس الاثنان على حق ، ان النظر الى الله باعتباره معبودا نظر صحيح .. والنظر اليه باعتباره محبوبا أولا ومعبودا ثانيا نظر صحيح ..

نبتعد اذن عن هذا الجدل والخصام وليكن امام القاضى قانون واحد .. هو القرآن .

هل وردت كلمة التصوف فى القرآن ؟

لم ترد الكلمة ..

يقول الصوفية ان القرآن لم يورد الكلمة ولكنه أورد قصة عظيمة هى لب التصوف الإسلامى ..

قصة موسى عليه الصلاة والسلام .. والعبد الربانى .

✳ شاطئء بحر ..

هذا مكان القصة ..

الشاطئء رمادى باهت ، والبحر امامه ساكن ، والمكان مضطرب بشيء يشبه السر ..

ليس هناك بحر واحد ..

هناك بحران يلتقيان معا .

اى ان هناك سرين قد اجتمعا فازداد الامر غموضا فوق غموض .

أقدام موسى تدب على رمال الشاطئء وقواقعه ، العصا تنفرس فى الرمال وأحيانا يبلل الموج نهايتها ..

وتحس العصا أنها تعيش زمنين معا ، طرف مغموس في مياه ملحة بارد
وطرف يتلقى أشعة الشمس الدافئة .

والمياه سر .. والشمس هي الأخرى سر .. وزمن القصة سر هو
الآخر ..

لا يقول لنا القرآن الكريم متى كان ذلك ..

لا يقول لنا أين كان ذلك ..

حدد القرآن المكان ولم يحدده ..

ان موسى يقرر أمرا مفاجئا ..

« واذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى ابلغ مجمع البحرين او امضي

حقبا » .

ان موسى يقرر لفتاه (وهو فتى لا يذكر القرآن اسمه) .. انه سيمضي

حقبا ومسافات وازمنة .. حتى يصل الى مجمع البحرين ..

أين كان مجمع البحرين هذا .. أين كان لقاء البحرين هذا ..

لا يقول لنا القرآن الكريم شيئا عن المكان فهو قد حدده ولم يحدده ..

ولقد تحدث كثير من المفسرين عن هذا المكان ، وحدده بعضهم ، واجهدوا

انفسهم في محاولة تعيينه ، ونرى ان هذا كله غير مطلوب ولا مقصود ..

فان هذا الجو الخارجى الغامض المشحون بالأسرار يتفق تماما مع الجو

الداخلى الغامض المشحون بالأسرار ، ويتفق مع لب القصة وهدفها ..

.....

يقول المفسرون ان رجلا من قوم موسى سألهم يوما :

— من أعلم الناس في الأرض اليوم يا موسى ؟

قال : أنا .. وقالها باعتباره كليم الله ونبيا من أولى العزم الكبار ..

فأوحى اليه الله ان يذهب الى مكان ليلتقى بعبد من عباد الله .. ولسنا

نعلم هل كان موسى ذاهبا ليتعلم .. هل أخبره الله تعالى انه قد تجاوز

حدوده حين اعتقد انه أعلم الناس ، فهو رغم نبوته وكونه « كليم » الله

تبارك وتعالى ، فقد يكون في الأرض من هو أعلم منه .. هل ذهب موسى لهذا السبب أم ذهب لأن الله أمره بالذهاب ليرى لو أن آخر من العلم الذي يختلف عن علمه ..

لسنا نعرف لماذا ذهب موسى بالتحديد .. لآتي الآيات القرائية بسر ذهابه .. أما تخفى هذا السر ، وهكذا يذهب موسى أمامنا كأنه يمشى في ضباب ..

تأمل العبد نفسه الذي ذهب إليه موسى ليتعلم منه ويتبعه ..

ان العبد بغير اسم .. يقدمه القرآن مجهولا بغير اسم .

لم يحدثنا الحق تبارك وتعالى عن اسمه .

« فوجدا عبدا من عبادنا » ..

تأمل هذه العبارة **« عبدا من عبادنا » ..**

ان العبد الصالح المنسوب لله تعالى يظهر على مسرح الأحداث مدثرا بالغموض ملتفا بالضباب .

رجل بلا اسم .. مثل تلميذ موسى .. مثل المكان الذي ذهب إليه .

هذا الغموض الذي يرتقى لحد الرهبة الساكنة مقصود ومتعمد لخدمة الفرض الأصيل في القصة ، وهذا من ألوان التصوير الفني في القرآن كما يقول الأستاذ سيد قطب .

نريد ان يتأمل القارئ هذه الآيات ليرى اعجاز الأسلوب الذي يسوق الله تعالى به بدايات القصة ..

« واذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى ابلغ مجمع البحرين او امضي حقبا ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا ، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال ارايت اذ اوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا ، قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا .. فوجدا عبدا من عبادنا » ..

تأمل ظهور العبد على مسرح الحدث .. ان صورا غرسة تقع أمامنا

قبل أن يظهر هذا العبد ..

في البدء نرى موسى مصرا على عدم اليأس ، فهو لن يتوقف عن الترحال والبحث حتى يصل الى مجمع البحرين ، ويصل موسى مع فتاه بعد رحلة شاقة الى المكان المحدد ..

وينسى فتى موسى « حوتا » صغيرا ، ينسى سمكة كانت مشوية على النار ومهيأة لغداء موسى ، ينساها تماما فتعود السمكة الى الحياة وتتسلل في البحر عجبا .. أمر بالغ العجب أن تعود السمكة الى الحياة وتعود الى البحر بعد أن طهيت على النار ، لكن الأسرار تزيد كلما تقدمت سطور القصة ، ونحن لا نعرف لماذا وقعت هذه الخارقة أو المعجزة في هذا الوقت بالتحديد ، وسنفهم فيما بعد أن هذه المعجزة إشارة موحية من الله تعالى بتحديد المكان الذي سيعثر فيه موسى على العبد الرباني .. بعد أن تسالت السمكة الى البحر ، سار موسى وفتاه حتى تعب موسى وأحس بالجوع ، وقال لفتاه آتنا غداءنا .. وتذكر فتى موسى كل ما حدث ..

تذكر أنه رأى السمكة تقفز من السلة الى البحر .. وتسبح فيه وتمضي في طيات الموج مثل سر صغير يدوب في سر أكبر ..

ونسى فتى موسى كل شيء عما رآه .. أنساه الشيطان أن يحدث موسى بما وقع ، وذلك أمر غريب ، لأن ما وقع كان جديرا بأن يذكره ، فهو معجزة ، وكان جديرا بأن يحدث عنه موسى ، لأنه ربما كان إشارة لموسى بشيء ..

ويبدو أن موسى أغفى قليلا فوق ما وقع أثناء نومه ، وشاهده فتاه وخادمه ، فلما استيقظ موسى نسي فتاه كل شيء عما حدث ، وعاد يسير مع موسى حتى دميت أقدامهما من السير وأحسا التعب وجلسا للراحة ، وتذكر موسى غداءه وأمر فتاه أن يحضره ، عندئذ تذكر الفتى أن الحوت الصغير قد عاد الى البحر .. وأنبا موسى بما وقع ..

وفهم موسى الإشارة الالهية على الفور ..

قال ذلك ما كنا نبغ .. هذا ما تريده بالضبط .. هذه المعجزة أو

هذا السر اشارة الى سر آخر سنجدّه في هذا المكان ..

وعاد موسى مع فتاه يقصان آثار اقدمهما حتى عادا الى المكان الذى تسلك فيه الحوت ..

« فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علما » ..

ينسب الله تعالى العبد الى نفسه ، وينسبه الى عباده الذين آتاهم رحمة من عنده ، ويقدم الله تعالى العبد بوصفه عبدا **« علّمناه من لدنا علما » ..**

هذا بطل القصة .. وهو رجل بلا اسم .. وان اعتقد المفسرون أنه الخضر عليه السلام ، وان القرآن لم يصرح باسمه لأن التصريح باسمه لا يعنى شيئا ، وعدم التصريح باسمه يعنى آلاف الأشياء ..

نحن امام رجل آتاه الله من علمه اللدنى .. وهو علم هائل ، وان كان سرا كله ، وهو علم يرتدى أكثر من قناع ، وربما نظرت فى صفحته البادية فرايت مأساة أو جريمة ، ولكن قاع الحقيقة يختلف كل الاختلاف عما تراه ..

هذا العلم اللدنى يختلف تماما عن العلم البشرى ..

يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

تشير هذه الآيات الى العلم البشرى .. وهو علم يرمز له القرآن الكريم بالقلم .. اما العلم الآخر ، او العلم اللدنى ، فهذا نوع آخر ، وهو ليس منسوباً الى الله فحسب ، انما هو من لدنه سبحانه ..

.....

لم يكذ موسى يلتقى بهذا العبد حتى سألّه ان يعلمه .

« قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » .

السؤال من موسى وهو سؤال جدير بأن يشير دهشتنا قليلا ..

ان موسى كما يرسمه الحق تبارك وتعالى في القرآن رجل قوى عنيف سريع الغضب ، انه يتدخل في مشاجرة ويدفع بيده رجلا فيقتله ، وهو حينلقى العصا من يده فصارت حية أصابه الروح وولى هاربا ، وهو حين عاد يحمل ألواح التوراة ووجد قومه يعبدون العجل ثار ثورة هائلة وألقى ألواح التوراة من يده وأمسك برأس أخيه ولحيته معنفا :

« قال يا ابن ام لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » .

ولو عرفنا من قائل هذه الكلمات لأدركنا غضب موسى ، قائل الكلمات هو هارون النبي الكريم وشقيق موسى ..

بل ان موسى ظل غاضبا فترة ، وعبر القرآن عن هذا الغضب بصورة فنية معجزة في قوله تعالى **« فلما سكت عن موسى الغضب »** .

نريد ان نقول ان موسى كان سريع الانفعال سريع الغضب ، واحيانا كان صبره ينفد ، حتى في مواقف الخوف أو الرهبة ، ان صبره ينفد فيقول الحقيقة كاملة ، وها هو امام جبار الأرض فرعون يقول له بعنف **« وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل »** هل تمن على أنك استخدمت نى اسرائيل عبدا لك ، هذا يحتسب ضدك ولا يحتسب لك .

نريد ان نقول ان موسى هذا النبي السريع الغضب ، يتحول الى شخص آخر ، فيحدث العبد الذى عثر عليه بأنه يريد ان يتبعه .. ويريد ان يتعلم منه ..

ورغم هذا السؤال الهادئ الدمث .. ترى العبد الصالح يجيب موسى اجابة عنيفة **« قال انك لن تستطيع معي صبرا »** .

بهذه الجملة السريعة ينبه العبد موسى الى حقيقة الفرق بين العلم الشرى والعلم اللدننى ، فالعلم اللدننى ثقيل ولن يصبر عليه موسى ، ولن يصبر على اتباعه بالتالى .

وربما احس العبد ان موسى فوجئ ، فعاد يحدثه عن بديهية مفترضة :

« وكيف تصبر على ما لم تحط به خيرا » .

الصبر يكون حين تعرف أقدار الأشياء . ويكون حين تفهم أخبار الأشياء ، ولن أحدثك عن أسرار الأشياء .. ولهذا لن تصبر عليها ..

عاهد موسى يقول بأسلوب يشي بالرغبة والالحاق ..

« قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك امرا » .

خضوع مطلق من تلميذ لن يعصى لأستاذه امرا .

ووعده في نفس الوقت بالصبر .. والصبر هو احتمال ما لانفهم .
ويضع الأستاذ شروطه :

« قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » .

الشروط .. الا تسال ..

السؤال ممنوع تماما .. مهما رأيت .. مهما تحيرت ..

لا تسال حتى أحدثك أبنا .. عبارات العبد قصيرة وتلغرافية وموحية .

وافق موسى على الشرط وبدأ رحلته مع العبد الصالح .. **« فانطلقا**

حتى اذا ركبا في السفينة » ركبا في سفينة رحبت بهما ورفض صاحبها ان

يتقاضى منهما أجرا لأنهما غرباء . وفوجيء موسى حين غادرها صاحبها ،

فوجيء ان العبد الصالح الذي جاء يتعلم منه منهمك في خرق السفينة

واتلافها .. بل انه « خرقها » .. وغلبت موسى طبيعته المندفعة في الحق ،

وحركه غضبه على الخطأ فانطلق يقول للعبد :

« اخرقتها لتفرق أهلها لقد جئت شيئا امرا » .

يتهم موسى العبد بأنه قد ارتكب خطأ بالفا ، فهو يرد على احسان

اصحاب السفينة بالايذاء ، وهو يعرضهم للفرق والموت بفعلته .. وينظر

العبد الصالح الى موسى ولا يزيد على ان يقول له :

« قال ألم اقل انك لن تستطيع معي صبرا » ..

انه يذكره بما سبق ان قاله له ، ان علمه ثقيل ولا قدرة لموسى على

احتماله ..

ويعود موسى الى الاعتذار .

« قال لا تؤاخذنى بما نسيت » .

وبعد الاعتذار رجاء بالآ يرهقه العبد الصالح من أمره عسرا ، لقد نسي وهذه هى المرة الأولى ؛ ليسامحه هذه المرة ..

ونكاد نحس من غضب موسى المستتر لهفته البالغة فى التعلم ومصاحبة هذا العبد ذى التصرفات القريبة .

ويعاود موسى مصاحبته للعبد ...

« فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله » .

كان تصرف العبد هذه المرة غاية فى الغرابة .. نحن امام جريمة قتل ، وهى جريمة شاهدها موسى واندesh لها دهشة عميقة ، وثار بسببها ثورة عميقة .. وكان بطلها هو نفس البطل الذى خرق السفينة ..

وعاد موسى يوجه حديثه اليه :

« قال : ا قتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا » .

النفس الزكية هى الغلام ، وهى زكية لأن الغلام صغير السن لم يرتكب بعد من الجرائم ما يسمح بقتله .. وقتله هنا شيء منكر بالغ البشاعة .. وعاد العبد الصالح يلفت موسى الى جملة الاولى التى قالها له مرتين قبل ذلك :

« قال ألم اقل لك انك لن تستطيع معى صبرا » .

لو تأملنا غموض العبد فسوف نلاحظ انه يرداد كلما تقدمت القصة ، فهو لا يتكلم .. بطل القصة الرئيسى لا يتكلم مطلقا ، انما يتصرف فى هدوء صامت ، وهو اذا تكلم قال لموسى انك لن تستطيع معى صبرا ..

وهو يقول هذه الجملة ثلاث مرات .. وفى المرة الثالثة يعترف موسى بأنه يوشك أن يؤكد ما قاله الأستاذ من أنه لن يصبر ، وكل ما يطلبه موسى فرصة أخيرة يثبت فيها صبره وقدرته على التعلم .

« قال ان سالتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني

علرا » ..

وعادا ينطلقان .. وصلا الى قرية بخيلة غاية البخل .. حاولا ان يأكلا منها كقرباء وضيوف بلا اجر - كعادة هذا الزمان - ولكن القرية ابت أن تطعمهما أو تضيفهما .. وانصرف الاثنان .. موسى والعبد الصالح ، ويبدو أن موسى لم يصحب فتاه معه في رحلة التعلم هذه لأن القرآن يتحدث عنهما كائنين .. ((فانطلقا)) .. ((حتى اذا اتيا)) ((فابوا ان يضيفوهما)) .. بعد هذه المعاملة السيئة ، انصرف موسى والعبد الصالح الى خلاء خرب فيه جدار يوشك أن ينقض .

وفوجيء موسى أن العبد الصالح يمضى الليلة في اصلاح الجدار وبنائه من جديد ، ووصلت دهشة موسى الذروة من هذا العبد الصالح ..

لقد باتا بغير عشاء .. لم يطعمهما في القرية احد .. لماذا يبني الرجل هذا الجدار المتهالك .. لو شاء لاتخذ عليه اجرا .. ويقول موسى فكرته لصاحبه .

((فانطلقا حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها فابوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض فاقامه قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا)) ..

لقد نسي موسى وعده بالصبر ، وقد سأل قبل ذلك فرصة أخيرة ، وها قد مرت الفرصة الثالثة .

((قال هذا فراق بيني وبينك)) .

انتهى الأمر ، ولن تعرف منى ما أردت أن تعرف ، ولن تتعلم منى ما أردت أن تتعلم .. ولكي تطمئن بالا فسوف أحدثك بأسرار ما رأيت .

((سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا)) .

سأفشي لك سر ما رأيت .. وسيكون هذا ايذانا بفراقنا النهائي ..

السفينة التي خرقتها لم اكن اريد اغراق اهلها أو هلاكهم .. على العكس من ذلك كان وراءهم ملك سيخوض حربا ، وكان ينوى مصادرة كل السفن ، وكان أصحاب السفينة سيموتون من الجوع . فخرقت السفينة ليلفظها الملك ، فيعاود أصحابها اصلاحها ويعملون عليها ويأكلون ..

كان ظاهر ما رايت ايداء وقتلا ، وكان باطن ما رايت هو اللطف والرحمة ..

اما الغلام الذي اهتزت مشاعرك لقتله ، وظننت ان وراء قتله شيئا نكرا ، هذا الغلام طاغية وكافر ، كان غلاما بريئا امام نظرك ولكنه كان طاغية وكافرا باعتبار ما سيكون حين يكبر ، وابواه مؤمنان ، وكان سيرهقهما طغيانا وكفرا ، فشاء الله تعالى موته ليربح ابويه منه ، ويعطيتهما بدلا منه ابنا بارا ، وهكذا انقذ الله الابوين وانتقل الغلام نفسه من نفسه ، فهو قد صار الى الرحمة حين مات وهو غلام ، لانه لم يرتكب بعد ما كان سيرتكب .. لقد نجا جميع الاطراف رغم انك تظن ان جميع الاطراف قد هلكوا .. هلك الولد بالموت .. هذا ما رايتك يا موسى ، ولكن الحقيقة انه نجا بالموت ، ولن يحاسب على ما لم يفعل ، مات وهو غلام بريء ، اما الابوان فقد حزننا كثيرا وبكيا كثيرا ، ووراء حزنهما وبكائهما كانت ترقد شمس الفرح والابتسام .. كان ما رايت هو عكس الحقيقة ..

((اما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان ابوهما صالحا)) .. وقد اراد الله الا يهدم الجدار فيظهر الكنز وينهبه اهل القرية البخيلة ، اراد ان يحتفظ لابناء الرجل الصالح بالكنز ..

ويتقدم العبد الصالح خطوة في تعليمه لموسى فيكشف له سر ما حدث ..

— رحمة من ربك ..

كل ما رايت من صور الاعتداء او القتل او وضع الشيء في غير موضعه .. لم يكن غير رحمة ورحمة ورحمة ..

حتى مآسى الوجود وكوارثه هي اقنعة للمآسى والكوارث .. والباطن العميق هو الرحمة ..

— وما فعلته عن امرى ..

لم يكن هذا رايا رايتك ولا كان اقتناعا بشيء او معرفة لشيء او تطبيقا لعلم بشرى انما كان امرا من الله ..

قال تعالى في سورة الكهف « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت ان اعيبها وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصبا . واما الغلام فكان ابواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا ، فاردنا ان يبدلها ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما . واما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحا فاراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن امرى ذلك تاويل ما لم تسطع عليه صبرا » .

نريد ان يلاحظ القارئ ان العبد الصالح استخدم ثلاثة تعبيرات للارادة في القصص الثلاث ..

قال عن السفينة « فاردت ان اعيبها » .

وقال عن الغلام « فاردنا ان يبدلها ربهما خيرا منه » .

وقال عن الجدار واليتيمين « فاراد ربك ان يبلغا اشدهما » .

وقد أرجع الارادة الى نفسه في قصة السفينة ، والى الله ضمنا في قصة الغلام ، والى الله صراحة في قصة الجدار واليتيمين .

ما الذى تعنيه هذه القصة .. ؟

ما الذى تريد ان تقوله لنا .. ؟

لا يملك العقل سوى التوقف امام هذه القصة ..

قصة موسى والعبد الصالح والسفينة والغلام والجدار ..

هى قصة من اعجب قصص القرآن ونقصد بالعجب هنا ما اشار اليه الجن حين قالوا « انا سمعنا قرآنا عجبا » فلم يستخدم غير الجن هذا التعبير ، واستخدمه تلميذ موسى حين قال عن الحوت الذى ارتد الى الحياة « واتخذ سبيله في البحر عجبا » وتصور أنت ان يصف الجن وهم عجب خفى في حد ذاته (القرآن بانه عجب .. ان تحيرهم امام آياته دهشتهم ازاءها يعنى ان ما فيه من اسرار قد استولى عليهم واخضعهم .

وبهذا النظر نتأمل القصة ، فهى عجب في شدة خفائها وعمق معانيها ، وهى عجب في المستويات المختلفة المتدرجة التى تنطوى عليها ، وهى عجب في اسرارها العلنة واسرارها الخفية ..

فى طفولتى ركبت السفينة مع موسى والعبد الصالح .. لم افهم مما
يجرى شيئاً .. كنت سعيداً بنزهة البحر ، وهياج الأمواج ، وهذه القواقع
التي حملتها معى من الشاطئ ..

لم اكن واعياً لهذه الأسرار التي تضمنتها القصة .. موسى وفتاه ..
وهذا الحوت (أو السمكة المشوية المهيأة للغداء) ..

لقد وصلا الى مكان .. يسميه القرآن « مجمع البحرين » ، ويسميه
« مجمع بينهما » .. والمكان عند صخرة ..

أوى موسى وفتاه الى الصخرة .. وفي هذه الصخرة عين لا يحدثنا
عنها القرآن .. ويبدو ان فى هذه العين سرا يتصل بالحياة ، لأن جزءاً من
مياه العين حين وقع على السمكة المشوية (أو الحوت الصغير) ، أصاب
السمكة شىء مدهش ، فقد ارتدت الى الحياة وقفزت فى مياه البحر ،
ولاحظ فتى موسى أو تلميذه هذه المعجزات ونسى أن يحدث عنها موسى ..
كانت كل هذه الأسرار تخضع طفولتى ببدايتها .

وكبرت أكثر ، وقمت بالرحلة مرة ثانية ، وشاهدت العبد الصالح
يخرق السفينة ، ودهشت وكدت أحتج مع موسى ولكننى خشيت أن
بغضب العبد أو يفضب موسى لأننى أرفع صوتى جوار صوته .. وهكذا
صمت ..

وكبرت أكثر .. لم أعد أعترض على العبد وهو يخرق السفينة ،
أدركت أنه كان ينقذ أصحاب السفينة باثلاف السفينة .

كنت أجلس صامتاً أتأمل غرابة ما يجرى لموسى ..

لقد بدأت حياة موسى وهو طفل بالقائه فى صندوق والقاء الصندوق
فى الماء .. وكان هذا التدبير الإلهى لينجو موسى من القتل ..
كان البحر هو أول من استقبل موسى وهو طفل ..

وها هو موسى .. كب سفينة لبولد من جديد ، أو لينجو من تصـور

ان علمه هو العلم الوحيد الموجود في الارض ..
وقد قتل موسى انسانا حين وكزه فقضى عليه .
وها هو العبد الذي يصحبه يقتل غلاما ..

وقد تصرف العبد في القرية البخيلة تصرفا اريحيها بلا اجر ، وكان
هذا تصرف موسى حين وصل مدين ووجد الناس تحاول ان تسقى ووجد
فتاتين لا تزاحمان الرجال ، فسقى لهما ..
ان قصة العبد الصالح تقابل قصة موسى ..
والرموز هنا تقابل الرموز هناك .. والاسرار تزيد وتتكاثر .. وكلما
تقدمت الايام واشتمل الرأس شيئا وزاد حظ المرء من الادراك .. زاد حظه
من التحرير .

.....

القصة بحر مياهه بلا قاع ..
وفي البحار الحقيقية اجزاء تبدو من فرط العمق بلا قرار ..
وفي بحار الحب الالهى اجزاء بلا قاع حقيقى .
وكل موجة من امواج هذا البحر سر كالبهر نفسه ..
ولو حاولنا اليوم ان نقرا فلن نقرا اكثر من هذا الموج القريب الهادى ،
الذى يتكسر زبدا ابيض على الشاطئ ..
لن نقرا ابعد من سطور الشاطئ ..

.....

احد معانى القصة ان في الدنيا احداثا يختلف ظاهرها عن باطنها يبدو
الظاهر مأساة على حين ينطوى الباطن على حقيقة الرحمة . او يبدو الظاهر
خاليا من العقل والتدبير يشي الباطن بالحكمة العميقة .
ولنتأمل - معا - هذه الاحداث الثلاثة في القصة كرموز ثلاثة ..
● ان السفينة التى خرقها العبد الصالح الغامض ترمز الى كل ما يملكه
الانسان ويحرص عليه من ماديّات الحياة ولقمة العيش .

● والفلام الذى قتل بغير نفس او ذنب جناه يرمز لكل ما يقع على الانسان نفسه من ضرر اقصاه القتل .

● والجدار الذى اعيسد بناؤه كان رمزا عجيبا لما نتصور انه عبث او لا معقول وهو فى حقيقته غاية الحكمة .

وهكذا تكتمل الرموز الثلاثة ..

ان الضرر الذى يصيب ما نملك ..

والدم الذى يسيل منا او ممن نحب ..

والعبث الذى نراه فى الحياة حولنا ..

هذا كله وراء حكمة عميقة .. هى الرحمة الالهية الشاملة .. كل خراب

ظاهر .. او موت ظاهر او عبث ظاهر .. ليس كذلك فى حقيقته ..

الحقيقة انه جزء من نسيج الرحمة الالهية ..

واى انسان يصيبه شيء .. تخرق سفينة عيشه .. او يقتل له طفل

.. او يموت له أحد ، او يرى العبث يملأ الحياة حوله .. اى انسان يقع

له شيء من هذا، فما عليه الا ان يذهب الى مجمع البحرين حيث ذهب

موسى .. وليقف امام الآية الستين من سورة الكهف ليقف هناك ويبكى

ما شاء الله له ان يبكى فالبكاء رقة فى القلب وحنو .. ولتسقط الدموع

بملح الصدق فى مياه البحرين بملحهما .. وليركل بعد ذلك السفينة

ويصاحب موسى والعبد ..

سوف يقرأ فى أسرار الموج عناية الله ورحمته سبحانه ..

وليس هذا العبد المدثر بالخفاء والسر سوى رمز من رموز الرحمة

الالهية فهو عبد يتحدث عنه الحق بقوله تعالى :

« آتيناہ رحمة من عندنا .. وعلمناہ من لدنا علما » ..

.....

الرحمة الالهية معنى من معانى القصة ..

وفى القصة معان اخرى .. من معانيها ان العلم على الارض ثلاثة

أنواع ..

أولها : علم البشر المعتاد الذى تكسبه بالجهـد والتعلم .. مثل علم الصيد أو الزراعة .

وثانيها : علم الأنبياء الذى يوحى به الله لأنبيائه بواحد من الطرق الثلاث التى حددها قوله تعالى :

((وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء)) ..

وثالثها : العلم اللدنى أو علم الأسرار ..

والفرق بين العلوم الثلاثة هائل .. ولا مجال للمقارنة بينها ولا المفاضلة أو ترتيبها حسب الأهمية ، يمكن ترتيبها حسب الظهور على مسرح الحياة .. لقد سبق العلم البشرى كل العلوم على الأرض ، وحمل هذا العلم نبى كريم هو آدم عليه السلام ..

فقد خلق الله تعالى آدم بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه الأسماء كلها . وأمره ونهاه ، وتاب عليه حين عصى واجتباه .. قال تعالى : **((وعلم آدم الأسماء كلها)) ..**

لم يقل سبحانه أنه علم آدم الأسرار كلها ..

ومعنى تعليم الأسماء هو تعليم آدم هذه القدرة البشرية على استخدام اللغة والرموز ، هو تعليمه القدرة على الإشارة باللغة ، واستخدامها كرمز ، القدرة على البحث فى جميع العلوم البشرية .. وقد ورث أبناء آدم هذه المقدرة على البحث عن أسماء الأشياء ومعرفة طبيعتها واكتشافها .. وأول خصائص العلم البشرى هو الجهد والبحث ، وإمكانيات الخطأ قائمة فى مجاله طوال الوقت يموت العالم فيكمل تجاربه عالم آخر ، ويسلم كل جيل معارفه للجيل الذى يليه ، وتمضى دورة البحث طالما أن فى الأرض إنسانا ..

هذا أول أنواع العلم ظهورا على مسرح الأرض ، وهو علم مركوز فى فطرة الإنسان . وهو أساس مبدئى كرم الله تعالى آدم بسببه ، وهو معيار

للتفضل الذي فضل الله به أبناء آدم على غيرهم من المخلوقات ، وحين سأل
الملائكة رب العرش سبحانه :

**((أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحميدك
ونقدس لك))** أجاب الحق سبحانه :

**((قال انى اعلم ما لا تعلمون .. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على
الملائكة فقال أنبؤنى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين : قالوا سبحانك لا علم
لنا الا ما علمتنا انك انك العليم الحكيم)) ..**

نفهم من هذا أن ميزة النوع البشرى هي العلم .

ومعيار تفضيله هو العلم ..

ومبررات خلقه رغم افساده في الارض وسفكه للدماء هي العلم ..

وحكمة اسناد الخلافة في الأرض اليه هي العلم ..

العلم بالاسماء ..

هذا كله أساس لا بد منه لتلقى علم الانبياء ..

وعلم الأنبياء هو علم التوحيد ، وقد ظهر هذا العلم بعد علم الاسماء
على الأرض .. لقد علم الله تعالى الانسان أن يصنع رغيف خبزه ، وعلمه
أن يصطاد قوت يومه ، وعلمه أن له ربا واحدا هو خالقه سبحانه ، تقول
ان علم التوحيد ظهر في رسالات الانبياء بعد نزول الانسان الى الأرض ،
والحقيقة أن هذا العلم ظهر قبل هبوط الانسان الى الأرض ..

يحدثنا الله تبارك وتعالى في آية الميثاق انه أخذ العهد على أبناء آدم
بتوحيده والاقرار بربوبيته فأقروا .. وتم هذا وهم في عالم الدر قبل
الخلق ..

**((واذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم
الست بربكم .. قالوا بلى)) ..**

وقد بعث الله تعالى انبياءه ليعيدوا الخلق الى هذه الفطرة المركم
في الأرواح والقلوب .

وعلم الأنبياء هو الشريعة التي يريد الله عز وجل من عباده اتباعها والسير طبقاً لدستورها ، وهو يختلف عن العلم البشرى في تنزهه عن الاجتهاد والبحث والجهد والخطأ ..

يحتمل هذا العلم تفسير المعانى والآيات . ولكن اصوله لا تخضع للاجتهاد والبحث كالعلم البشرى ..

اذا كان علم الانبياء هو علم الشريعة ، فان الشريعة هى الحقيقة كما هو معروف ، وليس هناك تعارض مطلقاً بين الشريعة والحقيقة ، ولو دققنا النظر فى قصة موسى والعبد الصالح ، ونظرنا اليها من وجهة نظر الشريعة .. فسوف نرى أن الجزاء الذى وقع فيها كان متفقاً كل الاتفاق مع شريعة موسى ..

ان انقاذ اصحاب السفينة بخرق السفينة عمل طيب تجازى عليه الشريعة ..

وقتل الغلام الذى كان سيرهق والديه طفيلانا وكفرا هو جزاء الشريعة ، فقد كانت الشريعة التى انزلت على موسى فى التوراة تقضى بقتل من يقوم بعقوق والديه ..

اما بناء الجدار فامر يتفق كل الاتفاق مع الشريعة .. فليس بناء الجدار خيراً يسديه العبد الصالح للقرية الفاسدة ، انما هو ضرب لفسادها بمعنى من المعانى ، وهو منع لهذه القرية من سرقة كنز الرجل الصالح ، وصلاح الآباء يمتد الى الأبناء رحمة من الله فى شريعة موسى ، كما ان عقوق الوالدين جزاؤه القتل فى هذه الشريعة ..

لا خلاف بين الشريعة والحقيقة ..

ولا مفاضلة بين موسى والعبد الصالح ..

من سوء الأدب ان نقول ان هذا افضل من ذلك .

احدهما استاذ .. والثانى تلميذ .. هذا صحيح ..

ولكن اى استاذ واى عبيد ..

الاستاذ يحمل اسراراً من الله والتلميذ نبى من اولى العزم الكبار ..

وما يقوله بعض الصوفية الجاهلاء من أن الأولياء أفضل من الأنبياء ،
أمر يخرج القائل من الجدد إلى المجنون والزندقة ..

ولو جاز لنا أن نفاضل بين من يعلم أكثر ومن يعلم أقل .. وقلنا أن
العبد الصالح أفضل من موسى ، فسوف يجيز لنا هذا المنطق أن نقول أن
هدهد سليمان كان أفضل من سليمان .. فقد كان الهدهد محيطا بعلم لم
يحيط به سليمان ، وكان يعرف أكثر مما يعرف سليمان عليه السلام ..
قال الهدهد لسليمان « أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبأ
يقين » ..

نريد أن نبتعد عن هزل المفاضلة بين رجلين من رجال الله .. ونريد
أن نحسن الأدب ونحن نتحدث في علم الشريعة وهو نفسه علم الحقيقة ..
ونريد أن نقول أن كلا الرجلين كانا قمة من القمم ..

أحدهما كليم الله ونبيه ..

والثاني عبد أوتي من الأسرار ما أوتيته ..

ما هو علم الأسرار ؟ ..

تحدثنا القصة أن هناك علما من لدن الله ، علما مجهولا لولا هذه الإشارة
التي وردت بشأته في القرآن لما عرفنا عنه شيئا ..

والواضح أن هذا العلم متصل بالأسرار موصول بالغيب ..

إن العبد الصالح يخرق السفينة وهو يعلم المستقبل .. ويعلم أن هناك
ملكا سيأخذها لو لم تتلف ..

وهو يقتل الغلام لأنه عندما يكبر فسوف يعذب والديه ويعقهما ، وهذا
مستقبل لم يقع بعد وغيب ..

وهو يبني الجدار في القرية لأن سر الماضي والمستقبل قد كشفاه ، فعلم
أن تحت هذا الجدار كنزا ليتيمين كان أبوهما صالحا ، واليتيمان يعيشان في
قرية تشتهر بالصوص ..

نريد أن نقول أن هذا العبد كان يعرف طرفا من غيب الله عز وجل ..

والغيب شيء لا يعرفه سوى الله عز وجل ، ومن يشاء اطلاعهم من عباده عليه سواء كان هؤلاء العباد من الملائكة أو الأنبياء أو البشر قال تعالى « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول** » .. وليس الكشف عن الغيب متصلا بقدرة من يكشف الله له الغيب ، فان الجن رغم قدراتهم الهائلة وخفائهم لا يعرفون الغيب ، وقد مات أمامهم سليمان عليه السلام فلم يعرفوا نبأ موته إلا بعد أن أكلت نملة الخشب عصاه فخر على وجهه ..

إنما يخضع كشف الغيب لبعض العباد لقانون لا يعلمه سوى الله عز وجل هذا القانون هو مشيئته النافذة سبحانه ..

وأحيانا يكشف الله طرفا من الغيب في كتب الأنبياء ، كما وقع في الكتاب المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سورة الروم ..

« الم .. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون ، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون » ..

كانت هذه النبوءة كشفا لطرف من الغيب للمسلمين . وكان هذا الكشف يتم علانية في كتاب الله المنزل الكريم .

أحيانا يطلع الله عباده على الغيب علنا كما رأينا في سورة الروم ..

وأحيانا يطلع الله عباده على الغيب سرا كما حدثنا في قصة موسى والعبد الصالح .. وعلم الأسرار ، وهو جزء من علم الشريعة . وليس علما أعلى منه كما يتصور البعض ، هذا العلم غيب يستأثر الحق تبارك وتعالى به . ويمنحه بأقدار متفاوتة لبعض عباده ، تحقيقا لحكمة عليا هي الرحمة ..

.....

هذه القصة التي وردت في القرآن الكريم هي النبع الأول للصوفية الإسلامية . هذا البحر الغامض البعيد المنطوى على الأسرار هو حلم الصوفية ..

ان موسى مسلم أسلم وجهه لله ، والعبد الصالح مسلم أسلم وجهه لله ،
وكل أنبياء الله تعالى وأوليائه مسلمون أسلموا وجوههم لله ..

وهناك علم يمكن أن ينكشف بنور يقذفه الله في قلب العبد اذا صفا
قلب العبد لله ..

والصوفية هم الذين صفت قلوبهم لله ..

ويتكرم الله عز وجل على أصحاب القلوب التي لا تشهد غيره ولا تحب
سواه بالمكاشفات والأسرار .. وربما منع الله تعالى أو منح .. ربما قبض
علمه أو بسط علمه .. مشيئته سبحانه وتعالى مطلقة نافذة ، والمنع والمنح
ليسا بسبب من جهد العباد وانما هما محض فضل من الله ..

وليست تجارب الصوفيين ومجاهداتهم الا تدريبات روحية لتصفية
القلوب لله .. وبعدها ينتظرون أن يفتح الله عليهم ببعض أسرارهِ سبحانه .
هكذا ينظر بعض الصوفية الى القصة ..

.....

وانكار هذا النظر استبعاد وجود عباد يفتح الله عليهم ببعض أسرارهِ ،
يعنى انكار آية من آيات القرآن ..

كما أن بسط هذا النظر على كل من يدعى الصفاء خطأ بالغ ..
لأن علم الأسرار سر ..

ومميزات السر أن يحمله أقل عدد ممكن من القادرين ..

ونحن لا نعرف عدد عباد الله الذين يختصهم الله ببعض علمه وبعض
أسرارهِ لا نعرف أين هم .. ولا من هم ..

ان الفارق الجوهرى بين العلم البشرى وعلم الأنبياء ، وعلم الأسرار ،
هو الشيوخ والذيوخ ..

اذا انتشر العلم وذاع كان علما بشريا ، او علما من علوم الأنبياء طبقا لنوعه
أما علم الأسرار فمن صفاته الكتمان والصمت .. لقد كان العبد الصالح
عنيفا مع موسى حين سأله أن يعلمه .. ولم يستطع موسى أن يصبر على
هذا العلم .. رغم كونه موسى ..

لقد أرسل الله تعالى موسى لفرعون وهو يعلم انه سيعبر على فرعون
ويهزمه ..

وأرسل الله تعالى موسى لهذا العبد الصالح وهو يعلم انه لن يصبر عليه
وسيهزم صبره ..

ولو صبر موسى على العبد الصالح لعرفنا أسراراً كثيرة ..

ولكن الله تبارك وتعالى لم يشأ أن نعرف أكثر مما عرفنا ..

ولم يشأ سبحانه أن يعرف موسى أكثر مما عرف ..

معنى هذا أننا أمام علم لا ينكشف الا بقدر محدود ، ولا يمنع الا بحساب
بالغ الدقة ..

هذا العلم الذى يسمى اليه الصوفية بعد العلم البشرى وعلم الأنبياء
ولا يقوم الا بهما ، هذا العلم بالغ الصعوبة ..

وادعائه أمر رهيب ..

هى دعوى هائلة وخطيرة .. والدليل الوحيد على الصدق فيها هو
الصمت وكتمان السر ..

ولهذا قال بعض الصوفية « من تكلم خرج » ..

أو قالوا « من أفشى السر هلك » ..

وسنرى مصداق هذا النظر نفسه فى القرآن ..

سنرى أن الكلام فى هذا العلم يخرج صاحبه من مجال الرؤية ان لم
يخرجه من هذا العلم أصلاً .. فى قصة موسى والخضر ..

حين خرج العبد من الصمت الى الكلام ..

خرج من مجال الرؤية .. اختفى تماماً ..

قال لموسى « هذا فراق بينى وبينك » ..

ولم يكذ العبد الصالح يتحدث حتى خرج من آيات القرآن .. انطوى

عليه بحر كلمات الله عز وجل ودلف الى خفاء الخفاء ..

لم نره بعد ذلك ولم نصادفه ..

إذا كان التصوف كما نعتقد دعوى ، دليل صدقها الوحيد هو الصمت

.. فهذا يفتح الباب نهائيا امام التصوف .. واذن فما هذا الذى نراه من انتاج الصوفية وكتبهم وأشعارهم وقصصهم ..

واذا كان التصوف له اصل فى القرآن ، فلماذا لم نسمع الكلمة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .. وما هو التصوف اصلا ؟ ..

ولماذا لم يكن هناك صوفية فى عصره او بعد عصره ؟ ..

لماذا بدا التصوف بعد ٢٠٠ سنة من رحيله الى الرفيق الاعلى ؟ ..

فى بحار التصوف ألف سؤال وسؤال ، وألف غريق وغريق ، وألف لؤلؤة ولؤلؤة ، وألف محارة فارغة ومحارة مليئة بطين القاع .. وثمة حكايات لها العجب مثل حكايات الأساطير فى ألف ليلة وليلة ، وبدلا من قصص الجن وعجائبه سنجد قصص الأولياء وكراماتهم ، وهى ايضا عجائب ..

وهناك احتمال قوى ان نفرق فى هذا البحر لو لم تكن نجيد السباحة .. او نستخدم أدوات الملاحة الصحيحة ..

نفرد اشرعة الروح البيضاء ونبحر ..

ما دما نسير فى بحار القوم فلا مفر من استخدام اساليبهم فى هذه البحار .. ولا بد ان نبدا رحلتنا البحرية واشرعنا مفتوحة لكل الرياح القادمة من ابواب الكون ..

ونريد عقلا محايدا قبل كل شيء ..

لا نريد احكاما مسبقة او افكارا جاهزة للحكم على التصوف قبيل الخوض فى أمواجه ..

سهل ان يقف المرء على الشاطئ ويفمض عينيه ويقول :
ليس هناك بحر ..

واصعب كثيرا من ذلك ان يكابد الموج ويعرب السباحة او يحاول الوصول ..

سهل ان نقول ان التصوف بدعة .. او كلام فارغ .. ولكن ههنا ليس حكما ..

لا يكون الحكم حكما إلا إذا ملك ضمير قاض نزيه ، والقاضى لا يحكم
في الدعوى إلا بعد النظر فيها وتأمل الأدلة وامعان الفكر ..
نحن نبحث عن حقيقة التصوف ..

نحن اذن نبحث عن حقيقة ..
وكل انسان في الأرض يبحث عن حقيقة ..

والبحث عن الحقيقة يفترض حياد الباحث وتجرده ..
بعد رحلتنا قد نقف ضد التصوف .. وقد نقف مع التصوف ..
لا نعرف من الآن أى شاطئ سوف نرسو عليه ..

ولكننا عندما نفعل .. سنكون مدركين لماذا نقف على شاطئ الرفض
او شاطئ القبول ..

لنبدا رحلتنا بالأسئلة ..

ما هو التصوف ..

ما اصل الكلمة ..

وما معناها ؟

يقول الصوفى ابو تراب النخشى (متوفى سنة ٢٤٥) الصوفى لا يكدره
شيء ، ويصفو به كل شيء ..

أى انسان هذا الذى لا يكدره شيء ، ويصفو من خلال عينيه كل شيء ..
ويصفو به الكدر ذاته ..

أى انسان هذا ..

أى قلب يحمله مثل هذا الانسان ..

هل هناك وجود حقيقى لمثل هذا المخلوق ..

يقول الصوفية ان هناك وجودا لهذا المخلوق ، فمن صفا قلبه لله وشاهد
حكيمته ورأى بديع صنعته لم يكدره شيء ، حتى الكوارث والآلام لا تخذل
صفاءه ، ومن وصل لهذا الحال صفا في عينه ملك الله . وصار اذا اختلط
بالحياة صفاء يضاف الى عكارتها ..

ولماذا نأخذ عن الصوفية .. لو أخذنا عن الفقهاء فسوف نجد أحمد
ابن حنبل يقول في سجنه أيام المحنة ..

- أنا جنتي في صدري ..

وكان الناس يواسونه ويحاولون تهوين قسوة السجن عليه ، فافهمهم
انه ليس سجيناً إنما هو في الجنة ، لأن جنته في صدره ..

.....

ترتفع أمواج البحر ..

رغم أننا لم نزل على الشاطئ ..

صعب ..

الدخول على القوم صعب ..

ما هو أصل كلمة التصوف .. أصل الكلمة محل خلاف بين العلماء
هناك القائلون بأشتقاق الكلمة من أهل الصفة الفقراء الذين كانوا ينزفون
في جانب من مسجد الرسول ويبيتون فيه لأنهم لا يملكون نقوداً يستأجرون
بها بيوتاً ..

وليس صحيحاً أن التصوف مشتق من أهل الصفة ..

أيضاً يختلف العلماء على الصفاء .. والتصوف ..

في العلماء من يقول أن التصوف لفظ مشتق من الصفاء ، ومنهم من
يقول أنه لفظ مشتق من ارتداء الصوف ولبس خرقة الصوفية وهناك من
يقول أن التصوف لقب ، وقد استعرض الدكتور أبو العلا عفيفي في كتابه
« التصوف ، الثورة الروحية في الإسلام » أكثر من خمسة وستين تعريفاً
للتصوف .. وقال بعد ذلك :

« كنا نطمع بعد دراسة خمسة وستين تعريفاً للتصوف أن نجد معنى
عاماً مشتركاً ينتظمها جميعاً ، ولكننا لم نظفر بهذا المعنى على وجه التحديد
ووصلنا إلى معنى قريب منه » ..

وسر هذه الحيرة أن تعريفات التصوف شخصية لحسد بعيد ، فكل صوفي يعبر عن حاله .. وأحوال الخلق الروحية تختلف مثلما تختلف أحوالهم في المعاش ..

وللقشيري رأى لطيف في تعريف التصوف انه لا يحاول أصلا تعريفه ويرى أن اسم التصوف لقب ..

« ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر أنه كاللقب » ..

ومعنى كلامه أن التصوف لقب لا يسأل عن معناه أو اشتقاقه كما لاحظ د. أبو العلا عفيفي ..

هذا معناه أن الصوفية يوصدون الباب حتى أمام من يسألهم عن معنى اسمهم .. وهذا دليل على أمر من أمور ثلاثة ، أما أن التصوف سر ، وإنما أنه أمر خلافي بحث ، وأما أنه متعدد الجوانب كالفن الفنى ، وسوف نترك للقارئ أن يجد الجواب بنفسه .. ولننظر نحن في الموج محاولين قراءة الكتابات الكثيرة التى كتبها الصوفية على الماء ..

.....

ان بشر بن الحارث « الحافى » وقد لقب بالحافى لأنه خلع نعليه يوما وأسرع يجرى فى الرمضاء فلم يدركه أحد . ان بشر الحافى يقول فى تعريف التصوف **« الصوفى من صفا لله قلبه » .**

مات بشر بنفداد سنة ٢٢٧ .

ان نجد قبل المائة الثانية من الهجرة تعريفات للتصوف .. لم يكن التصوف معروفا كمدى روحى له مدارس وشيوخه .. كان الزهد هو المعروف ..

لهذا نجد معظم تعريفات التصوف بعد القرن الثانى للهجرة ..

قال معروف الكرخى (توفى سنة ٢٠٠ هجرية) .

« التصوف هو الأخذ بالحقائق والياس مما فى أيدي الخلائق » ..

يريد معروف أن يقول ان التصوف أخذ ويأس في نفس الوقت .. أخذ
لحقائق الآخرة ويأس من دنيا الناس .. والأصل اللغوي للدنيا هو الدنو
والتدلى والتدنى ..

وإذا يرتفع معروف الكرخی عن الدنيا ويزهد فيها ، ويسلك طريق
الأخذ بالحقائق ..

ويقول فريد الدين العطار صاحب كتاب منطق الطير :

**((الصوفي من اذا نطق كان كلامه عين حاله فهو لا ينطق بشيء الا اذا
كان هو ذلك الشيء)) ..**

تأمل قول الرسام العالمى الشهير فان جوخ — بعد ذلك بعشرة قرون —
عندما أرسم زهرة .. أصبح انا الزهرة ..

لاحظ أن معنى العبارتين واحد ..

فهل يكون التصوف فنا ..

سؤال نظرحه وننتظر قبل الاجابة عليه مزيدا من النظر . سئل سمنون
المحب عن التصوف فقال ..

((الا تملك شيئا ولا يملكك شيء)) ..

اليس هذا الكلام فنا فى حد ذاته ..

يحكى القشيري قول الصوفية **((الصوفي ابن وقته)) ..**

اليس هذا تجسيدا لحال جميع الفنانين المتقلبين ..

فى تعريفات التصوف من يمت بصلة الى الفن ، وفيها ما يمت بصلة
الى الحقيقة الدينية ، كقول رويم حين سئل عن التصوف فقال **((استرسال
النفس مع الله تعالى على ما يريد)) ..**

وفى التعريفات ما ينتمى الى الزهد كقول أبى حمزة البغدادي وكان
معاصرا للجنيد **((علاقة الصوفي الصادق ان يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد
العزة ويخفى بعد الشهرة ، وعلاقة الصوفي الكاذب ان يستغنى بعد الفقر ،
ويعز بعد الذل ويشتهر بعد الخفاء)) ..**

وفى التعريفات ما ينمى الى فلسفات معقدة فى التوحيد كقول أبى بكر

الشبلى (توفى سنة ٣٣٤) التصوف شرك ، لأنه صيانة القلب عن رؤية الغير
ولا غير ..

يريد أن يقول أن التصوف لون من ألوان الشرك ، لأنه يصون القلب
عن رؤية الدنيا .. وليس هناك غير الله .. الدنيا أو النون لا وجود له
ولا قيام له وليس هناك إلا الله .. يريد الشبلى أن يخترق ببصره المكونات
إلى المكون ، والمصنوعات إلى الصانع ، والخلائق إلى رب الخلائق ..
وهذا تعبير آخر عن حالة الفناء أو وحدة الشهود ..

سنعثر على تعريفات عديدة للتصوف .. وهى تعريفات تتحدث عن
أحوال .. والأقوال عن الأحوال عادة لا يمكن فهمها إلا إذا مررنا بهذه
الأحوال ..

ونحن نفضل البحث عن تعريف جديد للتصوف كتجربة روحية ..
وأرجح ما نراه أن التصوف هو فن الوصول إلى الله ..

وربما أسفر هذا الوصول عن جذبة تعترى العقل فاذا العقل ذاهب
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ..

وربما أسفر هذا الوصول عن رؤيا فنية بالغة العمق والتعقيد كمذهب
وحدة الوجود .. وربما أسفر هذا الوصول عن عشق يدعو إلى الجنون
فاذا الصوفى يصرخ « ما فى الجبة إلا الله » .. وإذا السيوف والنعال ترتفع
إلى رأسه ..

وربما أسفر هذا الوصول عن ثبات فى الدين وتمكن فى العقيدة .
اختلفت مصائر الصوفية كما اختلفت طرائقهم فى التذوق وإن جمع بينهم
جميعا خيط واحد ..

.. الحب ..

أنهم يرون أنهم يحبون الله كما لا يحبه أحد ..
وهم يرون أن الحب نسيج أصيل فى الكون ، وسر غائر من أسرار ..
يقول الرازى أن الآيات الواردة فى القرآن عن الأحكام الشرعية أقل من

ستمائة آية ، وان البواقي في بيان التوحيد والنبوة والدعوة الى الله . .
والقرآن يذكر كلمة الحب وينسبها الى الله تجاه البشر ، وينسبها الى
البشر ازاءه سبحانه . .

قال تعالى على لسان خاتم رسله :
« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم »
آل عمران (٣١) .

وقال تعالى حاكيا عن موسى :
« والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني » سورة طه (٣٩) .
وقال تعالى مخاطبا عموم المؤمنين :
« ان الله يحب المتقين » سورة التوبة (٩) .

وقد فسر الامام الغزالي حجة الاسلام قوله تعالى : « والذين آمنوا
اشد حبا لله » فقال . . أثبت الله تعالى الحب ، وأثبت أنه يزيد عند المؤمنين
لقوله تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله
والذين آمنوا اشد حبا لله » سورة البقرة (١٦٥) .

وينظر الصوفية اساسا الى الحب كعنصر اصيل من عناصر الكون
وسبب هام من اسباب الخلق . .

يقول الله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » . .
والعبادة قمة من قمم الحب وكمال من كمالاته . .

وقد فسر ابن عباس كلمة العبادة بالمعرفة وقرا الآية هكذا وما خلقت
الجن والانس الا ليعرفون . .

والمعرفة لازمة للحب . . هي سبب الحب . . ومن عرف عن الله أكثر
أحبه أكثر . . ومن لم يعرف عن الله الا القليل كان حبه على قدر معرفته .
ويتوقف الصوفية كثيرا أمام قوله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم
يحبهم ويحبونه » .

نريد أن نلاحظ أن الله لا يخوف الذين يرتدون عن دينهم بأن يلقيهم في النار أو يصب عليهم عذاب الجحيم بما فيه من نحاس مصهور ، نريد أن نلاحظ أن الله يخوف المرتدين بالحب .. بأن يستبدل بهم قوما يحبهم ويحبونه ، والارتداد عن الدين شرك ، والشرك فساد في العقل وهو أشرف ما في الإنسان ، وكان الله تعالى يهدد أقسى الذنوب وأرهبها بآرق ما في الوجود وأعذبهُ وهو الحب ..

يقول جلال الدين الرومي أن كلمة « يحبهم » يفين كامل ، أما كلمة « يحبونه » ، فمن ذا الذي يصدق عليه هذا الوصف .

يشير الرومي كمادة الصوفية بإيجاز إلى معنى بالغ العمق ..

ان الحب عطاء وتكريم ..

والله هو الذي يملك العطاء وحده والكرم ..

والله هو الذي يحب حبا ..

أما كلمة يحبونه .. أما الحب البشري .. في أرفع صورهِ .. حتى لو كان موجها إلى الله .. فماذا يستطيع أن يعطى ..

لا شيء ..

لو أعطى الإنسان وقته لله ، فالوقت ملك لله أصلا .

ولو قدم الإنسان كل ماله لله ، فالمال وديعة الله عند عبده .

ولو فرق الإنسان جسده في سبيل الله شظايا فهذا الجسد ملك لله ، هو خالقه من تراب ثم من نطفة .

لا يعطى الإنسان لله شيئا .

لا يملك أن يعطى من معنى الحب سوى شاطئته .

أما الله عز وجل فهو المعطى الوهاب حقا ..

هكذا ينظر الصوفية إلى العالم ..

أنهم يرون الحب قانونا حاكما في الوجود .. وسببا في ميلاد الكون .

ونسيجا تشف به الحياة على رحابتها وجلالها .. وهم يرون أن الله قد خلقنا ليتفضل علينا بحبه ، ويتفضل علينا مرة ثانية بأن يسمح لنا بحبه .. قال تعالى « **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** » ..

هل يشتري الله عز وجل - رغم أنه مالك كل شيء .. هل يشتري إلا شيئا يحبه ..

إن الله تعالى يلفظ « اشترى » يقرب من أذهان البشر أهمية العطاء .. والعطاء هو أول عطر يخرج من شجرة الحب ..

إذا كان التصوف هو فن الوصول إلى الله .. أو هو فن عبادة الله .. أو هو حب الله تبارك وتعالى .. إذا كان هذا حقا فهل كان عصر رسول الله وعصر الخلفاء الراشدين أقل حبا لله من عصر المائة الثانية بعد الهجرة .. حيث ظهر التصوف ..

نريد أن نسأل لماذا لم يظهر التصوف في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

الجواب على السؤال يسير .. كان عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد العصور حبا لله ، وكان الرسول أشد الخلق حبا لله لأنه كان أعرف الخلق بالله ، ولقد تحدث الله تعالى عن أبي الأنبياء إبراهيم فقال « **واتخذ الله إبراهيم خليلا** » .. ومعنى الخلّة شدة المحبة .. أما خاتم النبيين فقال الحق تعالى في حقه « **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** » .

واطلاق الرحمة عليه هذا الإطلاق يعنى أنه أشد عباد الله حبا لله .. لأن الرحمة أعرف بالرحمن الرحيم وأحب ..

وإذا .. تسقط دعوى حب الله حبا يقرب من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يساويه ..

لماذا لم ينشأ التصوف في عصره صلى الله عليه وسلم ؟

لم يكن التصوف قضية مطروحة في عصره كانت قضية قد استهلكت واستنفدت أغراضها .

يقول بعض الصوفية ان الرسول مر بتصفية النفس قبل ان يكون نبيا ،
فقد كان يتحنث في غار حراء ..

ونحن ننفي عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصف تصفية النفس ،
لان نفسه كانت صافية ولا تحتاج الى صفاء لم يكن يتعبد لانه متعكر ، وانما
لانه متحير ، ولم يكن تحنثه في غار حراء هو سبب هبوط الوحي عليه ..

لم يهبط الوحي عليه لانه ارتقى في تجاربه الروحية حتى اوحى الله اليه
انما هبط عليه الوحي اصطفاء من الله واختيارا لا دخل له فيه ولا تطلعات
عنده اليه ..

قال تعالى « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » فنفي عنه انه
كان ينتظر الرسالة او الوحي او يدري عنهما شيئا او عن الكتاب او الايمان
اي القرآن والتكاليف الشرعية ، لم يكن التصوف قضية مطروحة في عصر
رسول الله صلى الله عليه وسلم لسبب آخر .. ان تصفية القلب لله تعنى
السير على سنة رسول الله ، ولم يكن رسول الله قد انهى رسالته لتبدأ
التجارب الروحية بهدف تصفية القلب ..

**ايضا لم يظهر التصوف في عصر الرسول كفن من الفنون المعقدة لانشغال
المسلمين بما هو اخطر ..**

كانت هناك اعباء تشر الدعوة .. وهى اعباء فادحة ..

وكانت هناك المعارك الساخنة بين السيوف ، ومعارك الجدل القائم
في الأسواق والتجمعات .

وكان المسلمون يعبرون عن حبههم لله بالقتال في سبيله دفاعا عن الدعوة
اولا ، وثبرا لمبادئها ثانيا ..

كان الحب يأخذ شكل التعبير العملى ..

كان الحب عملا ..

لم يكن مجرد اقوال تقال في الليل .. والليل يدهن الكلمات بالزبدة .
فاذا طلعت عليها الشمس ذابت واسفر وجه الحقيقة ..

وكان طبيعيا ان تلد النزعة العملية لايام الاسلام الاولى . مع جفاف

الحياة وانشغال الأوقات ، كان طبيعيا أن يولد الزهد من هذا كله . .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم زاهدا بكل ما تحمله كلمة الزهد من معان حقيقية .

كان ينام على حصيرة في الأرض . . حتى لتترك الحصيرة آثارها في جنبه الشريف . . وكان يأكل فلا يشبع ، تعففا أن يأكل وفي أرض الله جائع ، وكانت عائشة من بيت غنى هو بيت أبي بكر ، وكانت تأكل في بيت أبيها أفخر الأطعمة ، فلما صارت أما المؤمنين بزواجها من رسول الله قالت « كنا لا نوقد النار ثلاثة أيام متتالية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل القديد (الخبز الجاف) وغموسه الزيت » .

كان الرسول زاهدا فقيرا . . وقد شكته نساؤه يوما لأنه لا يزيد في النفقة عليهن ، ولم ترتد بناته الذهب ولا لبست نساؤه الحرير ، وحين مات صلى الله عليه وسلم . . مات ودرعه مرهونة عند يهودى في طعام اشتراه لأهل بيته . .

هذا المحارب في سبيل الله دائما ، المجاهد في الله أبدا كان زاهدا وبدور الزهد موجودة في آيات القرآن .

« ففروا إلى الله انى لكم منه نذير مبين » .

« وما الحياة الدنيا الا لهو ولعب » .

« وما الحياة الدنيا الا متاع الفرور » .

تأمل قوله عن الحياة انها لهو . . ولعب . . والله هو اللعب كما يتبادر الى الذهن . . ولكن هناك معنيين للهو ولعب ، وهما — باعجاز القرآن — معنيان يستغرقان حقيقة الدنيا وباطنها الأجوف .

ولقد فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات حق الفهم . . فحارب لنشر الاسلام معرضا حياته للقتل . .

وفهم الصحابة قدر الدنيا فأثروا عليها الآخرة وعملوا في الدنيا ، لان الدنيا — رغم نفاستها — هى الطريق الوحيد للآخرة ، وهو ضريق هام وخطير رغم قيمته اليسيرة . .

ايضا فهم التابعون معنى الزهد ..
وسيطر على المسلمين في السنوات الاولى للدعوة ، فهم حقيقى للدعوة
كان الجهاد هو رهبانية هذه الامة الجديدة ..

كان لليهودية رهبان ، وكان للمسيحية رهبان ، وكان للأديان رهبان ،
وكان هؤلاء الرهبان ينقطعون في الصحراء ويعيشون في الأديرة ويتدارسون
في دينهم ويتجنبون الدنيا ويتأملون في الكون ، وكان للإسلام رهبان أيضا ،
ولكن رهبانا من لون جديد .. رهبان في الليل وفرسان في النهار .. وأحيانا
فرسان في الليل وفرسان في النهار .. فقد كان خالد بن الوليد يفاجئ
عدوه أحيانا في قلب الليل .. وكانت المعارك العسكرية تستغل أوقات
المسلمين سواء كانت ليلا أم نهارا ..
وهكذا كانت الأيام الأولى في الإسلام .. كانت الفروسية والجهاد هما
رهبانية المسلم ..

روى عن رسول الله قوله « لكل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه
الامة الجهاد » .

وفي الأيام الأولى للإسلام لم يكن الفرسان العظام يجدون وقتا للتصوف
.. أو اجراء التجارب الروحية .. كانوا مشغولين بالحرب والجهاد ..

وظلت الشعلة التي أوقدها الرسول صلى الله عليه وسلم تدفع المؤمنين ،
وانطلقت سيوف المسلمين تحطم أسوار الشعوب السجينة .. وتطلق الحرية
للمحرورين من الحرية ، وتفك السلاسل التي تكبل العقول أن تبحث
وتنتلق وتعرف خالقها الأحد ، ومرت أيام الله تعالى وانتقل رسول الله
صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى .. وحكم المسلمين بعده أبو بكر
الصديق ، ثم تلاه عمر بن الخطاب ، ثم ولى أمور المسلمين عثمان بن عفان ،
وقتل عثمان والمصحف في يده ونساؤه حوله .. وقتل على بن أبى طالب
رابع الخلفاء الراشدين كرم الله وجهه ، واستمرت الفتنة الكبرى ..

وارتفعت سيوف المسلمين بعد أن جرها الصراع السياسى للداهية
معاوية ، وسالت الدماء .. وتغير الوقت .. وولد التصوف من أفكار عديدة
.. أفكار ودماء وكلمات وقضايا ومواقف ..

وكان لا بد للتصوف أن ينبع منها ..
وقد نبع التصوف من مصادر عديدة ..
من حق الواقف أمام البحر أن يسأل نفسه .
كيف تولد البحار ؟

ومن أين تجيء كل هذه الأمواج والمياه والتيارات المائية وحركة الرياح
.. وما هي العلاقة بين الرياح والتيارات البحر وحركة دوران الأرض وحركة
دوران النجوم والمجرات ..
نحن نعرف أقل القليل .

وان كان كبرياؤنا يصور لنا أننا نعرف الكثير ..
من بين ما نعرفه أن البحار تولد عادة من بكاء السحب ..
في البدء يصطدم سحب يحمل شحنة كهرباء موجبة ، وسحاب يحمل
شحنة كهرباء سالبة ..

ومن الصدمة يولد البرق .. بعد ثوان من ميلاد البرق يرتج الأفق
بصوت الرعد ..

ثم تسقط الأمطار .. تذيب قمم الجبال وتذيب معادنها وصخورها
وتحفر مجاريها وتشق طريقها نحو البحر ..

يوما بعد يوم تعلو أمواج البحر ..
وكل الأنهار تجري الى البحر والبحر ليس بمלאن كما تقول التوراة ..

.....

هذا تفسير علمي لميلاد البحار ..

وهناك تفسير آخر لميلاد البحار ..

تفسير غير علمي وغير موضوعي .. تفسير عاشق اخرجته السهر
والوجد عن صوابه الى صواب أعمق . نفترض أن عاشقا مثل ابن الفارض
يريد أن يفسر لنا ميلاد البحر .. يقول أكثر من أربعة أبيات من الشعر :

ابرق بدا من جانب الفسور لامع

ام ارتفعت عن وجهه ليلي البراقع

انار الفضا ضاءت وسلمى بذى الفضا

.. ام ابتسمت عما حكته المدامع

ان ابن الفارض يعلم ان البرق يولد في السماء ، ولكنه - بوصفه
سلطان العاشقين - يرى ان وجه الحبيبة او وجه الحقيقة هو البرق ..
وهو يرمز لهذا الوجه باسم ليلي ..

اى ليلي .. نحن نعرف ..

هل هناك ليلي فعلا ام انه يحترق الى الحد الذي نخجل ان نساله
اين ليلاك ..

كل ما نعرفه ان هذه النار التي اضاءت هناك وسلمى جوارها ..
كانت تشبه ابتسامة بكت فيها سلمى ..

انشر خزامى فلاح ام عرف حاجر

بام القرى ام عطر عزة ضائع

اختلفت الروائع على العاشق فلم يعرف مصدر هذا العطر .. لم يعرف
كم قطرة من البنفسج وكم ذرة من الياسمين وكم جزيئا من الفل .. لم
يعرف هل جاء هذا العطر من خزامى .. ام من حاجر .. لم يعرف هل
جاء العطر من المدينتين الشهيرتين بصنع ائمن العطور .. لم يعرف وان
ادرك فجأة ان هذا عطرها هي ..

عطر عزة الضائع ..

لماذا ضاع عطر عزة من الحياة وظل في عقل العاشق ..

هذا سؤال سخييف فلا تساله للمحبين ..

تضيع الأشياء في دنيا الحب لأنها ينبغي ان تضيع .. ولو بقيت لما صار
لها معنى سوى التطفل ..

يحب الشاعر حتى الآن ثلاث نساء - اذا اخذنا كلماته بنص معناها -
وهو يحب امرأة واحدة اذا أدركنا مراده الحقيقي ..

في البيت الرابع سنراه يضيف اسما ..

الا ليت شعري هل سلمى مقيمة

بوادي الحمسى حيث المتيسم والع

اسمها سليمى ..

حبيبته الرابعة عند الحمقى وقصار النظر ..

والحق ان الرجل ليست لديه حبيبة لانه يعدد الاسماء ، وما دام يعددها فهذا معناه انه يسبح نحو بحار اخرى تتجاوز الاسماء ..

نحن امام متيم والع . هذا نص كلماته .. والعاشق اذا احترق رفعت عنه الجزية فاسلم ، وخرج عن نطاق الشرك الى التوحيد ، ولأن القرية التي تحترق لا تطالب بشيء سوى ان تظل والمة فكذلك العاشق .. هو الاولى ان يظل مضيئا باشتعاله ..

.....

هذا تفسير عاشق لميلاد البحر ..

ان بحار الحب ولدت عنده داخل منطقة مجهولة في عقله أو في قلبه أو في روحه ..

المنطقة مجهولة مرتين ..

مرة نحن لا نعرف هل هي في قلبه أم في عقله أم في روحه ..

مرة ثانية نحن لا نعرف في أى مكان هي في هذا الجزء من الحياة المجهولة .. الغامضة ..

أى تفسير تحبون ان تناقش به ميلاد التصوف ومصادره .

أى اجابة تحبون ان تكتبها على الرمال عن سر ميلاد البحار عند الصوفية ..

.....

نسال شاعرا كان عاشقا هو الآخر ..

يقول محمد اقبال « ليس من الصواب ان نرجع كل ظاهرة تظهر في احدى البيئات الى العوامل الخارجية .. فنهمل بذلك العوامل الداخلية ، ان اى فكرة من الأفكار ، لا يمكن ان يكون لها سلطان على النفوس ، الا اذا كانت تمت لهذه النفوس بصلة ، والعوامل الخارجية تجيء لايقاظ هذه

الفكرة ، ولكنها لا تخلقها خلقا .. وعندما بحث المستشرقون في أصل التصوف ، ذهبوا الى ان مصدره هذا العامل او ذلك ، وسسوا ان اى ظاهرة عقلية ، او تطور عقلى فى أمة ، لا يكون لهما معنى . ولا يمكن فهمهما الا على ضوء الظروف العقلية والسياسية والدينية والاجتماعية التى عاشت فيها هذه الامة قبل ظهور تلك الظاهرة » .

يقول د. أبو العلا عفيفى :

« بهذه العبارة الموجزة الرائعة لخص اقبال النقد الاساسى الذى نريد ان نوجهه الى المستشرقين فى نظرياتهم لنشأة التصوف .. وأشار الى الطريق الحقيقى لمعالجتها .. »

ما هو السر فى حماس الدكتور أبو العلا عفيفى وهو اسناذ للفلسفة لراى شاعر صوفى ؟

سر الحماس ان المستشرقين - او معظمهم - وقع فى خطأ مبدئى حين ناقش التصوف وبدأ يبحث عن اسبابه ..

وتمثل هذا الخطأ فى أنهم لم يأخذوا بمنهج اختلاف المستويات وتعدد المصادر ..

قالوا ان هذا البحر ولد من هذه السحابة التى مرت من هناك .. ونحب - بادية ذى بدء - ان نقول ان ارجاع التصوف لمصدر واحد أمر يفتقر كثيرا الى الدقة فضلا عن تجاوزه للصواب ..

وكل الآراء الاحادية النظرة ، او التى تعتقد ان هناك مصدرا واحدا لنشوء الأفكار ، كل هذه الآراء تقع فى أخطاء فادحة حين تقدم نفسها الينا فى بداية أبحاثه ، لجأ المستشرق نيكلسون الى التعميم فقال ان التصوف بكل نظرياته اسلامى أساسه القرآن واتهم المستشرق القرآن بالاضطراب والاختلاف لأنه وجد اضطرابا واختلافا فى نظريات التصوف ، وكان اضطراب منطقته هو السر فى حكمه الخاطيء ..

وقال المستشرق كريم ان الفضل فى نشوء التصوف الاسلامى يرجع الى الرهبانية المسيحية المؤسسة على الخوف من الله والرهبنة من الجحيم

.. وغفل كريم أن القرآن يحتشد بمشاهد القيامة والجحيم وفيه مجال خصب لامكان التطور بما لا يخرج عنه ..
ولكى نحدد أنفسنا ابتداء ..

نقول اننا لن نرجع لأحكام المستشرقين في أمور التصوف .. لا بأس ان نقرأ أبحاثهم ، ولا بأس أن نعترف لهم بفضل اكتشاف كنوز التراث الصوفي ، ولكننا نؤمن بهذه النظرة العلمية الحرة التي أوردها الدكتور عبد القادر محمود في كتابه « الفلسفة الصوفية في الاسلام » يقول « لا انكر ان بحوث المستشرقين قد افادت البحوث الاسلامية رغم عمومية احكامها احيانا وتعصبها احيانا اخرى . ودقة بعض مفهوماتها في القليل النادر ، ولا شك ان بعد المستشرقين جميعا عن الروح الاسلامي عامل هام في كل هذا ، وبخاصة اذا ذكرنا ان دراساتهم للتصوف الاسلامي لم تبدأ الا في القرن التاسع عشر لأول مرة » ..

هناك عبارة خطيرة في رأي الباحث ..

« بعد المستشرقين عن الروح الاسلامي » ..

هذه العبارة هي المسئول الاول في رأينا عن تعصب المستشرقين وآرائهم الخاطئة وهذا السم الذي دسوه لنا في العسل ، وهذه الأحجار الزجاجية التي قدموها الينا باعتبارها قطعا من الماس الاصيل ..

ان التصوف الاسلامي ذوق وشهود .. وليس علما باردا يمكن ان يناقشه عالم يرى ببصره وان كانت بصيرته عمياء ..

من الصعب على الباحثين في التصوف الاسلامي فهم التصوف بغير تذوق له .. سواء كان هذا التذوق دينيا او حضاريا او ادبيا ..

فما بالك بمن لا يؤمن بالاسلام اصلا ..

والاصل ان الزهد هو الاب الشرعي للتصوف .. ونحن نعرف أن الزهد في العصر الاسلامي الاول لم يكن حركة من الحركات الدينية ، ولا مذهباً من المذاهب ولا نظاماً جماعياً ، بل كان احساساً قلبياً بتفاهة الحياة وبساطة

الموت وهذه الرغبة في نشر الاسلام ..

والظاهر من سير بعض المجاهدين في الاسلام ، ان الجهاد كان يحظى بنفس النظرة التي التصقت فيما بعد بالزهد ، ثم انتقلت منه الى التصوف .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **مرابطون الى يوم القيامة** » ..

واشار بكلمته الى ان الجهاد قائم طالما ان الحياة قائمة ..

غير ان الحياة اوقعت المسلمين في اكثر من ازمة .. وجاء على المسلمين وقت ترادفت فيه المحن فصار الزهد والبعد عن الاحداث هو افضل جهاد ممكن ..

وقعت الفتنة الكبرى في تاريخ الاسلام استحييت بدورها ان تظهر يوم انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى . وان احداث النبا اضطرابا هائلا في المدينة المنورة ..

اظلمت المدينة واطلم فيها كل شيء ..

وبكى المؤمنون وحى السماء الذى اتقطع ..

وبكى المسلمون رحيل سيد الخلق وخاتم النبيين عن دنياهم ..
وكان السؤال المطروح يومها :

من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في حكم المسلمين ..

وحسم الموقف شخص ابى بكر وتاريخه . كان ابو بكر قد ولى الامامة الصغرى حين ام الناس في الصلاة بناء على طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض الموت ورغم معارضة عائشة فقد اصر النبي على امره ، وصلى ابو بكر بالناس ..

ولقد خشى بعض المسلمين ان يلى امورهم هذا الرجل اللين الدم الذى يبكى اذا صلى حتى تخضل لحيته بالدموع . وتحول هذا الرجل فيما بعد الى سيف صارم من سيوف الله في الارض حين بدات ماساة الردة وحين مات ابو بكر رضى الله تعالى عنه عادت الفتنة تحاول رفع رأسها ثم حسم الموقف شخص عمر بن الخطاب وتاريخه ، وخشى بعض المسلمين ان يلى امورهم هذا الرجل الشديد الذى يبطش اذا غضب ، وتحول هذا

الرجل فيما بعد الى رقة الحليم ، وحكم المسلمين حكما سيظل مثلاً اعلى
لنزاهه الحكم البشرى ..

ورغم ان عمر بن الخطاب كان يحرك باوامره جيوشا فتحت دمشق ،
واندحرت امامها الفرس في القادسية ، واندحر امامها البيزنطيون في اليرموك
رغم ان جيوش عمر بن الخطاب فتحت مصر وفارس ..

رغم هذا كله ، لم يكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يملك حرسا خاصا
يستطيع ان يدفع عنه الخيانة اذا امتدت اليه الخيانة ..

ان غلاما فارسيا هو ابو لؤلؤة فيروز ، كان يعمل في المدينة في خدمة
حاكم الكوفة المفيرة بن شعبة ، جاء الى عمر بن الخطاب يشتكى اليه
شيئا . فلم بجبهه الخليفة لانه رأى الحق ليس في جائبه ، فلما كان صباح
اليوم التالى وانتهى الخليفة الى المسجد ليوم المسلمين في صلاة الفجر طعنه
الفارسى بخنجره طعنتين ..

وكان سؤال عمر بن الخطاب وهو يموت عن قاتله وسر قتله ، فلما عرف
ان قاتله مجوسى وقد قتله لأسباب ليست عامة ، اطمأن بانه مات على
العدل فمات ..

وكان عثمان بن عفان هو ثالث الخلفاء الراشدين .. ولم يكن يملك
مثل شخصية سلفيه العظمين .. اتفق المسلمون عليهما واختلفوا فيه ..
وقد وقعت في عصره اخطاء تبرئه منها - تأديبا - ونسبها لمن حوله من
معاونيه ..

في العام الرابع والثلاثين من الهجرة النبوية انقض الثائرون على منزل
الخليفة وقتلوا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه وهو جالس يقرأ المصحف
في هدوء ، وسال دم الخليفة على قميصه وسال على نسخة القرآن التى
كان يقرأ فيها ..

ولعب قميص عثمان دور البطل بعد موته ..

وتداعت الاحداث وبدأت الفتنة الكبرى في الاسلام . وحمدا لله انها
لم تكن فتنة في كتاب الامه الاسلامية . وانما كانت فتنة سياسية تتصل
بصاحب الحق الاول في حكم المسلمين ..

وسالت دماء كل قطرة منها تكفى لملء الكون بحزن ثقیل فاجع .. قتل
على بن أبى طالب كرم الله وجهه بعد خمس سنوات من قتل عثمان ، وكان
ذلك فى مسجده بالكوفة وهو قائم یصلی ، وقد قتله رجل يدعى ابن ملجم
وكان معه مهرا لامرأة تسمى قطام .. وكان دمه مهرا لزواج معاوية من
السلطة السیاسیة وانفراده بحكم الدولة ..

بعد تسعة عشر عاما من قتل على بن أبى طالب فى الكوفة ، قتل
الحسین فى كربلاء واجتز القتلة رأسه الشریف وحمله الى یزید بن معاوية
ابن أبى سفیان زوج هند آكلة كبـد حمزة عم الرسول صلى الله علیه وسلم .
تمضى سفینتنا فى موج من الدم ..

سحاب من الفتن كقطع اللیل یمضى وراء سحاب .. والظلمة تشتد
وتتکاثف .

وثمة مواقف عجیبة ..

فتن تقف منها قوى متكافئة فى الفضل مختلفة فى الاتجاه والنظر
والآراء والمواقف ..

واقعة الجمل مثلا .. وقوف على ضد عائشة ..

**((وتوقفت المعركة امام الجمل الذى كانت تمتطیه السیدة عائشة
ام المؤمنین وتستفز من على ظهره المقاتلین حسب العادة العربیة المریقة ،
ولم تتم الغلبة لعلی الا بعد ان عقر الجمل الذى خلع اسمه على هذه
المعركة)) ..**

نفترض اننا كنا نعیش فى هذا العصر لای جيش كنا ننضم ..

هل ننضم لجيش على بن أبى طالب ونرفع السیف على عائشة ..

ام ننضم لجيش فیه عائشة لنرفع السیف ضد على ..

ان علیا لا یقف مع الباطل ..

وعائشة لا تقف مع الباطل ..

والامتحان بالغ الصعوبة ، وافضل للمرء ان یجرر اقدامه نحو جبل

بعید ویهجر هذا كله وینزوى ..

وهناك امتحانات يكون النجاح فيها هو الهرب منها .. وهذا ما فعله
بعض المسلمين يومئذ ..

انسلخوا من الحياة العامة ، وهجروا المجتمع الذى راح يتناقش
بالسيوف والحرايب ، وآثروا البعد عن لعبة السياسة الأموية القادرة التى
ارتدت قميص عثمان وطالبت بدمه وهى تفكر فى الحكم أولا وفى السياسة
أخيرا ..

وهكذا دفعت الأهوال والفتن كثيرا من المسلمين الى الفرار بدينهم
والزهد فى المساهمة فى الحياة العامة ، حتى ان جماعة من أهل بدر لزموا
بيوتهم واتخذوها منازل للآخرة .. فلم يخرجوا منها الا الى قبورهم ..
وفى المسلمين أيامها من عمد الى الصمت المطبق فمه .. روى الجاحظ أن
رجلا قال صحبت الربيع بن خيثم سنتين فما كلمنى الا مرتين خلال
العامين ..

سألنى : امك حية ..

وسألنى مرة أخرى : كم فى بنى تميم من مسجد ..

فلما قتل الحسين بن على أتى قوم اليه فقالوا لنستخرجن منه اليوم
كلما .. قالوا يا ربيع .. قتل الحسين ..

وجم الربيع .. ثم قال بعد فترة صمت « الله يحكم بينكم يوم القيامة
فيما كنتم فيه تختلفون » ..

كانت الفتنة سببا فى زهد البعض أو صمت البعض كما رأينا والزهد
والصمت بدرتان من بدور التصوف ..

وقد أقيت البدرتان فى أرض تصلح للزراعة ..

وعادت الأمطار تسقط ..

امطار أحيانا .. ودموع فى أحيان أخرى ..

ها هو بحر زين العابدين .. ابن سيد الشهداء الامام الحسين بن على
ابن أبى طالب ..

كان حزنه على أبيه عميقا ..

ولقد بكى الرجل رغم ان الرجال لا يكون ..

وقال يوما « فقد الاحبة فربة » .

وقد شرب اغترابه من حزنه على ابيه سيد الشهداء حتى اثمر واينع
واصبح الاغتراب مقاما من مقامات الزهد ..

واصبح الصوفي كالغريب في الدنيا لانها ليست داره ..

وهذا اصل كبير من اصول التصوف .

اذا كان الصوفي مفتربا ، وكان الفنان مفتربا ، فهل ينطوى الصوفي
على شيء من الفن ؟ وهل التصوف في حد ذاته فن ؟
ان الاجابة على هذين السؤالين امر بالغ الاهمية .

.....

حين ولد التصوف منذ ١٢ قرنا ، لم يكن مفهوم الفن او دور الفنان
قد اتسع وصار الى ما صار اليه اليوم من رقى وتعميد .

كانت الاشكال السائدة في التعبير الفنى منذ ١٤ قرنا (ايام البعثة
النبوية) هي رواية الاساطير وقول الشعر ..

وكان الكلام ينقسم في لغة العرب الى قسمين .. نثر وشعر .
وفي بداية الدعوة الاسلامية ، اتهم الجاهلون رسول الله صلى الله عليه
وسلم انه يروى الاساطير « وقالوا اساطير الاولين اكتبها فهي تملأ عليه
بكرة واصيلا » سورة الفرقان .

واتهموه بانه يقول الشعر « ام يقولون شاعر نربص به ريب المنون »
سورة الطور .

واتهموه - صلى الله عليه وسلم - بان الشياطين تنزلت عليه بهذا
الكلام المحير الذى يسميه القرآن ، فنفى عليه بهذا الكلام المحير الذى
يسميه القرآن ، فنفى الحق ذلك « وما تنزلت به الشياطين » . سورة
الشعراء .

وهذه التهم الثلاث تريد أن تضع الرسول في دائرة الفن . . وتخرجه من نطاق الرسالة . . وقد دحض القرآن الكريم هذه التهم جميعا وتحدث عن الفرق بين الرسالة الالهية . . والفن .

ورغم أن الشاعر كان يحتل في قومه مكانة ممتازة قبل بعثة الرسول ، ورغم أن قصائد الشعراء كانت تعلق على الكعبة ، « ومن هنا جاءت تسمية القصائد » « بالمعلقات » ورغم أن الشاعر بمثابة الذاكرة لقومه ، رغم هذا كله نفى القرآن عن الرسول قول الشعر . .

قال تعالى في سورة يس « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » .

وكلمة « وما ينبغي له » تعنى أن وصف الرسول بالشعر انتقاص من كماله صلى الله عليه وسلم . . لأن المسافة بين الشاعر والنبي هي مسافة بين عالمين يختلفان كل الاختلاف ، من الشرف أن يكون المرء فنانا أو شاعرا ، ولكن هذا الشرف إذا وجه الى الرسول كان تهمة وثقيصة ينزله الحق عنها .

وهكذا رد القرآن الكريم على كل ما وجه الى الرسول من اتهامات تتصل بالفن .

فيما يتعلق بأنه يروى الاساطير أو يكتبها قال تعالى « قل انزلني الذي يعلم السر في السماوات والأرض » سورة الفرقان .

وفيما يتصل بقول الشعر قال تعالى « انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر » سورة الحاقة .

وفيما يتصل بالهام الشياطين واتصالها قال تعالى « وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون » . سورة الشعراء .

.....

لا نعرف كم مر من الوقت حتى فهم العرب ان الكلام لم يعد ينقسم الى نثر وشعر . . انما صار ينقسم الآن الى ثلاثة اقسام .

نثر وشعر وقرآن ..

والنثر والشعر أسلوبان بشريان للتعبير ، أما القرآن فكلام الله تعالى ، وهذا الإعجاز الذى ينطوى عليه القرآن فى معانيه وصوره وموسيقاه الداخلية ، شئ يختلف تماما عن سحر الفن ..

لأن الفن ابداع وتخيل ، واختراع ما ليس له وجود .. والشاعر يقول ما لا يفعل .. أما القرآن فحق كله ، وليس فيه اختراع ولا تخيل ، والرسول لا يقول الا ما يفعل .

هذا الفارق الجوهرى من الفن والدعوة ، أو بين الشعر والرسالة ، هو الذى دفع القرآن - فى أكثر من سورة - الى تفهيم الناس حقيقة الأمر ، وقد سمى الله تعالى احدى سور القرآن باسم سورة الشعراء .. والسورة من سور القرآن القصيرة ، ورغم ذلك فعدد آياتها ٢٢٧ ، والآيات تتركب من جمل قصيرة ، ورغم قصر الجمل فقد جاء تركيبها الالهى معجزا متحديا ، وكان الحق يقول للبشر جميعا ان القرآن ليس شعرا ، وليس نثرا ، إنما هو كلام الله تعالى ، وكما أن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شئ ، فكذلك كلامه سبحانه ليس كمثله شئ .

.....

فى نهاية سورة الشعراء ، ينفى القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم أى شبهة فى اتصاله بالشعر أو شياطين الشعر ، وينبئ الله تعالى عباده ممن تتصل به الشياطين أو تنزل عليه .

« هل انبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفك اتيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » .

بهذه الآيات يفهم الله تعالى عبده ان الشياطين لا تنزل الا على فلوب الافك الأثمة . وان الشياطين يكذبون فيما يقولونه لاتباعهم من البشر . وان اتباعهم من البشر يكذبون فيما يقولونه للناس ، فالكذب متبادل والاتم متبادل .. ويمضى السياق القرآنى فاذا نحن ننقل انتقالة مفاجئة الى

الحديث عن الشعراء .. والنقلة ليست مفاجئة كما نظن ، فقد كان شعراء العرب يزعمون ان لكل شاعر شيطانه الذى يلهمه باعظم افكاره الفنية جنونا .. واراد الله تبارك وتعالى ان ينفى عن رسوله الكريم هذه التهم السخيفة التى تجعله مرة خاضعا لشياطين الشعر ومرة لرواة الاساطير .

بعد ذلك يوقفنا القرآن الكريم امام حقيقة الفن بحديثه عن الشعراء ، ويرسم فى ثلاث آيات قصيرة صورة للملامح النفسية للشعراء والفنانين عموما .. ويحدد الفروق الدقيقة بين الشعر والرسالة .. ويحدد الفروق بين طبيعة الفن وحقيقة الدعوة الى الله ..

يقول تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » .

هناك من يتبع الشعراء .. هناك سر خاص او سحر خاص فى كلام الشعراء يجعل الناس يتبعونهم .. ان الشعر فن ، واى فن لا بد له من جمهور ، وللشعراء جمهورهم .. والذين يتبعون الشعراء عادة هم الغاؤون .. فمن هم الغاؤون .

اطلق اللفظ قبل ذلك على آدم حين عصى ربه . قال تعالى « وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » . سورة طه .

لم تكن غواية آدم خطيئة لا تفتفر ، انما كانت انقيادا من آدم واستماتا لاحلام الشيطان ووعوده ونسيانا لاوامر الله الا يقرب هذه الشجرة ، وحين وسوس اليه الشيطان « هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » سورة طه ..

هذه الوسوسة كانت عملا فنيا ، بمعنى ان ابليس رسم صورة متخيلة من عنده ، اخترع شيئا لا وجود له فى الحقيقة واقنع به آدم ، وكان ابليس يكذب وهو يؤلف هذه القصة ، ولكن تصويره كان مقنعا الى الدرجة التى جعلت آدم عليه السلام ينقاد لهذه الصورة ويصدقها ..

كان ابليس اول فنان يصادفه آدم .. وبسبب قصته عن شجرة الخلد كانت غواية آدم .

من هذا المنطلق نفهم كيف يتبع الغاؤون شعراءهم .

ان الشاعر يرسم صورة متخيلة ليست هى الواقع . صورا لها مذاق الحلم . ويتبع الناس هذه الصور غير الحقيقية التى يجدون لها طعما أجمل من طعم الحقيقة .

ويمضى سياق الآيات فى سورة الشعراء فيحدثنا الله تبارك وتعالى عن صفة أخرى من صفات الشعراء والفنانين .
« ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » .

هذا الهيام فى الأودية صفة أساسية من صفات الفنان . . وهو تصوير فنى مسجز لحقيقة الفنانين والشعراء . .

ينتقل الشاعر من واد الى آخر ، هل يعنى ذلك انه ينتقل من مكان جغرافى الى مكان جغرافى آخر . . هذا متضمن فى المعنى . . والى جوار هذا المعنى تتضمن الصورة انتقالا من تجربة الى تجربة ، ومن مستوى الى آخر ، ومن معاناة الى معاناة أخرى ، ليست الأودية اذا مقصورة على الأماكن الجغرافية ، انما يمتد المعنى ليشمل مستويات من التصوير الفنى ، ويشمل مستويات من الابداع الفكرى ، وبهذه الآية يحدد القرآن صفة الفنانين بالقلق أحد الملامح النفسية البارزة للفنان . .

ان التنقل والتغير والملل السريع والقلق من صفات الشعراء والفنانين ، بينما الثبات والاطمئنان والسكينة من صفات الأنبياء والداعين الى الله . .
ويمضى السياق القرآنى فيورد أهم صفة من صفات الفنانين أو الشعراء
« وانهم يقولون ما لا يفعلون » .

وبهذه الآية المعجزة ، ينسف الحق عز وجل ادعاءات الجاهلين بأن الرسول شاعر ، ويضع معيارا للتفرقة بين الرسالة والشعر ، كان العرب يقولون « أعلب الشعر اكذبه » ، اشارة الى ان الفن ليس نقلا تصويريا لحقيقة الواقع ، فهناك لون من الوان الكذب الفنى فى الفن ، أما الكذب فأمر مستبعد تماما من الرسالة ، واذا كان التخيل والاختراع يعتبران موهبة عند الفنان ، فانهما نقيصة عند الداعية الى الله ، نقيصة يبرؤه

الحق منها ..

واذا كان الشاعر يقول ما لا يفعل ، فان قول الرسول هو فعله ..
واى رسول هو الفعل المجسد لكلمات الله ، ويدعو الرسول الى المثل العليا
بشخصه بل ان شخصه يكون هو المثل الاعلى لمعاصريه ومن ياتى بعدهم ،
وافعال الرسول مطابقة لأقواله تماما ..

اما الفنان او الشاعر .. فمن ذا الذى يستطيع الزعم بان قوله هو
فعله ؟

يدعو الفنان او الشاعر عادة للجمال والخير والحب والفضيلة ، ولكنه
لا يستطيع ان يكون بشخصه وافعاله وذاته نفس ما يدعو اليه ..
قد يكون هناك انفصال بين فن الفنان واسلوبه فى الحياة .
قد يكون هناك فرق بين القول والفعل عند الفنان او الشاعر .

ليس القول عند الفنان هو الفعل كما هو الامر بالنسبة للدعاة الى
الله نتأمل هذه الاشارة الالهية اللطيفة التى ترسم صورة لاحلام الفنان
العالية ، وقصور شخصيته عن بلوغ ما يدعو الناس اليه .. « وانهم
يقولون ما لا يفعلون » .

هل يعنى هذا ان نخرج الشعراء - كرمز للفنانين - من خيمة الاسلام
.. هل يعنى هذا ان الاسلام يقف ضد الفنون .

يقول الله تعالى فى نهاية الايات فى سورة الشعراء « **الا الذين آمنوا
وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا** » .

هناك استثناء فى لفظ « الا » ..

واذن تتسع خيمة الاسلام للشعراء المؤمنين الصالحين الداكرين ..
وتتسع للفنانيين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا .. وقديما
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اصدق شعر قالته العرب قول لبيد

« **الا كل شىء ما خلا الله باطل** » .

.....

يكون الصوفية هم الفنانين المؤمنين في الاسلام ؟

لقد فهمنا مكانة النبي ووضع الشعراء ..

يعرفنا الفرق بين ثبات الداعية الى الله وقلق الفنان وتحولاته ..

يعرفنا صدق الداعية الى الله وشطحات الفنان وأضافاته الوجدانية .

نريد الآن ان نسأل ..

لماذا نرى معظم تراث الصوفية ادبا من ارقى ألوان الادب وأعقدّها ؟

لماذا كان معظم الصوفية شعراء ، وكتابا . وحكماء .. ؟

لماذا نحس ونحن نقرا للصوفية انهم قوم يعانون معاناة بالغة تشبه معاناة الفنانين ؟

لماذا شطح بعض الصوفية شطحات تشبه شطحات الفنانين ؟

هل ينطوي الصوفي على شيء من الفن .. ؟

وهل التصوف في حد ذاته فن ؟

لن نجيب على هذه الاسئلة الآن ، انما سنترك للقارىء ان يجيب عليها بنفسه خلال ابحاره معنا ..

فقط .. نريد ان ننعش ذاكرة القارىء بتصورنا عن وجوه الشبهة ووجوه الاختلاف بين الصوفي والفنان ..

اول شيء يتفق فيه الصوفية مع الفنانين ان كل واحد فيهم يملك رؤياه الخاصة .. ويحس بالاغتراب عن مجتمعه .. والاحساس بالغربة اصل كبير من اصول الفن ، واصل كبير من اصول التصوف ، وقد كانت غربة « على زين العابدين » رضى الله تعالى عنه نبعاً شرب منه كثير من الصوفية فيما بعد ..

وليست مصادفة ان التصوف نشأ بعد القرن الثاني للهجرة ، ولقد كان مرور الوقت ووقوع الفتن أرضاً ولد فيها الاحساس بالغربة ، وبدأت علامات الاستفهام تولد على سطح الحياة .. ما هذا الذي يحدث ؟

ما هذه الدماء التي تراقى .. ؟

لماذا يموت من نحب أو يقتلون ؟ لماذا تقتل البراءة والتقوى بغير ذنب
سوى البراءة والتقوى ؟

وينفرس فى نفس الإنسان احساسه بالغربة .. بالابتعاد .. ويخاصم
الإنسان الواقع الكائن .. ويبتعد الصوفى برؤياه عن الواقع المضطرب ..
وكذلك يفعل الفنان ..

ان الفنان انسان يخاصم الحياة ، ويريد تجاوز الواقع الكائن ، ولا
يبدع الفنان اذا كان راضيا كل الرضا عن الحياة ، ليس هناك فن بشرى
بمعناه الأرضى فى الجنة ، لأن الجنة كمال مطلق والفن لا ..

لا يمارس العمل فى كمال مطلق ، وكذلك التصوف . فى عصر الرسول
وعصور الخلفاء الراشدين لم ينشأ التصوف لوجود الحد الأعلى من
الكمال .. وبعد ذلك نشأ التصوف كمحاولة لتكملة هذا النقص الذى
وقع لصورة الكمال .

وهدف الفنان النهائى هو تجاوز الواقع واستكمال النقص فى الحياة
وأداته هى التعبير الفنى المعقد المركب ..

أما هدف الصوفى فهو الوصول بتجاربه الروحية الى الله ، وأحيانا
يعبر الصوفى عن نفسه بالشعر أو الحكايات الرمزية أو النثر الغامض
والرموز ..

ومن الخطأ البالغ أن نتناول تعبير الصوفية الأدبى سواء كان شعرا
أو نثرا ، لنناقشه بمنطق الدين ..
هنا يمكن أن نخطئ كما أخطأ القدماء ..

ادعى الى الدقة كثيرا أن تناقش انتاجهم الفنى بمنطق الفن ..

إذا كانوا يتحدثون فى الأحكام الشرعية .. فهذا دين ..

وإذا كانوا يجتهدون فى الفقه .. فهذا تفسيرهم للفقه ..

وإذا كانوا يتحدثون بالشعر عن حب ليلى وعزة ، فهذا فن عظيم

نناقشه بمنطق الفن .. ونرى هل هو فن عظيم حقا أم ان هذه دعوى ؟

ولقد كان خطأ المستشرقين أنهم ناقشوا التصوف كدين ، وحسبوه على الدين .

ولما كان التصوف « حالة » ، وكان في الصوفية آلاف الحالات ، فمعنى هذا أن الدين سيخرج من ثبات الحقيقة الى اودية الحالات الفنية المتغيرة وهذا ما لا يرضاه أحد ، أو يقبل به منصف .

وهكذا يظل الصوفي تحت خيمة الاسلام ، ونعتبره داخلا في مجال الاسلام طالما كان داخلا في اطار الكتاب والسنة ، فان خرج الى ميدان الفن الفسيح ناقشناه بمنطق آخر ..

نضرب مثالا لتوضيح فكرتنا .

إذا قال العاشق المقيم قيس بن الملوح لنا « من فرط ما أحببت ليلي صرت أنا ليلي .. أحملها في قلبي وروحي .. ان ليلي هي روح روحي » .

لو قال قيس بن الملوح هذا لنا فماذا نقول ردا على جملته ..

هل نتهم انفسنا بعدم الفهم ام نتهمه بالجنون ؟ اختار معاصروه اسهل الطرق واتهموه بالجنون وذاع اسم شهرته فلم يعد يعرف الا به .. ذلك أن دعوى العشق لا يجوز عليها التصديق والقبول ، ولا يجوز عليها الرفض والاستبعاد .. طالما اننى لست أنا العاشق ..

لو كنا عاشقين فقد نفهم قيسا .. ولو لم تكن عاشقين فسوف نتهمه بالجنون .. (الا يقولون من ذاق عرف ؟) .

بماذا تعلق على أبيات الشاعر التي يقول فيها :

ينادى المنادى باستمها فاجيبه وادعى فليلي عن ندای تجيب

وما ذاك الا اننا روح واحد تداولنا جسمان وهو عجيب

كشخص له اسمان والذات واحد باى تنادى الذات منه تصيب

ان الشكل الذى قدمت لنا به الفكرة هو الشعر .. والشعر فن ..

ليس هذا فنا رقيقا ..

والمضمون الذى يريد الشاعر توصيله وهم يتصور فيه اتحاد

بليلى ، واتحاد البشر مفهوم ومعروف ، وهو مستحيل أن يقع بهذه

الصورة التى يتحدث عنها الشاعر الا للحظات ..

وبالتالى نسقط دعوى الاتحاد مع الخالق ، ويصير صرف ليلى الى الحقيقة الالهية فكرة مستبعدة ومرفوضة ..

غاية ما يمكن ان نفهمه من الشعر ان الشاعر يحب الله حبا لا يرى فيه نفسه ..

وقد عبر عن هذه الصورة بهذه الأبيات الشعرية .. وهى فن يمكن نقده وتحليله ، وليست ديناً يمكن اضافته الى الاسلام ، ومحاسبة الاسلام عليه كما يفعل بعض العلماء المفرضين والمستشرقين .

لا ننكر ان فى التصوف جزءا من الفن ..

ولا ننكر ان فى الفن العظيم جزءا من التصوف ..

والفن موهبة يمنحها الله لبعض عباده ، وشأنها شأن بقية المواهب امتحان يرى الله تعالى فيه أين يضع الانسان موهبته .

والصوفى كالفنان فى جزء من تركيبه النفسى .. فهو يملك قدرا من الحساسية البالغة والحدس العميق ، ويملك رؤياه الخاصة به ، ويملك قدرة على التعبير لا يملكها العابد فحسب .

ومثل الفنان .. يحلم الصوفى بتجاوز الواقع الظاهر لما هو أعمق وأخفى ، ويحب ان يضيف الى الكون جمالا لم يكن فيه قبل ان يولد ، وقد يصطدم الصوفى كما يصطدم الفنان بمجتمعه ، وقد ينتصر المجتمع على الصوفى او الفنان فينفيهما فى الأرض او تقيلهما .

ويتشابه الفنان والصوفى فى اعتمادهما على التجربة وصولا بفنهما الى الدروة ، واذا كانت تجربة الفنان تستوعب الجسم والروح ، فان تجربة الصوفى تعتمد على الروح أكثر من اعتمادها على الجسد ، يخطئ الفنان ليعبر عن الخطيئة . أما الصوفى فهو يسأل فحسب عن الخطيئة لكيلا يقع فيها .

وقد حدد لنا حسن البصرى هذا المعنى العميق حين سئل :

يا ابا سعيد .. انك تتكلم فى هذا العلم (الزهد) بكلام لم تسمعه من

احد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن اين اخذته ..

قال : من حذيفة بن اليمان حين قال : كان الناس يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت اسأله عن الشر مخافة ان اقع فيه ، وعلمت ان الخير لا يسبقنى ، وعلمت ان من لا يعرف الشر لا يعرف الخير .

.....

ايضا يتشابه الصوفى والفنان فى ان كليهما يقتات على الحب ..

وهنا يختلف الصوفى عن الفنان فى موضوع حبهما . وان اتفقا فى كثير من التعبيرات الادبية والفنية ..

فالفنان يسكر من رؤية الحبيبة ماديا ، وهو يشرب الخمر فى صحتها وينتشى بما يحس ويقول انه هى وانها هو ، وكذلك يفعل الصوفية ، يستخدمون نفس المصطلحات كالكأس والشراب والوجد والسكر والصحو ..

الفرق بين الفنان والصوفى ان الفنان يحب حبا بشريا ، ويتعلق قلبه بالبشر . ويريد الفنان اذا عشق ان يرى صورته فى عين من يحب ، والفنان يحب نفسه ويحب قدرته على الحب ويحب الحب قبل ان يحب الحبيبة ، وخطر ما يريد الفنان ان يكون محبوبا ..

هذا اقل آماله .. واعظم آماله ان يكون معبودا .

اما الصوفى فله وجهة نظر اخفى وارقى من وجهة نظر الفنان ..

يقول جلال الدين الرومى « ليس لكل احد ان يكون محبوبا ، فانه يحتاج الى صفات وفضائل لا يرزقها كل انسان .. ولكن لكل انسان ان يأخذ نصيبه فى الحب وينعم به .. فاذا فاتك يا سيدى ان تكون محبوبا ، فلا يفتك يا عزيزى ان تكون محبا .. وان لم يكن من حظك ان تكون يوسف .. فمن يمنحك ان تكون يعقوب .. ولو عرف المحبون ما ينعم به العشاق المتيمون ، لتمنوا مكانهم ، وخرجوا من صف المحبوبين السعداء الى صف المحبين البؤساء » .

الست ترى ان الصوفى اشد تواضعا من الفنان ..

.. السـت ترى أن الصوفى يحب أن يكون محباً.. أما الفنان فيحب أن يكون محبوباً ..

وعلى حين يؤكد الفنان ذاته فى الحب عن طريق تضييع هذه الذات ، يضيع الصوفى ذاته فى الحب .. وبضياع هذه الذات لا تبقى إلا ذات المحبوب وحده ..

ذات الخالق وحده ..

ولأن الفن يختار رجاله عادة من ذوى المشاعر العنيفة والحساسية العميقة ، نرى الفن يمتزج عادة بلون من ألوان المغالاة والتزويد والجنون ، وأحياناً نرى فى التصوف مغالاة وتزويداً ، وإذا كان قيس بن الملوح مجنوناً فى نظر المجتمع لأنه أحب ليلى كل هذا الحب ، فإن المجنون فى نظر نفسه كان هو العاقل الوحيد وكل الناس مجانين ، أما إذا نظر الصوفى لقيس ابن الملوح فسيراة مجنوناً لأنه ذهب إلى صورة ليلى ولم يذهب إلى المصور البارىء ..

ذهب إلى ليلى فعذبته ليلى حتى فقد عقله ، ولو ذهب إلى الله وفقد عقله لكان له شرف البهت والتحير والجنون فيمن يستحق بأعجازه البهت والتحير ..

.....

وإذا كان التصوف بحارا غريقة وجزرا وعرة .. فإن أفضل تمييز للتصوف هو تقسيمه إلى قسمين :

التصوف الإيجابى والتصوف السلبي .. أو التصوف الإسلامى والتصوف الفنى .

ومعيار التفرقة هنا هو الكتاب والسنة ..

ما كان محكوماً بإطار الكتاب والسنة ، كان تصوفاً إسلامياً ، وما خرج عنهما كان فناً يخضع لمقاييس الفن وقيم النقد ، ولم يعد يلزم الإسلام فى شيء .. لأن الإسلام هو الكتاب الذى أنزل علينا .. هو القرآن وما تواتر من السنة .. وما عدا ذلك من زيادة .. أفكار ليست هى الإسلام ولا تحسب عليه ..

وسوف ترى أن في التصوف رجالا كانوا هم التصوف الايجابى وحده ،
وسنرى رجالا يمتزج فيهم التصوف الايجابى بالتصوف السلبى ..
وسنرى الصوفية السلبين .

سنرى أن ذهن الانسان تمتزج فيه آلاف الافكار ، ورغم هذا كله ،
فان هناك بوصلة نستطيع اذا نظرنا فيها أن نعرف هل نبخر في الاتجاه
السليم نحو الحقيقة ..

أم نمضي نحو الفرق في عواصف البحار ..

نحسب أن الوقت قد حان للحديث عن مصادر التصوف وتفسيراته
ورجاله ..

كان الزواج القاسى بين الزهد والتأمل وظروف المجتمع الاسلامى
الداخلية والخارجية هو المسئول عن ميلاد التصوف بعد ٢٠٠ سنة من
هجرة الرسول .

ونحن نرفض تصديق دعوى المستشرقين التى ترى أن التصوف نبع
من مصدر واحد ، ونرى أنه نبع من أكثر من مصدر ..

الأول : بعض آيات فى الكتاب الكريم ..

الثانى : ما عرف عن الرسول من زهده وتأمله .

الثالث : التأثيرات الداخلية التى وقعت فى المجتمع الاسلامى فى المائتى
سنة الاولى من الهجرة (كالفتنة وعلم الكلام والاتجاه العقلى الذى استتبع
رد فعل وجدانى) .

الرابع : التأثيرات الخارجية التى وفدت على العقل الاسلامى نتيجة
احتكاكه بالفلسفة اليونانية وتجارب الامم الروحية والعقلية التى خضعت
للاسلام .

وقد قبلت نظريات كثيرة فى اصل التصوف ..

قيل ان التصوف تعبير عن الناحية الباطنية فى الاسلام ، وهذه هى
دعوى الصوفية أنفسهم .. اذ يعتبرون أنفسهم ورثة الرسول فى العلم ،
ولما كان الانبياء لا يورثون مالا ، فانهم يورثون العلم ..

وسنرى في هذا المجال ان بعض الصوفية حملوا آيات القرآن ما لا تحتل ، وفرضوا عليها أهواءهم فرضا ، واستحلوا لأنفسهم ان يفسروا بعض الكلمات القرآنية تفسيرا يستحيل ان تحتمله . . مثل تفسير الصوفية من الشيعة لقوله تعالى « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » قالوا ان البحرين هما علي وفاطمة ، أما اللؤلؤ والمرجان فهما الحسن والحسين . وهذا تفسير يعتسف المعنى ويفرضه على النص القرآنى . .

وقيل ان التصوف رد فعل للعقل الأرى ضد دين سامى فرض عليه فرضا . وتهافت الدعوى واضح ، وقيل ان التجارب الروحية للهنود اثرت على المسلمين ، وقيل ان التصوف الاسلامى نتاج فارسى فى نشأته وتطوره ، لأن عددا كبيرا من الصوفية من اصل فارسى . . وهذا كله كلام يلقى على عواهنه ، وسواء قيل ان اصل التصوف هو الهند او فارس ، فان الثابت ان أصله اعقد من ان يكون ناشئا من سبب واحد . .

وسنرى كلما ابهرنا فى بحار القوم ان مصادر الموج الهائج اعقد من ان تنسب الى سبب واحد او سحابة واحدة او تائه واحد .

.....

فى البدء . .

كان بحر الخوف من الله تعالى يمتد فى روح المسلمين . .

وكان الحياء الخائف من الله تعالى هو اسبق العناصر تأثيرا فى المسلمين . . يقول الله تعالى فى سورة فاطر « انما يخشى الله من عباده العلماء » . . وبهذا التخصيص يجعل الله تعالى خشيته برهانا على العلم ودليلا عليه وتسير آيات القرآن فى هذا الاتجاه .

يقول تعالى فى سورة البقرة « يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

ويقول تعالى فى سورة النساء « ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله » .

ويتحدث الحق تبارك وتعالى عن مناسك العبادة وشعائر الحج وذبح الأضحية فيلفت الانتباه الى حقيقة جوهرية في سورة الحج « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم » .

نتأمل معانى الآيات :

في سورة البقرة يحدثنا الله عن هدف الخليقة الانسانية ، فيقول سبحانه ان الهدف هو التقوى .

وفي سورة النساء يشير القرآن الكريم الى ان وصية التقوى الموجهة الى المسلمين هي نفسها وصية التقوى التي وجهت قبل ذلك الى الذين اوتوا الكتاب . . وهذا معناه ان الوصية قديمة يرجع تاريخها لنشأة النوع الانساني .

وفي سورة الحج يقول الحق للحجيج ان دماء الأضحية ولحومها لن تذهب الى الله ، انما سيذهب الرمز المختبئ في شعائر العبادة . . وهو التقوى . .

وبهذه الآيات كلها ينكشف لب الاسلام عن جوهر التقوى . والتقوى تعنى الخوف من الله تعالى والحياء منه ومراقبته في كل حال .

وبسبب اهمية التقوى البالغة . . يجعلها الله تعالى هي معيار الفضل الوحيد . . وهي معيار الكرم الوحيد . .

قال تعالى في سورة الحجرات « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . .

لم يقل الله سبحانه ان اكرمكم عند الله اغناكم . ولم يقل اعلمكم . ولم يقل احمكم ولا افضلكم حسبا ونسبا ، انما قال شيئا يتجاوز هذا كله . ان تصورات البشر وموازينهم تجعل الاولوية للثراء والعلم والجمال والحسب والنسب والسلطة والرئاسة . .

ولم يكن الحق يتحدث في سورة الحجرات عن موازين البشر . . قال تعالى : « ان اكرمكم عند الله » . .

نمّة سنوي آخر يختلف تماما عن موازين البشر وتصوراتهم . .

امام مستوى الالوهية الجليل ..

بقيس الله عز وجل كرم الناس بتقواهم لله ..

التقوى هي المعيار عند الله .. وهي وحدها التي توضع في الميزان ،
وهي وحدها التي تهيم .

هذا التتويج للتقوى أثر في قلوب المسلمين الأوائل ، فقد كانوا يتلقون
من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكان الرسول اتقى الناس لله ..

كان أشد الناس خوفا من الله ، وأشد الناس حياء من الله ، وأشد
الناس رهبة من جلال الله ، وكان حبه لله عز وجل لا يتجاوز اطار العبودية
وتوقير الله .. ورغم أن أعظم ذنوبه - صلى الله عليه وسلم - كانت
حسنات للمقربين والعابدين والأتقياء .. رغم معارضة الحق له على الكمال
لأنه يريد منه ذروة الكمال لا الكمال وحده .. رغم أنه كان صلى الله عليه
وسلم بلا ذنوب .. رغم أنه كان رحمة للعالمين بنص كتاب الله .. رغم أن
الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، رغم هذا كله كان يقوم الليل
ويصوم النهار فلما سئل لماذا وقد غفر الله لك ؟

اجاب : افلا اكون مبدا شكورا

ان اجابته صلى الله عليه وسلم تتضمن الاحساس بالعبودية
الشاكرة ..

والاحساس الدائم بالعبودية هو جوهر التقوى ..

ولقد عرف الاسلام نماذج من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين كانوا
امثلة عليا في خشية الله وتقواه ..

.....

بحر ابي بكر الصديق ..

مثل ريع تسوق السحاب والمطر كان كريما تقيا .. اكرم الرسول
بتصديقه وسمى الصديق .. واكرم الرسول بماله وكان قبل الاسلام
اعظم اغنياء مكة ، فصار بعد الاسلام رجلا فقيرا ذهبت امواله في الدعوة
الى الله .. واكرم الرسول بابنته عائشة ، واكرمه بمصاحبته في الهجرة ،

وكان قمة في العبادة ورقة المشاعر وسمو النفس ، ورغم ذلك فهو القائل
انه لا يامن مكر الله ولو وضع احدى قدميه في الجنة ..

هذا صاحب رسول الله ..

هذا مقدار تقواه لله ..

.....

بحر عمر بن الخطاب ..

مثل سيف لا يقف امامه شيء كان كريما تقيا .. في ظروف الاسلام
الاولى ، ايام الحصار والجوع والبؤس والتعذيب والاضطهاد .. سأل
رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ان يعز الاسلام بأحد العمرين ..
واستجاب الله تعالى ..

كان عمر بن الخطاب هو الرجل الذي اعز الاسلام بشجاعته في الحق
.. وكان عمر بن الخطاب هو الحاكم الذي يتقلب في فراشه خوفا من ان
تنكفئ عنزة في احدى طرق العراق فيسأله الله لماذا لم يمهّد لها الطريق
وهو حاكم على المسلمين ومستول عن طرقهم وكبوات حيواناتهم ..

.....

بحر علي بن ابي طالب ..

وسيدنا علي هو باب مدينة العلم .. وهو اول صبي يؤمن بالاسلام ،
وهو الذي تربى في بيت النبوة .. وشرب آدابها وسقى من تقواها .

.....

بحر عثمان بن عفان ..

قتل الرجل الكريم وهو يقرأ كتاب سيده ومولاه .. قتل وهو يقرأ في
المصحف ، وكان يقول :

« اذا جاء العبد كتاب من سيده وجب عليه ان ينظر فيه كل يوم » .
نريد ان نلاحظ استخدامه لتعبير العبد ..

لقد استخدم الرسول نفس التعبير قبل ذلك حين سئل لماذا يجهد

نفسه وقد ففر الله له ..

ان الاحساس بالمبودية هو جوهر التقوى ..
والخوف من الله تعالى والدلة بين يديه والافتقار اليه هو جوهر
التقوى ..

وسوف نلمح في جميع الصحابة والتابعين هذا الاحساس البالغ بتقوى
الله وخشيته ..

.....

بحر سيدنا الحسين بن علي ..
صنع موجة من خشية الله ..
وتوجته الشهادة ..

ويسيل دمه في الله .. رمزا للبراءة التي يقتلها الدهاء والظلم ..
وينتقل الموج الخائف الى بحر ابنه ..

.....

ما اشد هدوء هذا البحر ..
وما اعظم صفاء أمواجه ..
هذا بحر الكريم ابن الكريم ابن الكريم ..
بحر علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ..

المياه هادئة ساكنة ..

القاع عميق وان ارتعشت رماله بالخوف من الله ..
الامواج جاءت من دموع الخشية من الله والهيبة من جلاله ..
لم نزل في منطقة الزهد الخائف ..
لم ندخل بعد منطقة التصوف المعقد ..

هذا البحر هو المدرسة الاولى من مدارس الزهد الذي تطور الى
التصوف .. لقد كان التشيع المعتدل واحدا من اهم العوامل التي اعانت
على تطور الزهد الى التصوف كما لاحظ الدكتور عبد القادر محمود .

وكانت المأساة التي وقعت لاهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم
هى الجسر الذى وصل بين اهل السنة والشيعة .. فاذا كثير من السنيين
ينجازون بمشاعرهم الى آل البيت .. واذا آل البيت أنفسهم يحسون
الاغتراب ، واذا المنحازون اليهم يحسون بنفس المشاعر ، ومن الغربة
يولد الحزن .. والحزن ينمو فى بدايته تحت شمس اليأس فى الدنيا ،
تسقيه دموع الامطار المفتربة .

يوما بعد يوم تورق اشجار الحزن فاذا نحن امام حديقة باكملها من
الحزن ..

.....

على زين العابدين يسر فى السنة التسمين الهجرية .. استعداد تاما
للموت بعد سنوات لا يعلمها وان كان مكتوبا فى علم الغيب انه سيموت
فى السنة الخامسة والتسمين للهجرة ..

يرتدى الحرير ويخب فى عباءة غالية .. على وجهه مسحة من نبل
حزين .

هو زاهد يلبس الحرير .. ليس الزهد عنده هو فراغ اليد من الدنيا ،
وانما الزهد هو فراغ القلب من الدنيا .. وقد فرغ قلبه من الدنيا واغترب
فيها ..

ان تكون الدنيا فى يدك وخارج قلبك ..

ان تكون قادرا عليها وسيدا فيها ومزدريا لها ومحتقرا لها فى نفس
الوقت ..

هذا هو الزهد ..

سئل منذ ليلتين كيف حالك فقال : فقد الاحبة غربة ..

شرب اغترابه من حزنه على ابيه سيد الشهداء الامام الحسين ..
ورغم ان اسمه الاصلى هو « على بن الحسين بن على » .. الا ان شهرته
بزين العابدين التصقت باسمه فلم يعد يعرف الا بها .. هو على زين
العابدين ..

هو على التقى الذى كان يقوم طرفا من الليل للتهجد والعبادة ، فإذا سار اثناء النهار سار بوجه شاحب من أثر سهر الليل ، وافشت عيناه سر بكائه الطويل طوال ليلة الأمس خوفا من الله وأملا في رضاه ..

عبد عابد من عباد الله ..

وكلماته في ابتهالاته تشي بحكمته وأدبه النبوى فهو يستمد من مشكاة النبوة مباشرة ..

تورد الصحيفة السجادية قول على زين العابدين في ابتغال من ابتهالاته « اللهم لك قلبى ولسانى . وبك نجاتى وأمانى . انت العالم بسرى وأعلانى » .

يسلم الرجل قلبه ولسانه لله ..

واللسان يترجم عما يريد الانسان قوله ، فهو هنا رمز للظاهر الذى يحب الانسان من غيره أن يعرفه عنه ..

اما القلب فرمز لأسرار الانسان ودخيلته .. هو رمز للمخبوء في باطنه ، وحين يسلم على زين العابدين قلبه ولسانه لله ، يعنى أنه يسلم سره وعلايته ، فيجعل ما على لسانه وما في قلبه ملكا لله عز وجل .. ولأنه يفعل ذلك يدرك أن نجاته وأمانه يستمدان من مصدر واحد هو الله ، فلا نجاة ولا أمان في البعد عن الله .

يقول على زين العابدين في ابتهالاته : « اللهم امت قلبى عن البغضاء ، واصمت لسانى عن الفحشاء ، واخلص سريرتى وعلايتى عن غلائق الأهواء . واكفى بامانك عواقب الضراء ، واجعل سرى معقودا على مراقبتك ، واعلانى موافقا لطاعتك » .

يسأل العابد الله تبارك وتعالى أن يجعل سره معقودا على مراقبة الله واعلانه موافقا لطاعة الله .. وهذه الفكرة الاسلامية الخام ، سوف نعثر عليها فيما بعد مفصلة عند حجة الاسلام الامام الغزالى فى استواء السر والعلن .

نريد ان نلاحظ ملاحظة هامة ..

نحن لم نزل نبحر في بحار الحزن المفترب الخائف ..

وقد نما مقام الفربة التي تستهدف الآخرة عند سيدنا على
زين العابدين ، وتسرب منه الى الحسن البصري بعد ذلك .. يقول
ابو طالب المكي في قوت القلوب : « كان الحسن البصري اذا اقبل فكانما
اقبل من دفن حميمه ، واذا جلس فكانه اسير قد امر بضرب عنقه ، وكان
اذا ذكرت النار عنده فكانها لم تخلق الا له .. »

كان الخوف حالا من حالات العلم ..

كان الخوف من الله مقاما يقيم فيه العارف بالله ..

قال تعالى : « ومن خاف مقام ربه جنتان » .

والحسن البصري هو الذي ربط الخوف بكونه حالا في مقام العلم
تمكينا للوصول الى اليقين « فاعبد ربك حتى ياتيك اليقين » ..

والطريق الى اليقين يمر بالخوف من الله تعالى ..

ويبدأ الطريق بالتوبة فالصبر .. والشكر .. والخوف .. والرجاء
.. والتوكل .. والمحبة .

وقد سئل جعفر الصادق ما بالنا ندعو الله فلا يستجاب لنا ..

فقال : لانكم تدعون من لا تعرفونه ..

نفس السؤال وجه الى احد تلاميذه بعد ذلك فاجاب : لانكم تعرفون
الله ولا تطيعونه ..

نفس السؤال تكرر بعد ذلك على تلميذ لتلميذه .

كان السؤال قد تحور هذه المرة ..

قيل له اتنا ندعو فلا نجاب .. والله يقول ادعوني استجب لكم .

فقال : ماتت قلوبكم في عشرة اشياء :

١ - عرفتم الله ولم تؤدوا حقه .

- ٢ - وقرأتم كتابه ولم تعملوا به .
 - ٣ - وزعمتم محبة رسوله وتركتم سنته .
 - ٤ - وادعيتم عداوة الشيطان ورافقتموه .
 - ٥ - وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ..
 - ٦ - وقلتم نخاف النار ووهبتم أنفسكم لها .
 - ٧ - وقلتم الموت حق ولم تستعدوا له .
 - ٨ - واشتغلتم بعيوب اخوانكم وببذات عيوبكم .
 - ٩ - واكلمتم نعمة ربكم ولم تشكروها .
 - ١٠ - ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا .
- فكيف يستجاب لكم ؟ ..

✽ استغرق الخوف من الله وقتا حتى تحول من الزهد الى التصوف
وخلال هذا الوقت قدم الاسلام نماذج مثل عتبة الفلام لم يكن غلاما حين
اطلق عليه اللقب ، ولا كان غلاما حين مات ، لقد تجاوز الثالثة والثلاثين
مثل عيسى حين لقي ربه ..

انما سموه عتبة الفلام لانه كان نحىلا متوسط القامة ، وكان في العبادة
غلام رهان ..

وقد استشهد عتبة وهو يفزو في سبيل الله في شمال الشام .. وجلس
اصدقاؤه يذكرونه ويتحدثون عنه ، لعل الحديث يحييهم ساعة في ملكوت
السموات فيستحشوا خطوهم الى الله ..

قالت جارته ام عطاء : رحم الله عتبة .. كان جارا لنا وكان هينا
كالنسيمة .

وقال احمد بن زهير : كنا نطلب المنزلة في نفوس الناس الا عتبة ،
فقد كان يرى ابتغاء المنزلة عند الناس هو السقوط من عين الله .. وكان
يفرح لما يرى من هوانه على الذين لا يعرفونه .. وكان الناس لا يلتفتون اليه
لصغر حجمه .. ركبنا سفينة مع عتبة ، واضطربت السفينة من الرياح
وجعلت تميل وتستوى ، فاراد الملاح ان يعدل جلوسنا فلم يجد في عينه
اهون من عتبة ، فدفعه في جنبه وقال : استويا هذا بازاء من بجوارك ..

واشرق وجه عتبة بالسرور .. وغمغم يقول لنفسه : الحمد لله ان لم ير فيهم احقر في عينيه منى .

وقرات ام عطاء قوله تعالى ((وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)) .

وحكت ام عطاء عن عتبة الغلام ..

كان ياخذ دقيقه فيبله في الماء فيعجنه ويضعه في الشمس حتى يجف .. فاذا جاء الليل اخذه واكل منه لقما ثم يشرب قليلا من الماء ..

وقلت له : يا عتبة ، لو اعطيتنى دقيقك فخبزته لك .. قال : يا ام عطاء . الامر اعجل من ذلك .. كسرة وملح تسد عنى كلب الجوع .

.....

كان عتبة الغلام متعجلا .. فعلى اى شىء ؟

ان دعاءه يستطيع ان يفشى لنا سره .

كان اعظم دعاء له ((اللهم احشر عتبة بين حواصل الطير وبطن السباع)) .

وقد استجاب الله دعاءه ..

والدعاء فى الاسلام مخ العبادة ، هو عقلها واداتها .. والاصل ان

المسلم لا يحمل هم الاجابة . انما يحمل هم الدعاء .. يكفى ان يكون مؤمنا ويدعو حتى يستجيب الله لدعائه ..

ليست هناك مشكلة فى الاجابة ..

المشكلة كلها فى الدعاء .

((اذا الهمت الدعاء جاءت الاجابة معه)) .

وهكذا دعا عتبة الغلام ..

لم يكن يدعو ان يجعله الله سيدا فى قومه ، او ثريا ، او ذكيا ، او ملكا ، او رئيسا يحكم . لم يكن بدعو الله ان يحفظ صحته وحياته او

يبارك في امواله وأولاده .. لم يكن يسأل الله لنفسه أى شيء .
خرج من ملك نفسه الضيق الى ملك الله الواسع .
لم يعد سجين مطالب البشر ، وهى مطالب مشروعة يستن الدعاء
بها ..
لم يعد عتبة الغلام يريد لنفسه شيئاً لقد احب الله لا الحياة ..
واحب الاسلام لا سلامته هو .
واحب ان ينشر الدعوة ولو مرق جسده في سبيل الله ..
واحب ان تاكل جسده الممزق هذه الطيور الجارحة وهذه السباع
الجائعة .
ان عتبة الغلام لم يزل مستمرا في العطاء ..
لا يقتصر عطاؤه على الجيش او الحياة الاسلامية او مركز الاسلام
الممتاز أو هيئته .
انما يمتد عطاؤه الى الطيور والوحوش .
يريد ان تمتلئ حواصل الطيور باجزاء من جسده .
ويريد ان تمتلئ بطون السباع باجزاء من جسده .
انه يقدم بعد موته دليلا على كرمه .. فيجعل من جسده مائدة للطيور
والحيوان .
حتى لو كانت الطيور جارحة .. وكان الحيوان وحشا .
ليس هؤلاء بعض الخلائق ..
فليعط الخلائق اذن حتى بعد موته .
ويسير عتبة الغلام قاصدا الشام ..
« يعرف ان حياته على الارض مثل طائر عذب النغم وقف ساعة على
غصن .. ففنى ثم طار » .

كان عتبة الفلام يريد ان يغنى بصوت له صليل سيوف تدافع من الاسلام والانسان ..

وظل مسافرا حتى وصل الى شمال الشام . .

المكان : اسمه المصيصة ..

الزمان : بعد صلاة الظهر ..

فوجيء قادة الجيش بهذا الزاهد العابد النحيل الضعيف داحلا عليهم سألوه ! ما جاء بك ؟ .

قال عتبة الفلام : جئت اغزو .. رايت في المنام انى اتيت اغزو فاستشهد .

قال مخلد بن الحسين : ما عن هذا اسأل ولكننا نصول بنى الاصفر ، وهم قوم اشداء ، لا ينفع في نزالهم شبح انضته العبادة والسهر مثلك .. ولا احسب ان عودك هذا الخفيف يستقر على صهوة جواد اذا كره به وفر ..

استمع عتبة الفلام لهذه الكلمات بما تضمنه من سخرية خفيفة .. ونظر الى القائد المسكرى نظرة اصابت قلبه كأنها سهم .. وتلون وجهه وقال :

يا ابن الحسين . ليس العجب ان ينفر الهزيل الشاحب لقتال اعداء الله ، وانما العجب ان ينفر اليهم مشوش الايمان زائف القلب والعقل ، وان النصر لا يبطيء عن جيش من جيوش الله الا ان يكون فيه من غره شيطانه عن ربه ، يا ابن الحسين . لو اتنا تقاتل القوم بمثل ايمانهم لكان من احمق الحمق ان نلقاهم وعددنا قليل ، وسلاحنا قليل ..

ولكن شتان بين ايمان وايمان ..

ويارب نفس رمقت جلال الله فذهب عنها غرورها ، فلم تشهد الا فقرها اليه وعجزها بين يديه ، فامدها بسر من بأسه ، وايدها بكوكبة من جنده ، فاذا هى فى الميدان يصول فيها سر الله ويجول ، فوالله لان يثبت الكافر لجبل ينقض عليه اهون من ان يثبت لضربة من صرباتها ..

يا ابن الحسين .. اذك لن تنصر الله فى معركة حتى تنصره فى نفسك

بتغليب امره على هواك ، فان كنت فارس هذه المعركة فانت فارس الاخرى
بإذن الله .. فانظر ماذا يغنى لحملك وشحملك اذا آتت خذلته في الأرض
وجئت تطلب نصره في الثانية .. وهو الذي جعل هذه بتلك جزاء وفاقا
ووعدا حقا في قوله سبحانه « **ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم** »
انتهى عتبة الفلام من كلامه لقائد الجيش .

قال مخلد بن الحسين : فوالله لقد انكسرت لما قال .. وكأنا اهدى
الى نفسى فقلت له : يرحمك الله يا اخى .. انما كنت امزح . وحين رأى
عتبة في اجابة مخلد انه يتضعضع له حياء مما آتى .. انثنى يجبر ما انكسر
من نفسه فقال عتبة : ان بسطة الجسم من أجل مواهب الله ، وانها لمن
ملقيات الرعب في قلوب اعدائه ، والمؤمن القوى خير وأحب الى الله من
المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، وما غاب عنى والله ضعف جسمى وان
ليس فيه ما يرهب عدو الله ، ولقد اهمنى ذلك ، (اقلقنى) وحدثت به
نفسى فقلت حين نزلت حلب : اذا قصر جسمى ان يرهب عدو الله
فلألقينهم بجواد يكون ارهب لهم من سرية ..

وقلت لبعض اخواني اشتروا لى فرسا يفيظ المشركين اذ راوه
فاشتروا لى ذلك الجواد ..

اشار عتبة بيده نحو جواد عربى اصيل جواد حرب لا يفزعه صليل
السيوف وانما يرفع صاحبه ليكون اقدر على ان يهوى بسيفه على
خصمه ..

.....

وانضم عتبة للجيش المحارب .

كانت هناك فترة ترقب وتاهب ..

كانت ساعة الهجوم لم تحدد بعد .

واكتشف الحرس الليلى للمسلمين ان عتبة الفلام يغنيهم عن السهر ..

كان هو الساهر يوميا حتى اذان الفجر .. كان الحرس فى خيمته ينام
اعتمادا عليه . كان يكفيهم مثونة السهر .

هو الساهر دائما ، أما قارئاً للقرآن أو مصليا أو ذاكرا .. كان الجيش يضم يحيى الواسطي أيضا وهو من الزاهدين ورأى مغلد بن الحسين في منامه ذات ليلة حلما .

رأى أن ملكا نزل من السماء ومعه ثلاثة اكفان من اكفان الجنة ، فألبس عتبة الغلام كفنا ، وألبس يحيى كفنا ، وألبس رجلا ثالثا كفنا ، فلما جاء الصباح واستيقظ فكر أن يحدثهم عن حلمه ، ولكن عتبة الغلام قال له :

يا أبا محمد .. انتظر . لا تحدث برؤياك الآن .
ودهش مغلد ، ولكنه سكت ..

كان القوم مرابطين ، ولم يكن هناك غزو تلتحم فيه الجيوش .. واستمر الحال على ذلك شهرا ..

وجاءت ليلة ، وأحس مغلد أن أحدا يحركه في سريره . فتح عينيه واستيقظ فوجد عتبة الغلام ..

سال : ما حاجتك ؟

قال عتبة : اجلس فقص على الرؤيا ، فما أحسب إلا أن قد دنا الموعد .. وحده مغلد برؤياه ، وانصرف عتبة .. لم يكذب ينصرف حتى نودى بالجهاد . وفزع مغلد إلى جواده فأسرجه ، فلما بلغ باب القلعة كان عتبة قد سبقه إليه ..

وفتح القائد الباب وبدأ الهجوم الليلي يحكى مغلد القصة « بلغنا مكانا به بعض آثار العدو .. قلت : من يجيئنا بخبر هؤلاء .

وثب عتبة .. وقال : أنا .

واختفى عتبة في جوف الليل ..

« إذا ألهمت الدعاء ألهمت الإجابة معه » .

« أنا أحمل هم الدعاء لا هم الإجابة » .

« اللهم احشر عتبة في حواصل الطير وبطن السباع » .

« اللهم ارزق عتبة اليوم شهادة في سبيلك تقر بها عين المسلمين »

لا احد يعرف اى شىء كان يفكر فيه عتبة ..

كل ما راوه حضانه وهو يغوص في قلب الليل الاسود ..

وسيفه وهو يرتفع كالقضاء والقدر ..

اسفرت المعركة عن قتل عتبة الغلام .. بعد ان روت الاساطير طرفا من شجاعته في المعركة وعدد قتلاه من المشركين .. انطلق يصول فيهم ويجول بسر الله .. وايده الله بكوكبة من عنده ، فبدأ حصانه الاشهب مثل برق ينسف اشجار الغابة ويشقها ويشعل فيها حمرة النار والدم ، ثم استجاب الله دعاءه ..

كان قد الهم الدعاء فوردت الاستجابة .

وهكذا هز احد الأعداء حربته ، حتى اذا رضى مكانها في يده ، ارسلها الى ظهر البطل فمرقت في جوفه حتى احس سنائها بين ثدييه ..

وصرخ يكبر الله هاتفا : فزت ورب الكعبة ..

وفازت الطير والسباع بعشائها ..

وبات كل الخلائق راضيا من نفسه ..

سنجد صورة عتبة مكررة في عمرو بن عتبة .. وهو ليس ابنا لعتبة كما يبدو من تشابه الأسماء . انما هو ابن أمير ماسبذان وهو ابن أمير حاكم ، وأبوه يريد ان يكون الابن حاكما من بعده ، والاب لا يستطيع العثور على ابنه .. فهو اما ساهر يتعبد ، واما مسافر يغزو في سبيل الله ..

او هو على حد تعبير الاب « كثير التجوال والترحال والسفر ، اذا اقام بيننا اقام كانه غريب ، لا ياكل مما ناكل ، ولا ينام كما ننام ، ولا يأخذ فيما نأخذ، ونفسى تكاد تذهب من الرقة كلما رايته في نحوله وعذابه .. »

ويسوق الأب على ابنه بعض الزاهدين والصالحين والعلماء ليحدثوه
أن يرفق بنفسه ، ويرد الابن على أبيه كأنما يضرع إليه .

— يا أبت .. إنما أنا عبد أعمل في فكاك رقبتى فدعنى أعمل في فكاكها .
ويتركه الأب لشأنه ..

وكان شأنه يسيرا على نفسه .

كان لعمر بن عتبة رفيقان كل يوم ، يتسحر بأحدهما ويفطر بالآخر
واغناه عما للناس من أسرة وفرش وأرائك ووسائد اغناه عن هذا كله
حصير عتيق يريح عليه جسمه ساعة من الليل أو بعض ساعة .

وكانت له عبارة يقولها عن صديقه معضد العجلي « لولا ظلما الهواجر،
وطول ليل الشتاء : ولذة التهجد بكتاب الله عز وجل ما باليت أن أكون
عشبا » .

وقال أصحابه « كنا إذا خرجنا للعدو لا نتحارس بالليل لكثرة صلاة
عمر وقيامه » .

وحدث عمرو عن نفسه فقال : « سألت الله ثلاثا فأعطاني اثنتين ..
وأنا أنتظر الثالثة . سألته أن يزهدنى في الدنيا ، فما أبالى الآن ما أقبل
منها وما أدبر ، وسألته أن يقوينى على الصلاة فرزقنى منها وسألته
الشهادة فأنا أرجوها » .

خرج يوما على بعض رفاقه في جبة جميلة وعباءة حسنة ، وأشار
بأصبعه لموضع في الجبة وقال « ما أحسن أن يتحدر دمي على هذه الجبة
ويجرى عليها هنا وهاهنا . »

والمعروف في العقيدة الإسلامية .. أن قلب المؤمن حين يدعو ، إنما
يدعو بصدى ما يحسه من قرب مقادير الله .. وسرائر المؤمنين في الأرض
هي المرأة التي يتراءى فيها ما يشاء الله أن يظهره من مقاديره الموشكة
.. وحين يدعو المؤمن بأمله الحقيقي ، يكون القدر على قيد خطوتين منه
وقد حضر بما يريد ..

خرج عمرو مع صحابته ، فاستقبلهم واد ضاحك مبتهج طلق الهواء
لين النسمات وتحرك في نفسه وجد هالم .. وقال « ما أحسن هذا

الوادی .. ما احسن الآن لو ان مناديا نادى .. يا خيل الله اركبى » .

وما اسرع ان نادى المنادى : ياخيل الله اركبى ..

يعنى يا خيلا ستجاهد فى سبيل الله فليركب فرسانك ..

وعلم ابوه بركوبه فى سبيل الله .. وأرسل وراءه من يستدعيه ولم يصل اليه رسول أبيه الا بعد ان أصيب ..

كانت اصابة من الصعب ان تقتل .. اصابه جرح صغير فجعل يخاطبه :

« - والله انك لصغير .. وان يشا الله تعالى يبارك فى الصغير » .

.....

وجاء المساء يجزر اقدامه المحطمة ..

وبارك الله فى الجرح الصغير ..

مات عمرو بن عتبة .

تصدر الدم على عباةته فى نفس الموضع الذى تمناه .. رزقه الله الشهادة التى كان ينتظرها .

.....

كان بحر الخوف يلد شجاعة هائلة .

ليس هذا قانونا من قوانين الايمان . ليس للايمان قوانين تتحرك وتعمل عملها فى النفوس ..

ان الخوف العظيم من الله ، يخيف الخوف ذاته من المؤمنين بعد ذلك .. لا يعود المؤمن يخشى بعد الله احدا ..

ان توحيد الخوف يعنى ان تقصر خوفك على شيء واحد .. هو « ان تفضب الله تعالى » .

ومن هذا التوحيد تولد الشجاعة .. شجاعة الشهداء .

وقد كان معظم العارفين بالله شهداء .

ولم يكن التصوف بمعناه المعقد قد بدأ في الظهور ..

وقد استغرق ميلاده اكثر من مائتي سنة بعد هجرة الرسول .. يرى ابن خلدون في مقدمته ان الاسم لم يكن معروفا في الاسلام قبل القرن الثاني ، ويقول ابن تيمية في رسالته « الصوفية والفقراء » .

((اما لفظ الصوفية ، فانه لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة ، وانما اشتهر التكلم به بعد ذلك . وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالامام احمد بن حنبل وابى سليمان الداراني وغيرهما . وقد روى عن سفيان الثوري انه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري)) .

.....

كانت احوال المجتمع الاسلامي مهياة تماما لنشوء التصوف حين نشأ ولهذا نشأ ..

تتباين آراء العلماء في نشأة الزهد والتصوف ، يرى الدكتور المرحوم ابو العلا عفيفي ان العوامل التي ساعدت على نشأة الزهد في الاسلام كانت اربعة ..

العامل الأول : هو تعاليم الاسلام نفسه ، فقد حث القرآن على الورع وهجر الدنيا وزخرفها ، ودعا الى العبادة والتبتل وقيام الليل والتهجد .

قال تعالى : ((واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا)) المزمّل آية ٧

والعامل الثاني : في نشأة الزهد في الاسلام هو ثورة المسلمين الروحية ضد نظام اجتماعي وسياسي قائم ، ذلك ان المسلمين عندما اتسعت فتوحاتهم وكثرت غنائمهم اقبل الكثيرون منهم على الدنيا وجنحوا اليها ، وشجعهم على ذلك الثراء المفاجيء الذي اصابوه ، وكانت نتيجة ذلك ان قامت في نفوس اتقيائهم ثورة داخلية محورها الصراع بين نفوس لا تزال على ايمانها القوى ، والدنيا المقبلة بمغرياتها ..

اما العامل الثالث : فقد كان الرهبنة المسيحية ، فكثيرا ما تقرا عن زيارات العابدين من المسلمين للرهبان في صوامعهم واخذهم عنهم بعض

تعاليمهم من ذلك ما روى عن ابراهيم بن ادهم انه قال ((تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان)) ..

اما العامل الرابع : فكان الثورة ضد الفقه وعلم الكلام .. فان اتقياء المسلمين لم يجدوا في فهم الفقهاء والمتكلمين للاسلام ما يشبع عاطفتهم الدينية فلجأوا الى التصوف لاشباع هذه العاطفة .

هذه هي العوامل الاربعة المسئولة في رأى الدكتور أبو العلا عفيفي عن نشوء الزهد في الاسلام ، ويفرق الباحث بين الزهد والتصوف رغم اتصالهما اتصالا وثيقا ، فيرى أن مصادر التصوف الاسلامي خمسة :

١ - القرآن والحديث ..

٢ - علم الكلام ..

٣ - الافلاطونية الحديثة ..

٤ - التصوف الهندي ..

٥ - المسيحية ..

وسوف نلاحظ من هذا النظر ان الدكتور عفيفي لم يذكر الشيعة كمصدر من مصادر التصوف .. ولا اشار اليهم كمصدر من مصادر الزهد ..

ولو رجعنا الى الدراسات التي قام بها المستشرق نيكولسون ، وهي دراسات ترجمها الدكتور عفيفي نفسه ، فسوف نجد المستشرق يتحدث عن اصل التصوف ونشأته الاولى وتطوره فيقول تحت عنوان الشريعة والطريقة والحقيقة :

((في القرآن عدد غير قليل من الآيات التي تدل على ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان على حظ من التصوف ، ولكن القرآن في جملته شأنه في ذلك شأن أسفار موسى الخمسة - لا يصلح ان يتخذ اساسا لأي مذهب صوفي ، ومع ذلك استطاع الصوفية ، متبعين في ذلك الشيعة ، ان يبرهنوا بطريقة تاويل نصوص الكتاب والسنة تاويلات يلائم اغراضهم ، على ان كل آية ، بل كل كلمة في القرآن تخفى وراءها معنى باطنا لا يكشفه

الله الا للخاصة من عباده الذين تشرق هذه المعاني في قلوبهم في اوقات وجدهم ، ومن هنا نستطيع ان نتصور كيف سهل على الصوفية بعد ان سلموا بهذا المبدأ ، ان يجدوا دليلا من القرآن لكل قول من اقوالهم ونظرية من نظرياتهم ايا كانت ، وان يقولوا ان التصوف ليس في الحقيقة الا العلم الباطن الذي ورثه علي بن ابي طالب عن النبي ، ويلزم من هذا المبدأ ايضا ، مبدأ التأويل ، ان تأويل الصوفية لتعاليم الاسلام قد ياتي على انحاء واشكال لا حصر لها ولا لعددها .. وربما ادى الى تناقض في العبادات والمسائل العملية ، وكل ذلك مفروض صدقه في النوع لا في الدرجة ، لان معاني القرآن لا حصر لها ، وهي تنكشف لكل صوفي بحسب ما منحه الله من الاستعداد الروحي » ..

هذا نص كلمات رينولد نيكولسون في كتابه « التصوف الاسلامي وتاريخه » ولقد كان مدهشا اشارته الى التصوف كعلم باطن ورثه علي بن ابي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

كان مدهشا ايضا ان يمر الدكتور ابو العلا عفيفي على هذه العبارة مرور الكرام فلا يتحدث عن علي بن ابي طالب او الشيعة في حديثه عن مصادر التصوف ..

على ان ما لم يحققه الاستاذ قد حققه واحد من تلاميذه فيما بعد ، هو الدكتور كامل مصطفى الشيبى ، فقد تقدم برسالته لنيل درجة الماجستير في الآداب تحت اشراف الدكتور ابو العلا عفيفي ، وكان موضوع الرسالة هو « الصلة بين التصوف والتشيع » ونالت الرسالة الدرجة العلمية ، وطبعت في كتاب ثم نظر الباحث فيما كتب وعباد يسد الثغرات ، ثم عاد يعيد النظر بالزيادة والنقص فاخرج لنا كتابه الذي استغرق ١٤ عاما حتى ظهر بشكله النهائي ..

والكتاب بالغ الاهمية رغم ان الدكتور كامل الشيبى لا يعتبره مرضيا لفروره ، وترجع اهمية الكتاب لكونه يدرس موضوعا صعبا ، وينتهى فيه الباحث لآراء هدفها هو الامانة العلمية والرغبة المخلصة في اكتشاف الحقيقة .

ولعل الجديد في الكتاب ، الى جوار ما فيه من جهد علمي مخلص .

انه استعان بعدد من مراجع الشيعة أنفسهم ، فلم يكن ممكنا له وهو يدرس هذا الموضوع ان يتجاهل مؤلفات الشيعة ..

وفي بداية الكتاب يعترف المؤلف بصعوبة البحث ، فيقول ان موضوع الكتاب يدور حول الصلة بين التصوف والتشيع ، وليس من السهل تبين هذه الصلة بين العالمين ، لان امورا قد جدت على كل منهما منذ بدا في الاسلام حتى صار كل منهما مستقلا مستغنيا عن الآخر ..

ومن الغريب انه قد ظهر في الحياة الاسلامية ثلاثة اتجاهات ما تزال ثابتة ظاهرة للعيان ، فقد نجد ناحية من العالم الاسلامي تسودها مذاهب اهل السنة ، ونجد مكانا آخر تسوده مذاهب الشيعة ، ونلمح مناطق ثالثة يغلب عليها التصوف مختلطا باحدى هاتين المجموعتين من المذاهب ، ومن الملاحظ (لم يزل النص للدكتور كامل الشيبى) ان المسلم يستطيع الاستغناء عن مذاهب اهل السنة اذا كان شيعيا ، وعن مذاهب الشيعة اذا كان سنيا .. ويستطيع كل من السنى والشيعى ، ان يحيا حياة اسلامية دون ان يتصل ذهنه بالتصوف ونظرياته وعملياته ، غير ان المتصوف لا يستطيع الاستغناء عن احد هذين الاتجاهين الاسلاميين .. فلا بد ان تتصل الطرق الصوفية باتجاه من هذين الاتجاهين ، فمن المعروف ان النقشبندية مثلا من الطرق الصوفية السنية ، والبكتاشية من الطرق الشيعية ، فتدخل الاولى في فرق اهل السنة ، والثانية في فرق الشيعة .

وقد بين كثير من الباحثين القدماء اتصال المتصوفة باتجاه اهل السنة والجماعة ، وهو الاتجاه الوحيد الذى نعترف له بالصحة في الاسلام ، وقال القشيري في رسالته التى وجهها للمتصوفة سنة ٤٣٠ هجرية .

« اعلموا - رحمكم الله - ان شيوخ هذه الطائفة - يقصد الصوفية - قد بنوا قواعد امرهم على اصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم

عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف واهل السنة من توحيد » .

وكان الجنيد يقول .. « مذهبنا مقيد باصول الكتاب والسنة » ..

ورغم ان معظم العلماء يرون ان التصوف كان نمره اسلامية لها اللون السنى دون الشيعى . الا ان احدا لم يلتفت الى علاقة التصوف فى بدئه بالتشيع .. وهذا ما دفع الدكتور كامل مصطفى الى دراسة هذا الموضوع فى كتابه ..

وسوف نعرض لوجهة نظره ثم نقول رأينا فيها بعد ذلك ..

الشيعه فى رأى أبى الحسن الاشعري هم الذين شايعوا عليا رضى الله تعالى عنه ، وقدموه على سائر الصحابة .

وقد ذكر ابن حزم ذلك فى وضوح ورأى ان « من وافق الشيعة فى ان عليا رضى الله عنه - افضل الناس بعد رسول الله فهو شيعى وان خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون ، فان خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا » ..

وابن حزم متعصب على الشيعة - كما هو معروف - ولكنه هنا يحدد ويجمع ويمنع ، فرأيه هنا شهادة باحث .

.....

هذا رأى الشيعة كما يورده الدكتور الشيبى ، وهو رأى يملأ المسلم بالحزن ، لان المفاضلة بين الصحابة والفلو فى احدهم امر جر على المسلمين عديدا من الفتن والمحن ، وكان سببا فى انقسام المسلمين ، ودينهم دين توحيد لله وتجميع لعباده ..

ليس هناك مسلم سنى ينكر فضل على بن أبى طالب .. ومن ينكر فضل احد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اثم اثما عظيما . لكن عدم انكار الفضل لا يعنى الفلو ، ولا يعنى اسباغ صفات القداسة على احد من المسلمين ، ان عظمة الدين الاسلامى تتمثل فى انه دين توحيد يعرف حق الله عز وجل على عباده ، ولا يجعل لرسوله صلى الله عليه وسلم رغم انه رحمة للعالمين بنص الآيات .. لا يجعل له اى نوع من انواع القداسة ، انما هو رغم فضله البشرى انسان يمشى فى الأسواق ويأكل الطعام ويجوع ويعطش ويمرض ويصح ويحيا ويموت .. شأنه شأن البشر فى اى مكان وزمان ..

ان نصاعة التوحيد الاسلامى وبشرية الرسول صلى الله عليه وسلم
آيتان من آيات الدين الاسلامى الحنيف ..
وهما آيتان يصمت بعدهما كل حديث او اجتهاد .

.....

مهما يكن من أمر ..

لم يكن الواقع فى ظروف الفتنة الاولى مناخا هادئا للتفكير ، وكانت
الأحداث والدماء تسدل ستارة على الهدوء العقلى والوجدانى اللازم
لادراك الأمور .. ومن هنا تحول على بن أبى طالب كرم الله وجهه فصار
دون أن يعرف او يقصد او يريد - فتنة كبيرة افتن به الشيعة ،
وغالوا فيه غلوا كبيرا ..

ويلفت الدكتور كامل مصطفى الشيبى الاذهان الى حقيقة قد تكون
خافية وهو يبدأ بحثه فى الكتاب عن الامام على .

ذلك أن الامام عليا شخص له جانبان . جانب تاريخى يعرفه الناس
وتعرض له الكتب العامة .. وجانب روحى دخلت فيه اضافات قد تكون
أسطورية ، ويبدو هذا الجانب عند الشيعة أولا ثم عند المتصوفة بعد
ذلك ..

ويسمى الدكتور الجانب الاول بالجانب العام . والثانى بالجانب
الخاص .

أما الجانب العام فمعروف خلاصته أن الامام على بن أبى طالب ولد
بعد النبى بثلاثين سنة .. واسلم وعمره عشر سنين فى اليوم الثانى لبعثة
النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعد خديجة رضى الله تعالى عنها مباشرة ،
وأنه لم يعبد الأصنام قط لصفره وأنه كان أقرب الناس الى الرسول
صلى الله عليه وسلم .. وكان ربيبه وكان خليفته على ودائعه وكان
صاحب لوائه وكان خليفته فى أهله ، وكانت منزلته منه بمنزلة هارون
من موسى بنص الحديث عن النبى نفسه ..

ومن المعروف أن النبى أخى بينه وبين على .. وقال فيه من كنت
مولا فعلى مولا .. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وقد رأى الشيعة في هذا الحديث ترشيحا له لتولى الأمر بعد النبي صلى الله عليه وسلم .. ولكن بقية المسلمين لم يوافقوهم على ذلك مستندين الى حديث آخر لقاؤه النبي في آخر لحظة من حياته ..

من المعروف او المشهور ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في علي « انا مدينة العلم وعلى بابها » ..

ايضا يروى عن علي انه كان مغاليا في الزهد والعدل ، الى حد انه قسم رغيفا سبعة أسهم ، وروى ابو طالب المكي انه كان أزهد الصحابة .. وانه لم يترك صفراء ولا بيضاء الا سعمائة درهم بقيت من عطائه اراد ان يشتري بها شيئا لاهله .

هذه هي الجوانب العامة المعروفة عن علي بن ابي طالب ..

اما الجانب الخاص الذي عني به الدكتور بالمثل العليا والاصناف والجوانب الروحية التي اضافها اليه الشيعة اولا ، ثم المتصوفة بعد ذلك حين جعلوا عليا مرجعهم ورأسهم في التصوف والزهد ..

ويرى الشيعة في علي ما يراه المسلمون فيه ، ولكنهم يضيفون اليه اشياء تميزه عن زملائه من الصحابة ..

يرى الشيعة انه لا يقاس بال محمد من هذه الامة احد ، ولا يسوى بهم احد ..

وفي التفسير المنسوب الى الامام الحادي عشر للشيعة يقول « ان الله لا خلق آدم وسواه وعلمه اسماء كل شيء وعرض على الملائكة جعل محمدا وعليا وفاطمة والحسن والحسين اشباحا خمسة في ظهر آدم وكانت انوارهم تضيء في الآفاق . الى آخره » .

وينسب الشيعة الى علي بن ابي طالب قولهم « انا آدم وانا نوح وانا موسى وانا عيسى انتقل في الصور كيف اشاء من رآني فقد رآهم » .
وتلك صورة تذكرنا بمقالة الحلاج المشهورة ..

فاذا ابصرتني ابصرته واذا ابصرته ابصرتنسا

ويلاحظ الباحث كيف تلقف المتصوفة امثال هذه النصوص واخلقوا

افكار الغلاة وجعلوها مستند طريقتهن ومثالا للنسج على منواله ..
وقد وردت عن علي بن ابي طالب الوان من الحوار نسبها اليه كميل
ابن زياد الزاهد الشيعي المشهور (المقتول سنة ٨٣) ..

قال علي : الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير اشارة .

قال كميل زدني بيانا ..

قال علي : محو الوهوم وصحو المعلوم .

قال كميل زدني بيانا ..

قال علي : هتك الستر لقلبة السر .

قال كميل زدني بيانا ..

قال علي : نور يشرق من صبح الازل فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره .

قال كميل زدني بيانا ..

قال علي : اطفئوا السراج فقد طلع الصبح ..

ويلاحظ الباحث امتلاء هذا الحديث بمصطلحات صوفية تجعل

اختراع الحديث امرا مؤكدا .

.....

ايضا نسب الى علي بن ابي طالب قول يوضح منهجه في المعرفة .

قال : « العقل لمراسم العبودية لا لادراك سر الربوبية .. »

وهذا الحديث يعنى ان عليا يرى ان الذوق هو المنهج الذي يصل به

الانسان الى الحقيقة الالهية ، اما العقل فهو الذي يستعمل في ادراك

الحلال والحرام وفهم العبادات وما جرى مجراها ..

ايضا روى عن علي بن ابي طالب انه قال « سلوني قبل ان تفقدوني فانا

ب طريق السماء اعلم مني بطرق الأرض » .

ايضا روى عنه انه قال « ان امرنا صعب مستصعب لا يحمله الا عبد

امتنحن الله قلبه للايمان ، ولا يعي حديثنا الا صبور امينة واحلام رزينة » .

.....

لو نحينا جانبا ما سب الى على بن ابي طالب .. ونظرنا الى شخصيته
فسوف نرى انه عاصر الفترة التي تحول فيها الاسلام من فكرة مثالية
الى صراع عمل سياسى . وقد وجد على بن ابي طالب نفسه مطالبا بان
يسدد الخطا وان يدل على الحق ويخوف من المزالق . وان يقف وففته
الصلبة مدافعا عن الاسلام ..

ودفع دمه تمنا لاسلامه وتقواه ..

وصار دمه بحرا تشرب منه انهار الصوفية ..

يلاحظ كتاب « الصلة بين التصوف والتشيع » ان كلام على بن ابي
طالب يتداخل مع كلام اسلاف المتصوفة من الزهاد . وانه يتداخل مع
كلام الصوفية انفسهم ..

* **واول نص يورده في هذا المقام ما قاله عامر بن عبد قيس الزاهد
البصرى (المتوفى في خلافة معاوية) فقد قال هذا الزاهد : لو كشف
الغطاء ما ازددت يقينا .**

وتلك عبارة وردت مسندة الى على بن ابي طالب .. وهى مأخوذة
من الآية التى تقول « **لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك
فبصرك اليوم حديد** » .

* **سمع سعيد بن جبير الزاهد المحدث ، قتل بامر الحجاج سنة ٩١
هجرية ، يقول لجماعة فى اعلى المسجد ليلا : سلونى قبل ان لا ترونى ..**

وفى ذلك تكرار لعبارة على المشهورة « سلونى قبل ان تفقدونى » .

ايضا نسب لسفيان الثورى مقالة تشبه هذه المقالة .. ايضا نسب
نفس القول الى جعفر الصادق .

* **اما الحسن البصرى فقد قال معاصروه فى كلامه انه مأخوذ لفظا
ومعنى او معنى دون لفظ من كلام امير المؤمنين على بن ابي طالب ..**

* **روى عن سفيان الثورى (المتوفى سنة ١٦١ هجرية) وهو شيخ
الزهاد فى الكوفة انه قال : الزهد فى الدنيا قصر الاصل ، وليس باكل**

الفليظ ولا بلبس العباء » ، وذلك متصل بقول على بن أبى طالب إن
أخوف ما أخاف اتباع الهوى وطول الأمل .

✽ وروى عن عبد الواحد بن زيد قوله : مثل المؤمن كالولد فى الرحم
لا يحب الخروج ، فإذا خرج لا يحب أن يزجج ، فكذلك المؤمن فى الدنيا .

وذلك تعبير ضعيف عن قول على بن أبى طالب « وأعلموا أنه ما من شيء
إلا ويكاد صاحبه أن يشيع منه ويمله إلا الحياة » .

✽ وترد لرابعة العدوية (المتوفاة سنة ١٨٠ هجرية) عبارة قالتها
« ما عبدته خوفاً من ناره ولا طمعا فى جنته فأكون كالأجير السوء ..
عبدته حبا له وشوقا إليه » ..

وقد وردت هذه المعانى فى عبارة على بن أبى طالب (وهى عبارة
تنسب الى حفيده ابن الحسين على زين العابدين) ..

قال على : ان قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وان قوما
عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد . وان قوما عبدوا الله شكرا فتلك
عبادة الاحرار » ..

✽ كان مالك بن دينار الزاهد البصرى (المتوفى سنة ١٨١ هجرية)
يقول فى كلامه كثيرا من المعانى التى استمدتها من على بن أبى طالب ..
فقد قال لوالى البصرة وهو يقف وسط جنوده وابتهته حين ساله : الا
تعرفنى ؟ ..

قال مالك من اعرف بك منى . اما اولك فنطفة مدرة ، واما آخرك
فنجيفة قدرة . وهذا الكلام يتصل بما قاله على بن أبى طالب « ما لابن
آدم والفخر واوله نطفة وآخره نجيفة » .

وكان عتبة الغلام ينظر الى قول على المشهور للدنيا « قد هجرتك
ثلاثا ولا رجعة لى فيك » حين قال فى خطابه لحورية تخيلها « طلقت
الدنيا ثلاثا ولا رجعة لى فيها حتى القاه » ..

وقال شقيق البلخى (المتوفى سنة ١٩٤ هجرية) اذا كان العالم
طامعا وللمال جامعا فبمن يقتدى الجاهل ؟ واذا كان الفقير المشهور

بالفقر راغباً في الدنيا والتنعيم بها فبمن يقتدى الراغب حتى يخرج من رغبته ؟ واذا كان الراعى هو الدئب فمن يرعى الغنم ؟ ..

وهذه العبارة الطويلة التي تضرب الامثال على أهمية الزهد وكونه قدوة ، هذه العبارة لخصت في قول اسسند الى على بن ابي طالب « ان الله اخذ على ائمة الهدى ان يكونوا في مثل أدنى الناس ليقتدى بهم الفنى ولا يزرى بالفقر فقره » ..

.....

يلاحظ كتاب الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل مصطفى الشيبى ان التداخل لم يقتصر على ما اخذه الزهاد من اقوال على . وانما تعداه الى بناء التصوف ومؤسسيه ايضا ..

لقد شرب كثير من الصوفية من بحر الامام على بن ابي طالب ، ووضعوا كثيرا من كلامه او (بتحديد ادق) وضعوا كثيرا مما نسب اليه من كلام في عبارات جديدة من تأليفهم ، وكان مستواهم في البلاغة والفن اقل كثيرا من مستوى الامام على ، فقد كانت عباراتهم اطول واقل حساسية ، وكان على بن ابي طالب مشهورا بالصمت ، فاذا تكلم اوجز الحكمة فيما يقول .

حين تولى الاشر النخعي عصر عهد اليه على بن ابي طالب عهده المشهور الذي قال فيه « اذا احدث لك ، ما انت فيه من سلطائك ابهة او مخيلة (يعنى اذا اغتررت وملأك الغرور) فانظر الى عظمه ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فان ذلك يطامن من طماحك (يقلل من غرورك ويكف عنك غريك) يحول بين الغرور وبينك) وبقيء اليك بما عزب عنك من عقلك (يرجع اليك بما ذهب من عقلك) .

نفس هذه الفكرة تداولها الصوفية .. فما هو ذو النون المصرى (المتوفى سنة ٢٤٥ هجرية) يقول « من اراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تنوب وتصفو ، ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، لان النفوس كلها فقيرة عند هيئته » .

ونريد ان نلفت انتباه القارئ الى ان فكرة على بن ابي طالب بالدعوة الى التواضع هي احدى الافكار الاساسية للصوفية ، ولقد تناول الصوفية فكرة ضالة الانسان امام الله وجعلوا منها جوهرها اساسيا من جواهر افكارهم ..

فالصوفي من لا يرى لنفسه مكانة ولا مقاما ولا وجودا امام الله ، وشيوخ التصوف السني كالجنيد يريدون من الصوفي ان يذهب ويضيع ويتلاشى ويعود الى الصفاء الذي كان عليه قبل ان يخلقه خالقه ، حين كان ذرة في عالم الدر ..

والتصوف بمعنى تصفية القلب لله ينطوي على العبودية لله ، ومعنى العبودية ان يسجد العبد لله هذا السجود المزدوج ، مرة بجسده ومرة بجماع روحه .

بل ان تواضع الصوفية يجعل هدف تجاربهم الروحية هو الفناء في خالقهم . وهكذا اثر على في الصوفية ..

فهم احيانا ينقلون عنه نص معانيه بعد وضعها في اساليب جديدة ، وحيانا يأخذون افكاره الاساسية ويبنّون عليها ابناء جديدة .

قال ذو النون المصري « ان الله تعالى انطق اللسان وامتحنه بالكلام وجعل القلوب اوعية للعلم » .

وقال على بن ابي طالب القلوب اوعية فخيرها اوعاها ..

هذه الفكرة التي تتضمن ان القلب وعاء . جعل منها الصوفية مدارا من مدارات افكارهم .. وها هم يقولون « سبحان من جعل قلوب العارفين اوعية للذكر وجعل قلوب الزاهدين اوعية للتوكل ، وقلوب المتوكلين اوعية للرضا ، وقلوب الفقراء اوعية للقناعة وقلوب اهل الدنيا اوعية للطمع » .

واذا كان على بن ابي طالب قد المح بهجرانه للدنيا ، فهاهم الصوفية يصرحون بانهم قد طلقوا الدنيا ثلاثا وهجروها هجرانا بلا عودة . ومثلما كان على بن ابي طالب يقسم الناس الى ثلاثة اصناف من حيث عملهم فيقول « الناس ثلاثة فعالم رباني ، ومتعلم على بسبيل نجاته ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق » ..

فكذلك يفعل الصوفية. ، وها هو ذو النون يقسم المعرفة الى ثلاثة اقسام « الأولى خط مشترك بين عامة المسلمين ، والثانية معرفة خاصة بالحكماء والعلماء ، والثالثة خاصة بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم » .

وقد بلغ ولع الصوفية بعلي بن ابي طالب مبلغا عظيما ، فنسبوا اليه اقوالا لم يقلها مثل « الصوفي من لبس الصوف على الصفا واطعم الهوى طعم الجفا ، وكانت الدنيا منه على القفا واستوى عنده الذهب والحجر ، والا فالكلب الكوفي خير من الف صوفي » .

ومن الواضح ان العبارة منحولة لأن لغة علي بن ابي طالب لا تسمح له باستخدام هذا التعبير المتأخر « كانت الدنيا منه على القفا » .

ولم يتوقف ولع الصوفية به عند حد ..

اخذوا منه .. وزادوا فيما اخذوه منه .. ونسبوا اليه .. وقالوا فيه كلام حب عظيم ، ونسبوا علمه الى علم يشبه العلم اللدني او علم الاسرار ..

يصفه ابو نعيم في الحلية فيقول :

« سيد القوم . محبوب المعبود .

باب مدينة العلم والعلوم ، ورأس المخاطبات ومستنبط الاشارات .
نور المطيعين وراية المهتدين ، وولى المتقين وامام العادلين وزينة العارفين ،
المنبئ عن حقائق التوحيد المشير الى لوازم علم التفريد .. الى آخره » .

وهذه الاشارة الى التوحيد والتفريد تعنى علم الصوفية المخصوص .

يقول ابو طالب المسكى « وكان عند اهل العلم ان علمهم (يقصد الصوفية) مخصص لا يصلح الا للخصوص » .

ويرى السراج في شرحه لتقسيم علي بن ابي طالب للعلوم بعد ان تبنى هو الآخر تقسيما ثلاثيا للعلوم ..

يرى السراج ان اول العلوم علم بين للخاصة والعامة وهو علم الحدود

والامر والنهي وعلم حص به قوم من الصحابة دون غيرهم وهو العلم الذي كان يعلم به حذيفة بن اليمان .. وعلم خص به رسول الله لم يشاركه فيه احد . وقد وضع السراج عليا في المنزلة التي كانت لحذيفة .. بل انه وضعه بعد الرسول مباشرة لان الرسول علمه سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك احدا غيره ..

ويسند الصوفية الى علي بن ابي طالب قوله « ما من اية الا ولها اربعة معان ظاهر وباطن وحد ومطلع . فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد احكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله تعالى من العبد بها » .

ويرى الامام الجنيد ان الامام عليا قد اعطى العلم اللدني . ويرى عن الجنيد انه قال : « رضوان الله على امير المؤمنين ، لولا انه اشتغل بالحروف لأفادنا من علمنا هذا معان كثيرة » ثم يقارن الجنيد بين علي والخضر ويجعلهما بمنزلة واحدة ويبين ان هذا العلم اللدني حظى به الخضر بقول الله « وعلمناه من لدنا علما » .. ، وبهذه الرؤية كان الجنيد يعتقد ان علم علي بن ابي طالب لم يات به تعلما . وانما هو توفيق الهى حظى به .. ويأسف الجنيد لان عليا اشتغل بالحروب . ولولا هذا لاستفاد منه الصوفية وتعلموا الاسرار التي عرفها ..

وينبهننا نيكلسون الى ان التصوف ليس في الحقيقة الا العلم الباطن الذي ورثه علي بن ابي طالب عن النبي ..

ويرى ابن الفارض نفس الراى . فهو يقول في تأييده الكبرى :

واوضح بالتاويل ما كان مشكلا على بعلم ناله بالوصية

اما ابن عربى فهو يفسر النبا العظيم في قوله تعالى « عم يتساءلون عن النبا العظيم » بأن النبا العظيم هو القيامة الكبرى ولذلك قيل في امير المؤمنين على هو النبا العظيم وفلك بوح « اى الجمع والتفصيل - باعتبار الحقيقة والشرعية لكونه حامعا لهما » .

اما جلال الدين الرومى فيقول في علي بن ابي طالب

منذ كانت صورة تركيب العالم كان على ..

منذ نقشت الأرض وكان الزمان كان على ..

الفاتح الذي انتزع باب خير بحملة واحدة كان على ..

من كان هو الوجود ولولاه لسرى العدم في الوجود اياه كان على ..
ان سر العالمين الظاهر والباطن الذي بدا في شمس تبريز .. اياه
كان على ..

وكلما تقدم الزمن ، كان على بن ابي طالب يتحول الى اسطورة عند
الصوفية ..

لقد وصلوا الى القول بأن على بن ابي طالب لم يمت ، وانما رفع الى
السماء كما رفع عيسى بن مريم وسينزل كما نزل عيسى .

وهذا نص يرويه الشعراني عن ولي يحمل اسم على وفا ..

ووجدنا بعد القرن السادس والسابع صوفية يزيد من مقامهم أنهم
علويون كعبد القادر الجيلاني والسيد أحمد الرفاعي والسيد أحمد البدوي
وأبو الحسن الشاذلي وإبراهيم الدسوقي وعبد الوهاب الشعراني وأستاذ
الشعراني الشيخ علي الخواص وابن قضيبة البان الموصلية وغيرهم
كثير ..

ولقد كان قتل علي بن ابي طالب سنة . { هجرية ، وكان استشهاد
رائعا ، فصار موته كحياته مرتين ، موتا طبيعيا عاما وموتا اسطوريا
خاصا ، مثلما كان علمه علما طبيعيا عاما وعلما سريا . خاصا » وقيل في
موته اساطير كثيرة ..

قيل انه حمل في تابوت على جمل فضل الجمل طريقه ..

ويذكر ابن حجر عن ابن عساكر انه قال : « لما قتل حملوه ليدفنوه مع
رسول الله ، فبينما هم في مسيرهم ليلا اذ ند (تاه) الجمل الذي هو عليه
فلم يدر اين ذهب ولم يقدر عليه ، ولذلك يقول أهل العراق هو في
السحاب ، وقال غيرهم انه وقع في بلاد طيء فاخذوه ودفنوه » وانكر
البكتاشية هذا كله ، فهم شيعة وصوفية معا ، ولذلك قالوا انه بعث
من جديد « وظهر ملثما على جمل وقاد جنازته بنفسه الى مدفنها » ..

وبهذه النهاية الفنية المسرحية ، بضع الصوفية علي بن ابي طالب
سدا لهم جميعا .

يرى الدكتور كامل الشيبى ان عليا دخل التصوف حتى صار اساسا من اسسه لا يمارى فيه أحد ، حتى ان ابن خلدون يقول في معرض تناوله تأثير الشيعة على التصوف ان الصوفية يلبسون الخرقة ، لان عليا رضى الله عنه البس الخرقة للحسن البصرى واخذ عليه عهدا بالتزام الطريقة ..

.....

ما هي مسئولية علي بن ابي طالب عن هذا كله ..

ما هي حقيقة نسبه للصوفية والتصوف ..

هل كان علي بن ابي طالب عالما بالاسرار قد اوتى من العلم اللدنى كما اوتى العبد الذى يتحدث عنه الله تعالى في قصة موسى والسفينة والفسلام والجدار .. ؟

هذه كلها اسئلة هامة .

نعتقد - وهذا رأينا الخاص - ان علي بن ابي طالب لم يكن مسئولاً عن دخوله عالم الصوفية والتصوف ..

فلم يؤثر عنه بسند معقول ما يؤدي الى القول بأنه كان يرى في نفسه امتيازاً خاصاً أو علماً خاصاً أوتي من لدن الله ..

لم يكن لمدلول الصوفية والتصوف معنى في ذهنه « لان التعبيرين نشأ بعد استشهاد بفترة » ..

لم يكن علي بن ابي طالب رضى الله عنه كثير الكلام « انما كان دائم الصمت فان نطق طاوعته الحكمة » ..

لم يكن يعتقد ان قرابته من النبي تجعل له وضعا خاصا في الاسلام ، وانما كان يعرف ان الفضل في الاسلام للتقوى « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وكان رجلاً تقياً بحق ..

وحين تقدم علي بن ابي طالب لحكم المسلمين لم يكن يتقدم لانه قريب الرسول او من آل البيت ، وانما تقدم لانه رأى في نفسه القدرة والفضل

لحكم المسلمين .. وكان قادرا وفاضلا ..

نريد ان نقول ان على بن ابي طالب ليس مسئولا عن الغالين فيه
او المنتسبين اليه او الآخذين منه .. تماما مثلما كان عيسى ابن مريم عليه
السلام بريئا ممن نسبوه الى الله بالبنوة او الثالث او اى أسلوب .

**والاسلام دين واضح .. ومن يعرف الاسرار عهد الى الصمت ، وهذا
شرط ورد في القرآن الكريم عن العبد الصالح الذى يعتقد العلماء انه
الخير ..**

من يعرف لزمه الصمت ..

ولقد كان على بن ابي طالب عارفا . ولهذا لم يتحدث عن علم الاسرار
» انما ضرب للمسلمين بسلوكة نموذجاً راقياً لما ينبغى أن تكون عليه حياة
المسلم « ..

وهو نموذج سرعان ما تناسى الناس وضوحه ، وان افاضوا في الحديث
عما صمت هو عنه او دثره بالكتمان ..

ان طبيعة السر في الاسلام انه سر .. لا ينكشف الا لافراد .. وعليهم
بالصمت ، وبذلك يبقى للسر معناه ..

نحن نسلم جدلاً بان على بن ابي طالب كان يعرف كثيرا من الاسرار ،
ولكن كيف نناقش ما صمت هو عنه . اليس الافضل ان ننظر في حياته
لنرى كيف عاشها ..

كانت حياة على بن ابي طالب باختصار .. محاولة رائعة لصب
الاسلام في القلب الذى اراده له الله والرسول ..

لقد اعطى حياته للاسلام والمسلمين ، وتكبر على الدنيا بجاهها ومالها ،
ورفض ان ينزل عن مبادئ الاسلام وهو يدخل صراعه الذى دخله
» وبسبب نقائه ومثاليته هزم في الصراع .. وكانت هزيمته نصراً هائلاً
للاسلام ، فقد كان مع الحق وكان الناس يعرفون انه على الحق ، وكان
استشهاده من اجل هذا الحق اعلاء صارماً لقيم الحق واعلامه ..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الخلق عنده ، والدليل على ذلك ان عليا سمي ابناؤه بعد الحسن والحسين بأحب الأسماء اليه .. محمد .. ثم العباس ثم ابا بكر ثم عمر ..

وفي الوقت الذي كان الاسلام فيه ينتشر وكان الصراع على أشده حول الحكم ، كان علي بن ابي طالب يقوم بالقاء محاضرات أسبوعية في مسجد الكوفة لتوجيه الشباب الى حقيقة الاسلام ، وكان هذا يحدث مع ابن عمه عبد الله بن عباس .. وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية التي ترمعت وازدهرت بعد ذلك في بغداد عاصمة العباسيين ..

ولقد كان في موت علي بن ابي طالب شيئا يثير الانتباه .. ومن المدهش ان هذا الشيء لم يزل موجودا ..

كان علي بن ابي طالب يعرف حين خرج انه خارج ليقتل ، كان يتوقع هذه النتيجة ، او كان يراها بقلبه ، ورغم ذلك ، وربما ذلك ، وربما بسبب ذلك خرج ..

لقد أدرك علي بن ابي طالب ان الاسلام الذي يمثله معاوية هو القشرة الاسلامية مع لب الكسروية والقيصرية ، قشرة اسلامية وجوهر رئاسي لا يعبا بشيء سوى الرئاسة ..

وحين وقف ضد هذا كان يدرك انه سيقتل .. وقد أدان علي بدمه هذا النظام الى الأبد .. ونبه المسلمين في ذات الوقت الى أهمية الجوهر .. وكان موته في حد ذاته كافيا لاعلان الحقيقة ..

لم يكن موته عاديا ..

كان كل شيء يجابهه يهدده بسحق طموحه ، ولم يكن طموحه شخصا انما كان اسلاميا ، وادرك انه يجب ان يحدق في الخوف دون خوف . وصار شجاعا الى مقتله ..

ولقد أدرك علي بن ابي طالب هذه الصفة الخاصة التي تثبت للشهداء، وهذه الطبيعة الخاصة التي يخلعها التاريخ على التضحية بالذات .. ولهذا خرج ولهذا استشهد ..

أراد بموته أن يحمي مبادئه ويزيد من جمع الناس حولها ، وأراد باستشهادها أن يعرف الناس أن الإسلام يستحق أن يموت من أجله أمثال علي بن أبي طالب وقد وعى المسلمون الدرس بعده ..

وبسبب عنفه في الحق وحبه للإسلام .. غالى فيه الناس ونسبوا اليه ما لم يقله وتوسعوا في ذلك ..

هذه هي مسئولية علي عن التصوف ، وهذه نسبته إلى الصوفية .. لقد صنع دون أن يقصد مثالا أسطوريا بالغ السمو .. كان فتوة في حرية .. والفتوة تعبير يستدعي معاني القوة القادرة ، واكتشف الناس فتوته ، وصار تعبير الفتوة من تعبيرات الصوفية .

جاء في المنشور الذي أصدره الخليفة العباسي الناصر لدين الله حين أهدر الفتوة وجعل نفسه رأسها « بسم الله الرحمن الرحيم .. من المعلوم الذي لا يتمارى في صحته ولا يرتاب في براهينه أن أمير المؤمنين كرم الله وجهه هو أصل الفتوة ومنبعها ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها (وعنه تروى محاسنها وأدبها ، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، واليه دون غيره ينسب الفتيان) وعلى منوال مؤاخاته النبوية الشريفة نسج الرفقاء والأخوان » ..

ومن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخى بينه وبين علي بن أبي طالب ..

ويبقى سؤال ..

هل كان علي بن أبي طالب عالما بالأسرار قد أوتي من العلم اللدنى كما أوتي الخضر ..

هذا سؤال نجهل الإجابة عليه بصراحة ..

لم يرد عن علي ما يشير صراحة إلى أنه قد أوتي من علم الأسرار إذا جاز أن يكون للأسرار علم .. إذ مفاد الأسرار ومعناها أن تظل خافية .. لم يرد عن علي ما يشير صراحة إلى أنه أوتي من لدن الله علما ..

ربما كان الرسول يؤثره ببعض أسرار النبوة .. هذا محتمل وقائم ،
وربما كان الله يقذف في قلب على بالعلم . هذا محتمل وقائم ، ولكن
هذا كله لا دليل عليه سوى الصمت ، ومن ثم تصعب الاجابة على السؤال ،
ولعلنى اميل الى ترجيح الظن بأنه أوتى من هذا العلم الالهى .. لانه صمت
تماما ولم يتحدث عنه ..

وتبقى اجابة السؤال مستعصية ..

لا نعرف ..

**كل ما نعرفه انه كان بحرا عظيما من البحار التى سقاها محيط النبوة ..
ومن البحار تولد السحب والأنهار والبحار مرة اخرى .**

على طريق الحياة ..

تمضى اعظم الشخصيات الانسانية وهى لا ترتدى سوى عباءة
الفكر ، ولا تحمل فى يدها سوى شموع الحقيقة ..

وينسدل الظلام فتتحرك الايدي الائمة بالخناجر المسمومة وتضرب ..
وتسقط الشمعة من يد حاملها ..

ويسيل الدم .. ويخطو احد الشهداء خطواته الاخيرة من دنيا
الباطل الى عالم الحق ..

هذه المأساة الانسانية تتكرر فى حياة النوع البشرى كثيرا ، منذ ان
خلق الله تعالى آدم ، الى ان يرث الله الارض ومن عليها ..

لم يسلم الانبياء وكبار العارفين منها .

ولقد كان عيسى عليه السلام موشكا على القتل لولا ان رفعه الله
تعالى اليه . ومن المدهش ان الناس تشترك سواء بالصمت أو خضوعها
للمصالح الشخصية فى جرائم اغتيال هذه القمم الانسانية ، فاذا سقطت
احدى هذه القمم ، بدأت أنهار البكاء .. وبدأ الحزن المرير .. وبدأ
تمزيق الوجوه والصدور ، وراحت الاساطير تعمل عملها بالاضافة
والحذف والتعديل والتبديل الى شخصية الشهيد ، فاذا نحن امام

شخصيه اسطوريه تختلف تماما عن حقيقة الشخصية الأصلية .

ولقد حدث شيء يشبه هذا تماما في أيام الفتنة الكبرى ..

تقاعس الناس عن علي بن أبي طالب وأسلموه لسيوف القتلة ،
وتقاعسوا عن الحسين بن علي وأسلموه لسيوف الخيانة .

فلما ذهب الشهيدان الى الله ، نسجت الأساطير حولهما خرافات
عديدة ، وبدأت حركة الغلو والغلاة ، فاذا النور الإلهي قد تسرب من نبي
الى نبي حتى حل في جسد علي ، واذا علي لم يمت وانما هو حي يعرق
تحت الدثار الثقيل ، الى امثال هذه الخرافات التي جاء الاسلام أصلا
لحربها ، وموقف الشيعة المعتدلين من الغلاة واضح وحاسم ..

قال الصدوق القمي استاذ الشيخ المفيد .

« اعتقادنا في الغلاة انهم كفار بالله جل اسمه » .

قالها الشيخ ثم قرأ قوله تعالى في سورة آل عمران : « ما كان لبشر
ان يؤتیه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عبادا لی من
دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون .
ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا ایامركم بالكفر بعد ان كنتم
مسلمون » .

ولقد أدرك علي بن الحسين بن أبي طالب ان الناس ستلتف حوله
وتحاول استغلال اسمه سواء في الدعوة اليه أو الدعوة لخرافة الغلو ..
أدرك هذا جيدا فابتعد تماما ..

لم يمكن لأحد من استغلال اسمه أو الدعوة اليه ..

أعطى ظهره للدنيا وانصرف الى العبادة ..

أدرك وسط جو الفتن والخيانة والدسائس والحمق وسائر الصفات
الدنيوية ، ان مهمته ان يبتعد عن هذا كله ويصير نموذجا للاسلام الذي
نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

كان الحزن قد سج له عاءة والقاها على كتفيه ..

قتل جده على بن أبى طالب وعمره سنتان .

وقتل أبوه الحسين فى كربلاء وله ثلاث وعشرون سنة ..

وشهد بعينيه - وكان مريضاً فى المعركة - مصرع أخوانه وأعمامه ..
وحفرت الأحداث الدامية فى نفسه نهراً من الحزن طالما فاض من عينيه .
ثم أنه شهد ما زاد حزنه أضافاً مضاعفة .

رأى الناس يبايعون يزيد بن معاوية .. وعاصر ضرب الكعبة الشريفة
بالمجانيق .. وشهد عصر الحجاج فى حكمه الظالم للعراق ..

وعاصر حركات أغرقت العالم الإسلامى فى بحار من الدم ..

وشاهد بدايات حركة الغلو والغالين .. وادهشه أن الذين قتلوا
أباه وجده أو اشتركوا فى قتله أو تقاعسوا عنه هم الذين ينسبون إليهما
صورة ليست هى الصورة الحقيقية ..

ووسط سحاب الفتن قرر على بن الحسين أن ينأى بنفسه عن هذا
كله .. لم يكن موقفه سلبياً ، ولا كان يهرب من معركة ، إنما كان بموقفه
يمثل الإيجابية الإسلامية الرفيعة ..

كان ميدان المعركة قد تحول إلى ساحة مضطربة من الأكاذيب
والخيانات والغلو .. وكان المثل الإسلامى الأعلى الذى ابتعد من عيون
المسلمين بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابتعد بوفاة الصحابة
الكرام ، كان هذا المثل فى حاجة إلى البعث من جديد ..

وكان فى حاجة لأن يرى الناس هذا المثل حياً أمامهم .. وكان على
زين العابدين هذا المثل ..

كان يكره أهل العراق ويحمل عليهم كثيراً لسببين .. الأول أنهم
أسلموا والده وجده للقتل ، والثانى أنهم يغفلون فى والده وجده وينسبون
إليهما ما نسبته بعض أتباع الأنبياء السابقين لأتبيائهم من الوهية .

ورد فى طبقات ابن سعد أن نفراً من أهل العراق أثنوا عليه فقال لهم :
« ما أكذبكم وما أجراكم على الله تعالى . نحن من صالحى قومنا وبحسبنا

أن تكون من صالحى قومنا » .

أيضا. كان حربا على كل الفلاة ، وكان يمقت الغلو ولا يحب أن يرفعه
أحد فوق منزلة أحد من المسلمين .

وقال يوما لمن زادوا فيه بالثناء « ايها الناس احبونا حب الاسلام
فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا » .

ونفى السمو عن نفسه ، وحين بلغت انباء ما يقوله عنه أهل العراق
أشار بيده الى العراق وقال : « ليس فبنا ما يرمينا به هؤلاء » .

رغم هذا كله .. لم يسلم الرجل من الاذى الذى جاءه فى صورة الغلو
والثناء الخرافى . كان على بن الحسين ابن اميرة فارسية من أميرات
آل ساسان ، وسب اليه البعض حقه فى حمل تاج العرب والعجم ، فقد
كانت عقائد الفرس الدينية انهم ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات الهية
اصطفاهم الله للحكم وجعلهم ظله فى الأرض ..

وهذه العقيدة الوثنية التى لم يكن عليها نزاع عند الفرس ..
التصقت زورا وعدوانا بعلى بن الحسين ، فقليل آتاه يملك وحده حق
حمل التاج ، لان أمه هى الشهريانو ابنة يزددجرد آخر ملوك الفرس وأبوه
هو الحسين بن على .. ويبدو ان ما حمل القائلين بهذا على قولهم شعر
أبى الأسود الدؤلى :

وان غلاما بين كسرى وهاشم لأكرم من نيطت عليه التمام

وحقيقة هذا الأمر أبعد ما تكون عن على بن الحسين العابدین .. فلم يعرف
عنه طوال حياته أى اتصال بالموالى ، ولا كان فى تصرفاته ما يبدى اتجاهها
فارسيا لديه . لقد بفى الرجل طوال حياته بعيدا كل البعد عن كل شبهة
الحكم أو الرئاسة أو رغبة فى الحكم أو الرئاسة ..

كان الرجل زاهدا بحق ، ولم يكن رهنه نابعا من هجران الدنيا ،
فان المسلم الحميى لا يهجر الدنيا ، انما تبع زهده لسبب أخطر ..

كان يدرك ان وجوده فى هذا الجو من الفتن الطامية كفىل بان يسىء

الى الصورة الاسلامية الناصعة التي يمثلها ..

ولهذا ابتعد ..

ولم يسلم رغم ابتعاده من كلام غلاة الشيعة الذين نسبوا اليه ما لم يقله وما لم يكنه في الحقيقة ..

ولكنه فعل ما ينبغي ان يفعله اى مؤمن يخشى الله عز وجل .

تبرا من الغلاة والفتن ، وابتعد تماما عن مسرح الصراع الرهيب الذى بدأ ..

كان يدرك بوعيه الاسلامى انه لا يامن على القيم الاسلامية التي يمثلها لو دخل ساحة الصراع ..

وكان الصراع يومئذ يثير الدهشة مثلما يثير الحزن .

ان الغلاة من الشيعة يتحدثون بكلام لم ينزل الله به سلطانا ، والموالى من المسلمين يأخذون افكارا وثنية سابقة ويطبخونها مع الاسلام ويقدمون للناس هذا الطعام باعتباره ينتمى الى الاسلام .. والسياسة هي التي تحكم الساحة الاسلامية ..

والسياسة لها اساليبها الخاصة في الحكم ، وخاصة اذا كان السياسة يأخذون بقول معاوية بن ابي سفيان « ان لله جنودا في العسل » يقصد ان العسل لو اضيف اليه السم لاغنى عن معركة كاملة ..

كانت الاغتيالات .. والحروب .. والدماء .. والاكاذيب .. والحزن

المبالغ فيه .. والحب المغالى فيه .. كان هذا كله يقف على مسرح الحياة الاسلامية ..

واذا فمن حق زين العابدين ان يبتعد .. ليس هذا مجاله ولا مستواه ولا ميدانه ..

انصراف الرجل للعلم .. والعبادة .. زهد في الدنيا بصورتها التي كانت عليها ، واى مسلم كان يتصرف نفس تصرفه لو كان في عباءته ..
.....

تتهيا الشمس للاختفاء وراء افق الصحراء ..

بعد قليل يبدل المغرب ثيابه ثوبا بعد الآخر ..

الشفق القانى يملأ اطراف السماء بلون يشبه لون دم الشهداء ..

زين العابدين يشق طريقه قاصدا المسجد لصلاة المغرب مع الجماعة .. لا يرتدى الصوف كالزهاد المتأخرين او الصوفية فيما بعد ..

انما يرتدى عباءة ثمينه ، ويطل من وجهه نبل طبيعى لا يكون الا فى وجوه الصادقين .. يرفع عينيه الى السماء ويتأمل الأفق الدامى ..
ينقلب اللون بفته ليوم كربلاء ..

كانت السماء والأرض يومها مخضبتيں بدم الشمس ودم الحسين ويذكر اهل بيته الشهداء فيبكى ..

تنحدر دموعه على وجهه فى صمت نبيل مستسلم لقضاء الله وقدره .. ويسأله بعض أصحابه عن كثرة بكائه فيقول :

« لا تلومونى ، فان يعقوب فقد سبطا من ولده فبكى حتى ابيضت عيناه ولم يعلم انه مات ، وقد نظرت الى اربعة عشر رجلا من اهل بيتى يقتلون فى غزاة واحدة .. افترون حزنهم يذهب من قلبى » .

هذه الاشارة الموحية الى يعقوب تفسر كلمته التى قالها فيما بعد ..

وصارت شعارا للعارفين بالله والصوفية « فقد الأحبة غربة » .

يكون الانس حين يكون فى الأرض من نحب .. فاذا كان حننا فى الله ، وسقطت السيوف تحصد رجال الله ، وتصادف ان كان هؤلاء الرجال هم الاب والاخ والعم ، فمن الطبيعى ان يجتمع حزننا على القريب الذى غاب ، على احزان العقيدة التى توجه اليها الطعنات ، ويتكاتف الشعور بالحزن فى النفس ..

ويولد الاحساس بالغربة .. يودى فقد الأحبة الى الغربة ..

ذلك ان الحب يحتوى على شىء غامض يشبه السحر ، شىء يجعل

للحياة مذاقا خاصا من الانس والبهجة ، هذه البهجة هي سطح البحر
الازرق الجميل الهادئ ، وليس هناك كنوز عظيمة تعيش فوق سطح
البحر ، تختار كنوز المعاني ان تختبئ مع لاليء القاع تحت اعماق من
المياه والصخور والمخاطر والضغط والمعاناة ..

وليس امام من يريد اكتشاف اللاليء الا ان يغوص نحو القاع ..
ولا بد لمن يريد الحقيقة ان يترك سطح البهجة الازرق اللامع ويمضي
وراء الخوف حتى يحدق فيه دون خوف ..
ولقد دفع زين العابدين ثمن زهده ومعرفته ..

قاده الحزن العميق على حال الاسلام وغربته كمسلم الى حقيقة
اليقين .. فكان مسلما يشرف بالاسلام ويشرف به المسلمون .

كان يدعو الله تعالى بدعاء وجيز يعبر عن مقام العبودية الذي يقف
فيه « اللهم كما اسأت واحسنت الي ، فان عدت فعد علي » ..

وكان يبخل على نفسه وأهل بيته ، فلما مات وجدوه ينفق على مائة
أسرة من أسر المدينة الفقراء ، وظل ينفق عليهم سرا فلم يعلم بذلك أحد الا
بعد ان مات وجاءوا يبكونه ويسألون عن نفقتهم ..

وكان يرى ان صدقة السر تطفئ غضب الرب ..

وحين مات وجدوا بظهره آثارا تكشف عن حملة لأحمال الخير
الثقيلة التي كان يضعها على ظهره ويحملها الى المساكين أثناء الليل .

وكان اذا نهض للصلاة اصفر لونه وتغير وجهه .. فسئل في ذلك
فأجاب انه ينهض للوقوف بين يدي رب العالمين ، ومن حقه ان يصفر
لونه خوفا وحبا ..

ولقد روى سفيان الثوري شيخ الزهاد في القرن الثاني ، ان رجلا
جاء الى علي بن الحسين فأخبره ان فلانا قد ذمك ووقع فيك .. فقال
علي بن الحسين : انطلق بنا اليه .. فانطلقنا معا وهو يظن ان علي بن
الحسين سوف ينتصر لنفسه ، فلما اتاه دعا له بقوله :

« ان كان ما قلت حقا فغفر الله لى ، وان كان ما قلت فى باطلا فغفر الله لك » ..

.....

وعاش على بن الحسين او زين العابدين كما اشتهر حياة تفرغ فيها للعلم والعبادة ..

وتنسب الى زين العابدين الصحيفة السجادية التى تتضمن ادعية ومناجيات حفظها الشيعة ونشروها ، وجاء فيها فى المقدمة انها بخط الامام زيد بن على وباملاء ابيه زين العابدين ..

ويرى كثير من العلماء المدققين ان جزءا من الصحيفة السجادية صدر من زين العابدين .. ولكن الاضافة والاستطراد والتعليق والزمن قد صيرها الى ما صارت اليه هذه الصحيفة ..

ونلاحظ مع الدارسين ان الادعية فى الصحيفة السجادية طويلة بعض الشيء ، وليس من طبيعة الدعاء ان يكون طويلا ، لان ذهن الانسان لو انصرف الى محاولة تذكر الدعاء فسوف تتسرب منه معانيه كما يتسرب الماء من اصابع المرء ..

وفى القرآن ادعية كثيرة ، وسوف نلاحظ عليها الايجاز العميق الوافى بالغرض ..

والله تبارك وتعالى هو الذى يلهم الدعاء ..

وقد حدثنا الله عز وجل عن دعاء ادم وحواء حين اكلا من الشجرة المحرمة وعصيا الله ..

« ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »

وحدثنا عن دعاء ذى النون فى جوف الحوت .

« لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين » ..

وحدثنا عن دعاء المؤمنين المختصر :

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا

ولا تحزنوا ..

ومعظم الادعية التى انتهت لايدينا طويلة .. ونحن نشك فى نسبتها اليه ونتفق فى ذلك مع شواهد الحال وطبيعة الدعاء ..

لكن فيها سطورا تضىء كالنجوم ولا تصدر الا من قلب زين العابدين .

((اللهم ان كنت عصيتك فانى قد اطعتك فى احب الاشياء اليك ، وهو الايمان بك تكرما منك لا منا عليك)) .

.....

فى المدينة التى نورها رسول الله صلى الله عليه وسلم بامامة دولته ، توفى زين العابدين وترك ولده محمد الباقر .. الذى سيجىء من بعده حفيده جعفر الصادق ..

والذى سيكون لكل واحد منهما دوره فى الزهد المؤدى الى التصوف .

انتهت ايام على بن الحسين او زين العابدين على مسرح الحياة .

ووقف ابنه المسمى محمد الباقر على المسرح .. والباقر ليس اسما من اسماء محمد ، انما هو وصف له ، كما كان زين العابدين وصفا لابيّه ، وقد سمي محمد بالباقر اشارة الى انه يبقر العلم بقرا ، او يشقه شقا ويصل الى قلب الحكمة .. وقد مات الباقر فى الثانية والستين من عمره ، بعد ان صارت له الامامة ٢٤ سنة . ولهذا ترك علامة بارزة فى تاريخ الزهد الذى اعان على نشوء التصوف .. حين ظهر محمد الباقر على مسرح الحياة ، كانت سماء الحياة ملبدة تماما تملؤها الغيوم الكثيفة ..

ان الصراع بين شيعة على بن ابي طالب والدولة الاموية لا يتوقف .. سواء بالانقضاء بالسيف او الخروج بالكلام .. ورغم ان ابناء الحسين قد ابتعدوا تماما عن دائرة الصراع وانصرفوا الى العلم ، الا ان احزابا من الشيعة نهضوا لمقاومة الدولة بالسيف وخرجوا عليها بالقوة ..

وعلى المستوى الفكرى كان الصراع على اشده بين علماء الكلام وعلماء السنة ، وكان المعتزلة يرون تقديم العقل على النقل ، ويشيرون مشكلات تتصل بالحرية والجبر والقضاء والقدر ، ويتحدثون هل القرآن مخلوق ام لا ، ويدخلون الصراع حول صفات الله واسمائه ، وكان اهل السنة

يقفون في الطرف الآخر من الصراع ..

ومثلما ابتعد أبناء الحسين عن صراع السيف ، ابتعدوا أيضا عن صراع الترف العقلي ، سئل محمد الباقر عن الجبر والاختيار فقال :

((ان الله ارحم بخلقه من ان يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها ، والله اعز من ان يريد امرا فلا يكون ..))

سئل : هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة :

قال : نعم .. اوسع مما بين السماء والأرض ..

وواضح من هذا النص ان الباقر لا ينفي ولا يثبت ، ولا يفلو ولا ينقص ، إنما يقف موقف الوسط العدل من الأمور ، فهو ينفي أن يكون الانسان ريشة في مهب الرياح بلا ارادة ، وينفي ان يكون الانسان مطلق الاختيار في الكون ، وبذلك يعيد المياه الى مجراها الاصيل ويضع قاعدة للشاعرة فيما بعد .

نشأ محمد الباقر في هذا الجو الملبس المليء بالسحاب والصراع والمفاجآت .. وانصرف تماما الى العلم والزهد ..

ترك كل الأمور التفصيلية التي يتقاعل عليها المسلمون .. واهتم برحلة الانسان نحو الله تعالى ((يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه)) أيضا ابتعد الباقر عن الغلو وكرهه كراهية شديدة ، وكانت الدولة الاموية تلعن على بن ابي طالب على منابر المساجد في الامصار ، كجزء من خطة دعائية ضد الشيعة ، وغلا بعض الشيعة فكانوا يسبون عمر بن الخطاب واما بكر الصديق كرد فعل لهجوم الدولة الاموية ، وبلغت محمد الباقر انباء الشيعة الذين يسبون ابا بكر وعمر بن الخطاب ، واصدر تصريحه الشهير الذي يعيد فيه الأمور الى مجاريها ..

قال الباقر : بلغني ان قوما بالعراق يزعمون انهم يخبئوننا وينالون من ابي بكر وعمر رضي الله عنهما ويزعمون انني امرتهم بذلك ، فابلفهم اني الى الله منهم بريء ، والذي نفس محمد بيده ، لو وليت لتقربت الى الله بدمائهم ، ولا نالتني شفاعة محمد ان لم اكن استغفر لهما « يقصد ابا بكر وعمر » ..

وبهذه الكلمات يتبرا الباقر من غلاة الشيعة ، ويرمى بالكفر من
يسبون أبا بكر وعمر ، ويؤكد ان الأمور لو صارت اليه لقتلهم وتقرب الى
الله بدمائهم ..

رغم اعتدال الباقر الشديد .. لم يسلم بعد موته من صب حياته في
قالب صوفي زهدي بحيث صار واحدا من الصوفية أو زاهدي الصوفية ..
حكوا عنه ان دمعته لم تجف طوال حياته شأن أبيه ، وروى عنه انه
قال ما اغرورقت عين بمائها الا حرم الله وجه صاحبها على النار ، بل انه
يقسم بالبكاء كما قسم المعرفة فيقول :

« فان سالت الدموع على الخدين لم يرهق وجهه قطر ولا ذلة ، وما
من شيء الا له جزاء الا الدمعة ، فان الله يكفر بها بحور الخطايا ، ولو ان
باكيا بكى في أمة لحرم الله تلك الأمة على النار .. »

والجديد الذي يضيفه الباقر أو يضيفه له معاصروه هو ربط الذكر
الالهى بالبكاء .. يقول ان الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولا تصيب
الداكر .

ومن الصعب وسط جو الحياة المضطرب أيامها ان تعرف اليوم ماذا
قال الباقر حقيقة ، وماذا نسبه الناس اليه .. وسنجد هذه المأساة
عالقة بكل الشخصيات الزاهدة التي نسبت الى الصوفية ..

وفي تصوري أن الباقر كان زاهدا فحسب ، وعباراته التي تدين
الفلو والغلاة هي التي يتصور صدورها منه حقا ، لأنها تتفق مع روح
الاسلام السني ، أما ما أضيف الى شخصيته ونسج عنه من أساطير
ونسب اليه من كلمات غامضة تدخل في لب التصوف ، فأغلب الظن ان
هذا كله منحول ومضاف اليه ..

وقد رويت عن الباقر حكايات تجعله كالخضر عليه السلام ..

قال ابن المبارك « توفي سنة ١٨١ » انه قابل بين مكة والمدينة شبعا
يلوح في البرية ، سأل ابن المبارك من اين قال من الله ، قال الى اين قال
الى الله قال علام قال على الله ، ويظل ابن المبارك يدقق في السؤال حتى

يكشف انه يحدث محمد الباقر . وبعد عدة ابيات ركيكة من الشعر يكشف الباقر عن شخصيته ويختفى في ضباب الصحراء فلا يعلم ابن المبارك هل صعد الى السماء ام انشق عنه الهواء ..

ونحن نعرف الآن ان الباقر مات قبل صاحب القصة بخمسين سنة .
فهل كان ما رآه الراوى شبحا ام حقيقة ؟

واضح ان هذا الشبح ظهر في مخيلة ابن المبارك الخصبة ولا اثر له في الحقيقة . ومن هذه الاشباح التي تذهب وتجيء في المخيلة . تمتلىء كتب التصوف واخباره بالكثير ..

وهذا كله اختراع فنى لا يلزم احدا ولا يعبر عن حقيقة ..

.....

مات الباقر فلم يسلم من هذه العباء الخرافية التي القاها غلاة الشيعة على صورته ..

وبرز الى المسرح ابن محمد الباقر جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن ابي طالب . وسمى جعفر بالصادق لصدقه . وعلى عادة الشيعة صارت الصفة اسما ثانيا له .. فهو جعفر الذي يصدق اذا حدث او عمل او سكن او تحرك هو جعفر الصادق اذا ..

وكانت الظروف التي صاحبت ظهوره على المسرح اشد قسوة من ظروف ابيه محمد الباقر ..

كانت حركات العنف في قمعتها . سواء على المستوى السياسى او الفكرى .. وهكذا عاصر الصادق حركة الغلو في اعنف مراحلها ، ف وقعت في حياته حركة ابي مسلم الخراسانى وحركة عبد الله بن معاوية ، كما وقعت حروب مروان بن محمد وحركات الخوارج وحركات الزيديين ، والاصل في حركات الزيديين ايمانها بقول زيد بن على امامهم الاول « ما كره قوم قط حر السيوف الا ذلوا » .. وهكذا خرج زيد على الدولة بالسيف فقتل في الكوفة سنة ١٢١ هجرية ، و صلب بعد قتله خمسين شهرا عريانا ثم احرق كما نقول مروج الذهب

وفي هذا الجو المضطرب الثائر . تفرغ جعفر الصادق تماما للعلم ، وترك السياسة والملك لطالبيهما وما كان أكثرهم انصرف جعفر الصادق الى التأمل والزهد والقراءة والتدريس والذكر والعلم ، ومع الوقت صار الرجل استاذا روحيا لجيله المعاصر .. وكانت كلماته في العقيدة والاسلام بالغة العمق والاحكام والوعى معا ..

كانت الآراء متناحرة تتقاتل حول صفات الله والجبر والاختيار والقضاء والقدر ، وكان المجتمع يموج بتيارات ثقافية متعددة ، فقد انتشر الاسلام وبلغت امواجه اقصى شواطئ الارض البعيدة ، ودخلت في الاسلام امم مختلفة لها تصورها وعقائدها واسلوبها في الفكر ، كما صارت الفلسفة اليونانية جزءا من نسيج بعض العقول المسلمة ، وكان فلاسفة هذا الوقت العقلانيون هم المعتزلة .. واحتدم الصراع الفكرى بين اهل العقل والبحث والنظر واهل التسليم والتفويض مثلما احتدم الصراع بالسيوف بين الخارجين على الدولة والمؤيدين لها ..

وسئل جعفر الصادق عن ارادة الله وارادة الفرد ، سئل عن الجبر والاختيار ، وقال كلمته البليغة :

« ان الله تعالى اراد بنا شيئا واراد منا شيئا ، فما اراده بنا طواه عنا ، وما اراده منا اظهره لنا ، فما بالنا نشغل بما اراده بنا عما اراده منا » .

وبهذه الكلمة يمتنع الجدل تماما في الموضوع المتنازع عليه .. تسقط الدعوى والخصومة ولا يبقى غير جوهر الزهد الصافى ..

ان البحث فيما أخفاه الله عنا لا معنى له ، لان هذا ما اراده بنا ، ولا حساب على هذا ، انما يكون الحساب على ما اراده منا من تقوى وعبادة وتوقير . ايضا اجاب جعفر الصادق على المتكلمين في الله ، وكان المقصود علماء الكلام من المعتزلة ومن انجر في الصراع معهم من علماء السنة ..

قال جعفر الصادق : **« الكلام في الله لا يزداد صاحبه الا تحيرا » ..**

وبهذه الكلمة الجامعة المانعة تسقط القضية والخصومة ولا يبقى الا

ان ينصرف الناس الى العمل ..

ان الكلام في الله لا يزيد صاحبه الا تحيرا ..

ما هو الاسلوب الذي يزيد من ثبات الثابتين اذا ؟

الاسلوب هو العمل .. وليس الكلام ..

ومضى جعفر الصادق في حياته كمال وزاهد .. ويرى بعض الدارسين من المستشرقين انه كانت له مدرسة شبه سقراطية ..

وفي مسجد الكوفة وحده كان له تسمائة شيخ من تلاميذه .. وكان من تلاميذه جابر بن حيان .. المشهور في التاريخ بصناعة الكيمياء وتحويل المعادن .. ولقد كان جعفر الصادق يرسم بكلماته عالما بالغ الشفافية والعمق ، وكان صورة رائعة من ابيه واجداده ، فهو يحافظ على الاسلام ويتعد عن صراع الافكار التي لا تزيد المرء الا تحيرا ، ويكف عن دس عقله فيما طواه الله واخفاه عن عباده كالغيب ..

وهو بذاته صورة للمسلم الذي يشرب من نبع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثلما اضيف الى اجداده ونسج حولهم وقعت نفس الاضافات لجعفر الصادق . يروى الكليني حديثا ينفي فيه جعفر الصادق علم الغيب عن الائمة ، ويقابله حديث آخر ينسب الى جعفر الصادق يقرر فيه « ان الامام اذا اراد ان يعلم علم ، وان سليمان ورث داود ، وان محمدا ورث سليمان ، وانا ورثنا محمدا » .

ويسأله احد السائلين عن العلم ، هل هو ما ورد في الكتب السماوية وحدها فيكون جواب الصادق « ليس هذا هو العلم ، ان العلم الذي يحدث يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة » .

وقد انكر عمر بن الرياح امامة الصادق لانه اجاب عن سؤال واحد اجابتين مختلفتين وروى الصادق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « انا معاشر الانبياء تكلم الناس على قدر عقولهم » ..

ويبدو من هذا ان الصادق كان يكلم الناس على قدر عقولهم ، وهذا تقليد من تقاليد الاساتذة الموهوبين ، فان الاستاذ لو كلم الناس على قدر فهمه هو أو عقله هو فربما لم يفهم عنه احد ، فربما ضاعت الفائدة فيما يقوله .

لا غرابة اذا في هذا ، انما تشور الغرابة مما يثبت به بعض المؤرخين لجعفر الصادق ، بحيث يبدو فيه متناقضا مع احدي جوهريات الاسلام .. كمعرفة الغيب ، ان احدا لا يعرف الغيب ، النص القرآني على ان الجن لا يعلمون الغيب ، وعلى ان الملائكة لا تعلم الغيب ، وعلى ان الانبياء لا يعلمون الغيب ، فهل يقصد جعفر الصادق هنا هذا الغيب المحجوب أو أسرار الله تعالى .. ؟

لماذا لا يكون ما يقصده جعفر الصادق هو غيب العلوم والعبادات ، وهذه امور لا بد ان يعرفها من كان استاذنا مثله ، وربما كان العلم الذي اوتي به جعفر الصادق علما اكتسبه ، وربما قدف الله تعالى في قلبه بنور علوم اخرى ، هذا كله جائز الوقوع ومحتمل ، اما اجابته اجابتين مختلفتين بحسب عقلية السائل مرة ، ومحافظة على التقية مرة اخرى .. فليس امرا بالغ الغرابة في جو مضطرب يموج بالفتن كالجو الذي عاش فيه جعفر الصادق .. ولعل هذا كله يوضح ما قاله الصادق يوما « وددت لو اني افتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي .. النزع وقلة الكتمان » ..

ويبدو من ذلك ان التشيع كان قد دخل في الطور السري لاشتداد الفتنة ، ومهما يكن من امر فان ما اضيف لجعفر الصادق وما نسب اليه من كلام كان شيئا ضخما ، لقد وصل بعض اتباعه من الجهلاء في الرواية عنه والكذب عليه ونسبة ما لم يقله اليه مبلغا كبيرا .. وقد علل مصنفو الشيعة الأوائل سر تضعيف احاديث الصادق هذا التعليل المعقول ، قال الكشي :

« كان جعفر بن محمد رجلا صالحا مسلما ورعا ، فاكتنفه قوم جهال يدخلون عليه ويخرجون من عنده ويقولون : حدثنا جعفر بن محمد ، ويحدثون باحاديث كلها منكرات كذب موضوعة على جعفر يستاكلون الناس بذلك ويأخذون منهم الدراهم » .

وهذا هو رأينا الخاص في جعفر الصادق .

كان الناس يدخلون عليه فيحدثهم حديث الاسلام لا يزيد ولا ينقص ،
فاذا خرجوا من عنده وانتشروا قال كل واحد ما فهمه أو قال كل واحد
ما يريد قوله ونسبه الى الصادق على أنه حديث نبوي حدثهم عنه .

هذا الرأي الوحيد يفسر لنا سر تناقضات تراث جعفر الصادق ..
كان الرجل مسلما صالحا ولكنه لم يسلم من الكذب عليه ونسبة
الخرافات اليه ..

ولدينا منهج لا يفلت شيئا لمعرفة ذلك هل كان الصادق مسلما
أم لا ..

كان الرجل مسلما عظيما .. اذا فلا مجال للارتياب . وكلماته تقاس
بمقياس الاسلام الصحيح ، ما زاد عن ذلك نبرته منه ..

ولسوف نجد في سيرة جعفر الصادق نفس هذه الرقة والصفاء اللذين
كانا سمة مميزة لاجداده ، فهو يقول عن الدموع التي يبكيها العبد في
سجوده لله :

« ما من شيء الا وله كيل ووزن الا الدموع ، فان القطرة تطفئ بحارا
من النار ، فاذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهها قطر ولا ذلة ،
فاذا فاضت حرمة الله على النار ، ولو ان باكيا بكى في امة لرحموا » .

ويصطبغ زهد جعفر الصادق بصبغة علمية عميقة ، فهو القائل حين
سئل عن المعروف « لا يتم المعروف الا بثلاث ، تعجيله وتصغيره وستره »
وسئل الصادق بأي شيء يعلم المؤمن انه مؤمن قال : « بالتسليم له والرضا
فيما ورد عليه من سرور أو سخط » ..

وهو مسلم يلوم نفسه يوما حين حدثه أحد جلسائه بأن جده شفيع
الخلائق فقال : « اني لأخجل من افعالي الى حد انني أستحي أن أواجه
جدي يوم القيامة » « يقصد رسول الله » . .

ونسب لجعفر الصادق أنه كان يدعو نفس دعاء النبي الياس ..

اتراك معذبي وقد اظلمات لك هواجرى .. اتراك معذبي وقد اسنهرت
لك ليلي ، اتراك معذبي وقد اجتنبت لك المعاصي ..

ولسنا نعرف من أين عرف بدعاء النبي الياس ..

اشياء كثيرة لا تثبت للتمحيص ، واشياء تتفق مع روح الاسلام
كقول جعفر الصادق :

**« من خاف الله اخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله اخافه الله
من كل شيء » ..**

ولقد كان هذا هو جوهر التوكل الحقيقي ، ومثال ذلك قوله ايضا :

**« من اعطى ثلاثا لم يمنع ثلاثا ، من اعطى الدعاء اعطى الاجابة ، ومن
اعطى الشكر اعطى الزيادة ، ومن اعطى التوكل اعطى الكفاية » .**

ومن كلماته الخطيرة الجامعة قوله : **« لقد تجلى الله عز وجل لخلقه
في كلامه ولكن لا يبصرون » .**

حين مات جعفر الصادق .. ومر الزمن .. اعتبر اكبر مفسري
الصوفية ان جعفر الصادق هو امام التأويل الباطن .. واظهره الصوفية
كأستاذ لهم وامام .. ومن تفسيراته الآية الكريمة التي تقول في سورة
الكهف : **« لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا وملتت منهم رعبا »** قوله
لو اطلعت عليهم من حيث أنت لوليت منهم فرارا ، ولو اطلعت عليهم من
حيث الحق لشاهدت فيهم معاني الوجدانية والربانية .

وهو يرى ان **« يس »** معناها : **ياسيد ..** ايضا يفسر **« والنجم اذا
هوى ما ضل صاحبكم وما غوى »** بقوله النجم هو محمد صلى الله عليه
وسلم ، ومعنى اذا هوى اى اذا اتقطع عن جميع ما سوى الله تعالى ،
وما ضل هنا بمعنى ما ضل عن قربته تعالى .

ايضا يروى القشيري عن جعفر الصادق في تفسير قوله تعالى
**« فاوحى الى عبده ما اوحى » .. قال : سر الحبيب مع الحبيب ، ولا
يعلم سر الحبيب الا الحبيب » ..**

خلال حياة جعفر الصادق ، تنبأ يوما للمنصور بان امر الخلافة
سيكون للعباسيين بعد الامويين .. وتنبأ بالقتل للثوار العلويين .. وحين
وقع الامر الاول سماه الخليفة المنصور باسم جعفر الصادق ، وصار

الوصف له اسما ..

والثابت تاريخيا ان جعفر الصادق كان يلبس الصوف ، وقد سئل مرة لماذا ترتدى الحرير ، فكشف عن ثياب الحرير فاذا تحتها ثوب من الشعر الصوفي الخشن .

وصار الصوف لباسا للزاهدين والصوفية ..

استفارق الصوفية وقتا حتى صار الصوف لباسا عاما لهم .. وينقسم العلماء في لفظ الصوفية الى اكثر من فريق ، يرى بعضهم ان الصوفية لفظ مشتق من الصفاء ، ويستبعد البعض هذا الرأي ويروى ان الصوفية لفظ مشتق من الصوف ، ويرى البعض ان الكلمة اليونانية ((سوفيا)) بمعنى الحكمة هي اصل كلمة التصوف ..

وربما كانت الكلمة مشتقة من هذا كله .. غير ان هناك دلائل تشير الى ترجيح الصوف ..

نحن نعرف من تاريخ الايام الاولى للاسلام كيف كره الاسلام ان يلبس الرجل الحرير ، ويبدو ان خشونة الرجولة في الاسلام وترفعها على لبس الحرير كانا امرين مستقرين تماما طوال بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطوال فترة الخلفاء الراشدين ..

ويذكر ابن سعد ان النبي لم يسمح لاحد من الرجال بلبس الحرير الا لعبد الرحمن بن عوف وذلك لانه كان رجلا مصابا بمرض جلدي « او حساسية جلدية » . ومعنى هذا ان لبس الحرير كان محرما على الرجال في بداية الاسلام ، ثم مر الوقت ، ووليت الدولة الاموية الحكم ، وعاد الحرير الى الظهور مرة اخرى . ولم يكن الحرير صافيا هذه المرة انما كان منسوجا بالذهب والفضة ..

يلفت د . كامل الشيبى نظرنا لما كتبه المسعودى في وصف سليمان ابن عبد الملك الذى ولى الخلافة سنة ٩٦ اى بعد موت الحجاج بأفاعيله في الكوفة .. قال المسعودى « وكان يلبس الثياب الرقاق (يقصد الرقيقة الغالية) وثياب الوشى « يقصد الحرير الموشى بالذهب والفضة والقصب » وفي ايامه عمل الوشى الجيد في اليمن والكوفة والاسكندرية ، ولبس

الناس جميعا الوشى جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس ، وكان لا يدخل عليه رجل من اهل بيته الا فى الوشى ، وكذلك عماله واصحابه ومن فى داره ، وكان لباسه فى ركوبه وجلوسه على المنبر ، وكان لا يدخل عليه احد من خدامه الا فى الوشى حتى الطباخ فانه كان يدخل اليه فى صدره وشى « صديرى منقوش » وعلى راسه طويلة وشى « غطاء رأس موشى » وامر ان يكفن فى الوشى المثقلة .

ما الذى نفهمه من سطور المسعودى .. ؟

واضح ان الترف كان قد تسلل الى قمة النظام الاسلامى الحاكم يومئذ .. وواضح ايضا ان لبس الحرير اصبح يمثل سياسة عامة اتخذتها الدولة الاموية وامرت بها خلفاءها وعمالها .. ولم يكن الخليفة يرضى بلبس شئ غير الحرير المنسوج بالذهب او الفضة او القصب ، وصار هذا النموذج سائدا بالنسبة للحكام وعمالهم وخدمهم حتى الطباخين منهم ، فقد كان الطباخ الاموى يرتدى الحرير المنسوج بالقصب ولا يدخل على الخليفة او امير المؤمنين او الحاكم الاعلى الا وهو يرتدى هذه الثياب ، فترتاح عين الخليفة ولا يجرحها لبس الصوف الخشن ..

وكانت الكوفة مركزا من مراكز صنع الحرير فى العالم الاسلامى مع الاسكندرية ، ولا زالت كلمة « الكوفية » التى تغطى الرقبة مشتقة أصلا من الكوفة ومنسوبة اليها ، واراد الزاهدون فى الكوفة ان يخرعوا اسلوبا للمعارضة لا تستطيع سلطة ان تؤاخذهم عليه .. وهكذا لبس الزهاد الصوف ليميزوا انفسهم عن حكام الدولة الاموية ، وكان لبس الصوف يتفق مع المعارضة السلبية التى يتخذها قادة الزهد وزعماؤه .. وقد رايانا كيف اتصرف ابناء على بن الحسين بن على الى تحصيل العلم ونشره والبعد تماما عن السياسة وبحارها المضطربة ، وسلك الزهاد مسلكهم هذا ، فابتعدوا عن دنيا الفتن وارادوا اظهار معارضتهم للحرير المنسوج بالذهب والفضة ، فارتدوا الصوف ..

ولم يكن الصوف يومئذ غالى الثمن كما هو اليوم ، ولا كان ناعم الملمس كما هو اليوم ، انما كان يصنع من صوف الحيوانات واوبارها ، فيجىء خشن الملمس رخيص الثمن ..

وفي كبار الزاهدين من كان يلبس الصوف ويخفى لبسه للصوف ،
اتقاء للمظاهر الكاذبة ، وقد حكى لنا كتب القدماء ان سفيان الثوري لام
جعفر الصادق على لبسه الحرير . فأراه جعفر تحت الحرير ثوبا من
الصوف الخشن أو الشعر الخشن .

وهناك من يعتقد ان الصوفية قلدوا الرهبان المسيحيين في ارتداء
الصوف . وكان هؤلاء الرهبان يرتدون الصوف معظم الوقت ، ولكن
الآراء تميل مع الكفة التي تقول ان لبس الصوف لم يكن تقليدا للرهبان ،
وانما كان مقاومة سلبية للاتجاه الأموي الذي يحاول بث الرفاهية في
الملابس والمجتمع ..

وقد كان الصوف مادة لا يعبا بها العرب ، انما كان شيئا مهملا
لا قيمة له ولا سعر ، ولم يكن العرب يلبسون الصوف المنسوج حتى في
الشتاء ، انما كانوا يتغلبون على برد الشتاء بارتداء الفرو أو القمصان
المبطنة أو المحشوة ، « وهو لباس من القماش يحشى القطن داخله ليقى
من البرد » ..

وقد اهملت كتب العصور القديمة التي تتحدث عن ثياب العرب
الصوف اهمالا يكاد يكون تاما ، ويبدو ان الصوف كان لباس الفقراء
والمعدمين .. وحين ارتداه الزاهدون والصوفية ، كان هذا اشارة موحية
بأنهم ينبدون المظاهر الأموية والترف السائد ، ويختارون طريق الفقراء
ولباس الفقراء ..

**ولسنا نعرف على وجه التحقيق من هو اول رجل اطلق عليه لقب
الصوفي ، لقد اختلف الباحثون على ثلاثة اشخاص ، جابر بن حيان
وابو هاشم الكوفي ، وعبدك الصوفي ..**

اما جابر بن حيان فتلميذ جعفر الصادق ، او عبده كما ورد في خلاصة
الاثر ، وكان يلقب بالصوفي ، واختلف الناس في أمره ، فالشيعة يزعمون
انه واحد منهم ، والفلاسفة يدعونه لانفسهم ، وأهل صناعة الذهب
والمعادن يرون انه كان واحدا منهم ، وكان جابر بن حيان يشتغل بعلم
الكيمياء ، ولم يعرف عنه انه كان صاحب مجاهدات في الصوفية ، أيضا

لم يعرف عنه انه نطق بأقوال الراهدين . ويرجح في حقه ان لقب الصوفية الصق به نتيجة اخذه من الحكمة اليونانية « سوفيا » وعلومها .

اما ابو هاشم الكوفي فقد كان معاصرا لسفيان الثوري ، ويقول عنه سفيان « لولا ابو هاشم ما عرفت دقائق الرياء » .

ويورد بعض المؤلفين ان أول من تسمى بالصوفي هو ابو هاشم الكوفي سنة ١٥٠ وكان من النسب الكلابي وينطق بالشعر كما وصفه الجاحظ ..

ويعلق بعض المؤلفين على تسميته بالصوفي بأنه كان يلبس لباسا طويلا من الصوف كما يفعل الرهبان ، ويقول بالحلول والاتحاد مثل النصاري ، غير ان النصاري اضافوا الحلول والاتحاد الى عيسى عليه السلام وازافهما هو الى نفسه ، وكان مترددا بين هاتين الدعوتين ، ولم يعلم على ايها استقرار في النهاية « كما يورد صاحب طرائق الحقائق » .

والاخبار الواردة عنه مضطربة ، وتعذر في اضطرابها الاخبار الواردة عن جابر بن حيان او يزيد .. وينقلون عن جعفر الصادق انه قال فيه « انه فاسد العقيدة جدا وهو انتدع مذهبا يقال له التصوف وجعله مقرا لعقيدته الخبيثة » .

اما عبدك الصوفي فكان آخر شيوخ فرقة نصف شيعية صوفية تأسست في الكوفة ، وقد كان عبدك هذا رجلا زاهدا منزويا توفي في بغداد سنة ٢١٠ تقريبا ، ويحدثنا عنه كتاب الرد على اهل الاهواء والبدع انه « اي عبدك الصوفي » كان على رأس فرقة من الزنادقة ، واهم ما في قصة عبدك الغامضة انه كان أول كوفي يطلق عليه اسم صوفي بعد انتقاله الى بغداد .

ولعل من المصعب اليوم ان نعرف أول من اطلق عليه لقب الصوفي ، او نقطع في هذا البحر برأي نطمئن اليه .. كل ما نريد ان نلاحظه جيدا ان هناك احتمالا قويا ومؤشرات عديدة لخروج التصوف من الكوفة .. وقد مر الزهد بمراحل عديدة حتى صار الى التصوف ..

وبعد ان كان الزهد حلا سعيدا - أو حلا وحيدا بمعنى أصح - أمام أبناء الحسين ، وبعد ان كان البكاء الطويل والدموع التى لا تجف هى أول بحار سبغ فيها الزهد ، دخل الزهد طورا جديدا بدخول شخصيات جديدة فيه ..

وينسب لسفيان الثورى « الذى ولد سنة ٩٧ هجرية » بدء هذا الطور الجديد الهادئ .. فبعد ان كان الزهد سباحة فى الدموع وغربة سببها فقد الاحبة ، صار الزهد هادئا متأملا صامتا مفكرا ..

بدأ الاتجاه الى التفكير بدلا من الهرب منه ..

وهكذا سئل سفيان الثورى يوما بعد ان ذاع واشهر صيته : ارى الناس يقولون سفيان الثورى وانت تنام الليل ..

يريد السائل ان يقول لسفيان انك لا تتعب اثناء الليل عبادة تفسر شهرتك بالعبادة ..

وكان رد سفيان عليه وجيزا مختصرا وجامعا فى نفس الوقت .. قال سفيان « اسكت .. ملاك هذا الامر التقوى .. » .

يريد ان يقول له ان اهم ما فى الزهد هو التقوى . وليس السهر والعبادة وكان سفيان متفرغا للعلم ، ويبدو انه قطع شوطا طويلا من العلم فصار اكثر ميلا الى الحزن .. وكان يؤثر عنه قوله :

« لو لم اعلم لكان حزنى اقل .. »

كان سفيان الثورى سائحا من السائحين فى الارض .. وكانت السياحة فى الارض يومئذ بدعة ، ولكن سفيان الثورى كان يسيح رغبة فى العزلة ، قاصدا التأمل والتفكير ..

كان رايه ان من خالط الناس داراهم . ومن داراهم واداهم ، ومن راداهم وقع فيما وقعوا فيه ، فهلك كما هلكوا .

وكان سفيان زيديا ، وناصر محمد بن عبد الله بن الحسين الثائر بالمدينة ، وباع له واكتسب عداء الدولة بهذا الموقف ، وكان السلطان

يطلب رأسه ، ولكن سفيان لم يشترك في القتال لأنه آثر السلم كما يقضى بذلك مبدأ الزهاد .

ويبدو أن اختيار سفيان للزيدية جاء نتيجة اتفاق الزيدية مع تفكيره الحر فالزيدية لا تجعل الامام معصوما ، وهو ليس بالضرورة اعلم المسلمين اما التفوق في العلم فبابه مفتوح للجميع .. من شاء أن يدخل دخل .

وقد دخل سفيان الثوري باب العلم وتفوق فيه : وكان جريئا في الحق ، فقد سلم على الخليفة المهدي تسليم العامة ، ورفض أن يظهر للسلطان أي مراعاة خاصة .

بعد سفيان الثوري جاء داود الطائي وهو رجل أتم تعلمه على يد شيخه فلما امتحنه الشيخ قال له مقبلا : **بقي العمل به** .

يقصد الشيخ بقي العمل بما تعلمته ..

ونازعته نفسه الى الوحدة والعزلة ، واعتزل داود الناس واتخذ التبتل منهجا لسلوكه وحقيقة .. ولم يتزوج داود وبقي اغرب أربعة وستين عاما ، وترد في سيرة داود اشارة الى كونه شيخا لمريد آخر ..

كان الدور الذي لعبته الكوفة في نشأة التصوف بارزا بغير شك ..

ان حركات الغلاة من الشيعة ، وحركات الامامة ، وفكرة الشيخ والمريد ، والمقاومة السلبية التي تأخذ شكل ارتداء الصوف ، والعاطفة الدينية التي كانت تستغرق الكوفيين ، واللون الشيعي الذي كان يصبغ الكوفة .. استطاع هذا كله ان يعين على نشأة الزهد وتطوره الى التصوف ، ولم تكن البصرة بمعناى عن تيارات تجعلها هي الاخرى حصانة للزهد المفضى الى التصوف ..

ورغم قرب البصرة والكوفة ، فقد كان بين البلدين تضاد قوى ، يتضح في كون الكوفة مغلقة على نفسها ، وكون البصرة مفتوحة على التيارات الأجنبية الوافدة .. وكانت البصرة تسمى بأرض الهند ، كما كانت من الناحية الادارية مركز حكومة خراسان أيام الأمويين ، وعلى حين اتصفت الكوفة بالاصالة العربية ، اتصفت البصرة باختلاط الثقافات .. وقد كانت البصرة على تخوم فارس ، ولهذا نشأت فيها دراسات اللغة

العربية كأصول الصرف والنحو لتعليم الاعاجم الداخلين في الإسلام وأصبح التلاميذ مع الوقت أساتذة لهذه العلوم ومن حملتها ، وظهر في البصرة أول واضع للنحو العربي أبو الأسود الدؤلي .. وكان في أساتذة اللغة العربية من يقوم بتفسير القرآن ، فيفسر للعرب باللغة العربية ، ويفسر للذين انحدروا من دماء فارسية باللغة الفارسية .

ولعل أطرف ما قيل عن الفرق بين الكوفة والبصرة ما قاله كتاب مروج الذهب . فقد شبه البصرة بأنها عجوز أوتيت من الحلى والزينة ، أما الكوفة فشابة حسناء جميلة لا حلى عليها ولا زينة ..

وكانت الحياة في البصرة سهلة طيبة ، ويبدو أن الاسعار فيها كانت رخيصة حتى وصفها أحد الكتاب بأنها خير البلاد للجائع والفريش والمفلس .. كما كانت الأحوال فيها أكثر استقراراً من الكوفة ، وكان أهل البصرة أكثر أموالاً وأولاداً واطوع للسلطان ، ولعل أخطر فرق بين المدينتين هو الفرق بين ضميرهما ، فعلى حين ظل الزهد في الكوفة مشوباً بالتوجس والخوف استطاعت بدور الزهد في البصرة أن تنتج لنا زهور الحب ..

وكان جو الكوفة مليئاً بغبار المعارك التي أدت الى عكس النتائج التي يريدونها الكوفيون ، ولهذا لم يستطع الزهد الكوفي أن يخرج من نطاق الخوف الى نطاق الحب ، فقد كان ضمير الكوفة مثقلاً بالاثم الذي يعاينها أهلها ، وكانت خطيئة الكوفيين تتصل بخيانة المبادئ والتخلي عن المثل العليا عندما تحين ساعة الجد والقتال ، أما البصرة فكانت ذنوبها فردية لا تتصل بخيانة المبادئ أو الكبائر المتصلة بالمثل العليا ، ولهذا قطعت البصرة المسافة بين الخوف والحب أسرع من الكوفة ..

كما ان تشيع الكوفة كان يلصق بآل البيت ، وكانت خيانتهم لآل البيت هي السر في عدم استطاعتهم الارتفاع بحب آل البيت الى الله ، على عكس البصرة التي لم يكن لها ارتباط شيعي بامام يفترض في اتباعه ان يعتبروا حبه جزءاً من عقيدتهم .

وكان الحسن البصري هو مؤسس مدرسة الزهد في البصرة ، وكان

الرجل زاهدا يصدر عن روح الاسلام الحقيقي ، وقد ولد الحسن البصري في المدينة وحفظ كتاب الله في خلافة عثمان وسمعه يخطب مرات ، وكان أبوه من الاسرى ، ولم يكن عربيا ، ويقال انه ولد على الرق ، وكانت امه خادمة لام سلمة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يسلم الحسن البصري ، وقد نسب الى اسم المدينة التي اشتهر فيها علمه وزهده ، لم يسلم من أساطير الصوفية فهم يحكون عنه انه اطلع على الاسرار الدينية وعلم الباطن ، ومهما يكن من امر فقد كان الحسن زاهدا رقيق القلب بالغ الحساسية عميق الحزن ..

كان اذا اقبل فكأنما اقبل من دفن حميمه .. واذا ذكرت النار . فكأنما خلقت من اجله ، وكان يقول ان طول الحزن في الدنيا بمثابة تلقيح للعمل الصالح . وحين سئل عن سر احزانه قال :

« ان المؤمن لا يسعه سوى الحزن لانه بين مخافتين .. ذنب قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، واجل قد بقى لا يدري ما يصيب فيه من المهالك . وكان الحسن البصري يلبس الصوف .. »

وكان الحسن البصري يبكى اذا نصب قامته للصلاة في جوف الليل .. وكان المجتمع البصري مليئا بالدنوب والانحلال الخلقي .. من مواخير منصوبة اثناء الليل ، وحقوق منهوبة في النهار المبصر ، كما اشار الحسن البصري الى الشذوذ الجنسي الذي كان منتشرا في البصرة ..

وطوال حياة الحسن البصري كان الزهد لم يزل يسبح في مياه الخوف .. وحين جاء عامر بن عبد الله بن عبد قيس .. كان هذا ايلانا بخروج الزهد من منطقة الخوف من الله .. الى منطقة الحب لله عز وجل ..

كان عامر اول زاهد تخلص من احزانه وهمومه واغرق نفسه في بحار الحب حين قال :

« احببت الله حبا سهلا على كل مصيبة ، ورضائي بكل قضية ، فما ابالي ما اصبحت عليه » .

وخرج الزهد من حدوده الضيقة التي تحاصرها الاحزان والبكاء الى

عالم أكثر رحابة .. وادمى الى التفاؤل ، واعدد وأكثر تركيبا ..
ذلك عالم الحب ..

وبدا الزاهدون يتجهون الى الله بالحب .

قال الزاهد : يا اخوتاه هل فيكم من احد لا يحب ان يلقي حبيبه ،
الا فاحبوا وبكم وسيروا اليه سيرا كريما .

وجاء عتبة الفلام فكان أكثر اندفاعا في الحب واقدر على التعبير عنه
في قوله : « ان تصدبنى فاني لك محب ، وان ترحمنى فاني لك محب »
وقال : العرس في الدار الآخرة ، اشارة الى انه لا يفكر في الاعراس التي
تنعقد على هذا السطح الترابي للارض ..

وبدأت الكلمات التي تربط الزهد بالحب تطفو على سطح الحياة ..

وقال القائل : « والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » ..

ولم يعد الخوف من الله تعالى هو الذي يحكم قلوب الزهاد والصوفية ،
ولا صارت الرغبة في الجنة أو الخوف من النار هو السر في التقوى ..
صار الحياء من الله تعالى وجهه حبا خالصا لوجهه هو المسيطر على
القلوب .. ودخل الزهد في مياه التصوف بهذه العاطفة القوية ..

وبدأت بحار الحب عند الصوفية تستكمل شكلها من أمطار الزاهدين
القدامى ودموع الخائفين .

ومع القرن الثالث للهجرة .. كان الاحساس بالاسلام قد صار
احساسا معقدا مركبا كما تقول بلغة الفن ..

لم يعد هو الطاقة الدافعة المؤثرة التي تستولى ببدايتها على الروح ،
انما صار مؤسسات تلاحت مع الواقع بثقافته المختلفة ورؤاه المتنوعة
.. وكان بحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغ الشفافية والصفاء ،
ورغم عمقه العظيم ، كانت العين تستبين في قامة المسك ولآلىء المهارات ..
ولم يكن ممكنا ان يفرق احد في هذا البحر ، بعد ان ابلغ رسول الله صلى
الله عليه وسلم رسالة الله ، وصار القرآن الكريم هو سفينة نوح التي
ينجو من يلوذ بها ، ولا يخشى اللأند بها من امواج العواصف او امواج

الزمن ..

ولم يكد هلال القرن الثالث الهجرى يستكمل استدارة القمر حتى كان الوضع قد تغير ..

لم يعد بحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يكشف عن قاع المسك ولآلىء المحارات ، قد أريقت في هذا البحر الكريم دماء أهل بيته ، وتصاعد ريع المسك من دم الشهداء المراق ، واخترع الحب الذى ينقصه النضوج كلما كثيرا سب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منه برىء ..

ومن الطبيعى أن حركة الوضع فى السنة ، أو الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونسبة الاحاديث اليه ، شطت مع شاط الفتنه وانقسام الفرق واقتتال المقاتلين ، ومن المدهش ان الحديث المتواتر عن رسول الله هو الحديث الذى يقول فيه .

- من كذب على عامدا متعمدا فليتبوا مقعده من النار ..

ورغم هذا النص الحاسم الذى يتوعد الكاذبين على الرسول ، فقد نشطت حركة الكذب ووضع الاحاديث ، كما كان الناس اذا استحسنوا قولا نسبوه للرسول ، كما كان الوعاظ يحكون الحكايات الطويلة المؤثرة ذات المضمون الوعظى وينسبونها للرسول ، وزاد ركام الاحاديث المنسوبة للرسول .

وشط اليهود الذين اعتنقوا الاسلام الى وضع الحوادث والاساطير والحكايات الخرافية التى عرفت باسم الاسرائيليات وكان هدفها تحطيم الاسلام من داخله كقنابل الأعماق ، وراحت كل فرقة تأخذ من هذا الركام ما يتفق مع أغراضها ..

ومع القرن الثانى للهجرة كانت كلمة الزهد قد صعدت لبؤرة الشعور ، ومن القريب ان هذه الكلمة لم ترد فى القرآن الكريم غير مرة واحدة فى قصة يوسف عليه السلام فى قوله تعالى « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » .. وليس لها هنا كما يقول بيكولسون أى معنى صوفى . وانما هى مستعملة فى معام اللوم والتأنيب ، ولكن كلمة النسل وهى اقدم من كلمة الزهد . وردت فى القرآن فى قوله

تعالى « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » سورة المزل . والمراد بها نوع من أنواع العبادة التي أمر بها الله ، كما أن السباحة في الأرض وردت في القرآن الكريم لقوله تعالى « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف » سورة التوبة . .

أيضا وقف القرآن الكريم ضد الرهبانية ، ووصفها بأنها بدعة ابتدعتها المسيحية . . قال تعالى « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله » . .

أيضا صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الإسلام يخلو من الرهبانية « لا رهبانية في الإسلام » .

ويخطيء نيكولسون حين يتصور أن في المسلمين الأوائل من سلك هذا الطريق ، ويحتج بما جمعه جولدسهر من طائفة من الأمثلة على نماذج كانت معاصرة للنبي أو قريبة من زمنه ، عرفوا بالتكفير عن معاصيهم بهذه الطرق . .

من هؤلاء بهلول بن ذؤيب الذي خرج إلى جبل بجوار المدينة ، ولبس لباس الشعر الخشن وربط يديه خلف ظهره بسلاسل من حديد وجعل يصيح « يا رب » انظر إلى بهلول يرسف في الأغلال . .

وكذلك أبو لبابة حين ندم على خيانة ارتكبها ، فقد ربط نفسه إلى عمود في مسجد المدينة وبقي على هذه الحال حتى ايقن أن الله غفر له ، وهناك أنواع أخرى من أساليب الندم والتوبة كانت متصلة بشعائر الحج إلى البيت الحرام ، فكثيرا ما ذهب الحجاج إلى مكة مشاة حفاة الأقدام ، أو طافوا بالكعبة وهم مقودون كالجمال بحلقات في أنوفهم ، وقد سمعنا بحجاج قطعوا على أنفسهم عهد الصمت وأن أبا بكر أبطل هذه العبادة واعتبرها من أعمال الجاهلية .

هذا ما يسوقه نيكولسون في الدلالة على وجود الزهاد في العصر النبوي ، وليس هذا التصور فهما سليما لما حدث ، فإن هذه النماذج القليلة التي أوردها المستشرقان لم تكن نماذج للزهد ، وإنما كانت نماذج للندم النابع من معصية مؤقتة ، وكان يزول بزوال أسبابه ، ولم يكن الرسول يتدخل فيه لمعرفته صلى الله عليه وسلم أن هذا ندم مؤقت

سرعان ما يزول بقبول التوبة ، وليس زهدا منظما له طقوس وتقاليد ،
وليس رهبانية لها قوانينها الحاكمة ..

.....

ثمة سؤال يطرح نفسه هنا ..

إذا كان هذا الندم البالغ الذى يأخذ شكل تعذيب النفس ليس هو
الزهد الذى جاء به الاسلام .

فما هى نوعية الزهد الذى حمله الاسلام كعقيدة .. إذا سلمنا جدلا
بان الاسلام حمل الزهد فى ثنياته كعقيدة ..

.....

سنبدأ برأى الاستشراق أولا .. ثم نعرض لرأى أحد الدارسين
العرب ثم نقول ما نعتقد انه وجه الصواب فى الرايين ..

يقول نيكولسون فى كتابه « التصوف الاسلامى وتاريخه » ..

انفرد القرن الأول فى الاسلام بالموامل الكثيرة التى شجعت على ظهور
الزهد وانتشاره ، فالحروب الاهلية الطويلة الدامية التى وقعت فى عهد
الصحابه وبنى امية ، والتطرف العنيف فى الاحزاب السياسية ، وازدياد
التراخي والاستهانة فى المسائل الخلقية ، وما عاناه المسلمون من عسف
الحكام والمستبدين الذين يملون ارادتهم وآراءهم الدينية على خيرهم ممن
اخلصوا فى الاسلام ورفض هؤلاء الحكام علانية كل فكرة تتصل بالخلافة
الدينية « الشيوقراطية » التى حاول المسلمون ارجاعها ، كل هذه عوامل
حركت فى نفوس الناس الزهد فى الدنيا ومتاعها ، وحولت انظارهم نحو
الآخرة ووضعت آمالهم فيها ، ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية عنيفة ،
وانتشرت على مر الايام ، فكانت زهدا دينيا خالصا فى بادىء الامر ، ثم
دخل اليها بالتدريج بعض العناصر الصوفية حتى تحولت فى النهاية الى
اقدم صورة نعرفها للتصوف الاسلامى ، وظلت هذه الحركة تحمل طابع
مذهب اهل السنة الدقيق طيلة حكم بنى امية ، اى نحو من قرن من
الزمان .. وكان القائمون بها من اشهر انقياء المسلمين ، بل كان كثير منهم

من القراء واهل الحديث وعلماء الدين ، ومن هؤلاء جميعا استمدت قوتها وشبابها ، واشهر شخصية في الزهد نمثل روح العصر الذي نتكلم عنه هو المتكلم المعروف الحسن البصري (نوى ١١٠ هجرية) ، والذي يعتبر مؤسساً لمدرسة البصرة في الزهد والتصوف .. وتدل اقواله واقوال غيره من اوائل المسلمين بوجه عام ، دلالة لا تدع مجالاً للشك على ان العوامل التي دفعتهم للزهد هي :

اولا : الرعب الذي القاه القرآن في قلوبهم من هول يوم القيامة وعذاب النار ..

ثانيا : ما استولى على نفوسهم من الغم والحزن لشعورهم بالمعاصي ، مما دعاهم الى قضاء حياتهم في التوبة والاستغفار .

قال سفيان الثوري (متوفى سنة ١٦١ هجرية) ما اطاق احد العبادة ولا قوى عليها الا بشدة الخوف ..

انتهى رأى بيكولسون . وهو رأى يوافقه على اسبابه .. ولكننا نرى نتيجة مضطربة اعظم الاضطراب متهافئة اشد التهافت ..

ان الرجل يورد اسباباً حقيقية يستمدّها بامانة من المحيط الخارجى الذى احاط بالاسلام ، ولكنه يقفز - فى الظلام الى نتيجة مفاجئة ، فىرى ان هناك دلالة لا تدع مجالاً للشك فى سببين نشأ منهما الزهد .. هما .

١ - الرعب الذى القاه القرآن فى قلوبهم من هول يوم القيامة .

٢ - ما استولى على نفوسهم من الغم والحزن لشعورهم بالمعاصي ..

وهذان السببان داخليان تماما . ولا علاقة لهما بظروف الاسلام الخارجية ..

ولقد اخطأ المستشرق حين تصور ان القرآن يلقي الرعب فى قلوب المسلمين . كما انه اخطأ حين تصور ان الغم والحزن نتجا من تمزق المسلمين بين رعب التخويف وسوء الحال ..

ان هذا التصور الاستشراقى يجعل القرآن اداة قمع لقوى الانسان وطموحه ، ويجعله سلاسل تكبل انطلاقه ..

وهذا التصور ليس صحيحا لحسن الحظ ..

ان القرآن - بكل آياته المرعبة التي تخوف من عذاب النار - ليس موجها الى المسلمين ، انما هو موجه للكافرين ، وليس للمسلم الموحد بالله ان يخشى النار ، لانه ليس مقصودا بها ، كما ان القرآن لا ينشئ في نفوس من يقرؤه أى غم أو حزن ، بل لعله ينشئ عكس ذلك تماما ، ولو كان صحيحا ما يذكره المستشرق من تكبيل القرآن للمسلمين وتخويفه لهم ، ما انتشر الاسلام بالسرعة التي انتشر بها ، ولما اخضع له الحضارتين الكبيرتين في هذا الزمان البعيد .. ان القرآن صنع للمسلمين أجنحة من الأمل والاشراق طاروا بها في سماء الحياة ، على حين قعدت بقية المبادئ بأصحابها وأخلدت بهم الى الأرض .. ولم يكن القرآن يحمل الى النفوس دفعات من الغم والحزن نتيجة الشعور بالمعاصي ، لأن الله تبارك وتعالى نص في القرآن الكريم على قبول توبة التائبين ، كما نص على أن الله تعالى « يغفر الذنوب جميعا » ، كما نص على أن الله عز وجل « لا يغفر ان يشرك به » ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » كما نصت أصول العقيدة الاسلامية على أن الاسلام يجب ما قبله ، ويلغى تماما كل شرك أو كفر كانا قبله ..

من أين يجيء الغم والهم اذا ، ومن أين يأتى هذا الرعب الذى يزعم نيكولسون أن القرآن القناه في القلوب ..

وى بيان حب الكافرين او المشركين لعقائدهم ومبادئهم . اشار القرآن الى حقيقة جوهرية غابت عن العالم الباحث ..

قال تعالى « والذين آمنوا اشد حبا لله » ..

وقال تعالى في بيان حقيقة الصلة بين المسلمين الموحدين بالله وخالقهم الأعز الأكرم « يحبهم ويحبونه » ..

فاشار سبحانه وتعالى الى أن حقيقة الصلة بالله هي الحب .. لا الفهر .. وهي الأكرام .. لا الخوف ..

وعقيدة هذا شأنها لا تحمل رعبا ولا هما ولا غما ..

.....

ولننظر الآن في رأى أحد الباحثين من العرب .. يقول الدكتور كامل

الشيبي في التفرقة بين زهد الاسلام الاول والزهد المنظم الذي نادى به زهاد الكوفة والبصرة والشام وصار مقدمة للتصوف . .

سنرى أن الاسلام كان من اصول الزهد الاولى ، ذلك أن الاسلام قد جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرتفع بمستوى الاجراء والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحية ، وقد كان صبغ الاسلام دعوته بالزهد والتقشف هو العلامة المميزة له عن النظام القرشي في مكة والشعار الذي يلتف بمقتضاه الضعفاء والمحرومون والعبيد حول النبي ويدخلون في دين الله أفواجا . ذلك أن الاسلام لم يكن منجما من الذهب ولم يكن شركة لها اموال وتجارة ، وانما كان دعوة تهدف الى اقرار مثل من الصدالة والمساواة لم تكن موجودة ، ولو استندت الدعوة الى النظام السائد واشبهته ما راينا المستضعفين والفقراء والعبيد انصارا له ، ولكان حركة انقلاب يقصد بها الاستيلاء على السلطة ، ولهذا عجزت قريش عن تحطيم الاسلام المكي ، وكانت مقاومته محاطة بالاشواك . وقد كان الزهد الذي اصطبغ به الاسلام مانعا لارستقراطية قريش من الدخول فيه وتقويضه ، فقد كانت ضريبة دخول الفنى في الدعوة ان يخرج عن امواله وان يساوى زملاءه في الفقر ، والأمثلة على نزول المسلمين الصادقي الايمان عن ثرواتهم مشهورة ، وهذا أبو بكر وعثمان من الأمثلة الناصعة على ذلك ، ولعله ليس من الغريب ان نجد حركة الزهد فيما بعد تعكس لنا هذه الصورة ذاتها بنزول محمد بن سيوقة الزاهد مولى بجيلة ، عن مائة وعشرين ألف درهم من امواله ليدفع بها البلاء عن اهل الكوفة . . وبهذا يتبين لنا ان الزهد صورة اصيلة من صور الاسلام ، وفقرة هامة في منهجه التطبيقي ، اريد به نزول القادة الى مستوى الفقراء لجمعهم وكسب عطفهم وحماسهم ، فاصطبغ زهد الاسلام بصفات الداخلين فيه من الفقراء والعبيد ، فكان المسلمون الاولون وحتى خلفاءهم يلبسون اللباس الخشن ويتناولون الطعام البسيط ولم يكن ذلك منهم نوعا من العبادة الزائدة او شيئا مضافا الى الايمان المتميز ، وانما كان من طبيعة الاسلام التي دخلت نفوسهم وتقمصتها .

ولعل ابداع مثال ضرب للتدليل على هذه الحقيقة ما اورده أبو طالب

المكى من انه « لما جاء عبد الله بن عامر بن ربعة في بزته الى ابي ذر رضى الله عنه وسأله عن الزهد وأخذ يتكلم فيه جعل ابو ذر يضرب به في كفه ثم أعرض عنه ولم يكلمه ، فغضب ابن عامر وكان قرشيا شريفا وشكاه الى ابن عمر رضى الله عنه فقال له : هذا ما فعلته بنفسك ، تأتى الى ابي ذر في هذه الثياب وتسأله عن الزهد .

وهكذا اوضحت صراحة ابي ذر معنى الزهد وحكت لنا قصته الحقيقية واوضحت حقيقة المبسين بالاسلام من الارستقراطيين القدامى الذين جاء الاسلام لمحقهم » .

انتهى كلام الدكتور الشيبى ، ورغم ان فيه جزءا كبيرا من الصحة ، الا اننا لا نستطيع موافقته على النتائج القاطعة التى ينتهى اليها دون معاودة الروية ..

ليس صحيحا ان الاسلام جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرتفع بمستوى الاجراء والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحية .

الصحيح ان الاسلام كان دعوة حضارية لتصحيح صورة البشر عن الله عز وجل .. وكان رسالة الهية ترسم للبشر طريق الخلاص الروحي والاجتماعى ، واذا كانت الارستقراطية القرشية ستقف ضده ، فالدُّب ذئبا انها تقف ضد حضارة الانسان المؤيدة من الله ..

لكن الاسلام لم يأت ليمحق اغنياء مكة او الارستقراطية القرشية ، بهذا المفهوم الضيق يتحول الاسلام الى ثورة تشبه ثورات الاشتراكية التى يقوم بها الفقراء ضد الاغنياء مدفوعين - ومعهم كل الحق - بدوافع اقتصادية . نحن نرفض هذا التفسير الاقتصادي لنزول الاسلام ، كما نرفضه لتفسير زهد المسلمين ، كما نرفض تفسير المستشرق النفسى الخاطيء لزهد المسلمين ، ونرى ان الاسلام لم ينزل لضرب اغنياء مكة او الارستقراطية التجارية فيها ، فهؤلاء كانت تكفيهم ثورة يقوم بها الفقراء والجياع ، ولا يستلزم القضاء عليهم ان ينزل الله تبارك وتعالى رسالة هى آخر رسالاته الى البشر ، هذا تضيق لنطاق الاسلام وحصر لميدانه .

ايضا لم تكن ضريبة الدخول فى الاسلام ان ينزل الفنى عن امواله

ويخرج من ثرائه ، لم يكن هذا النزول عن الثروة شرطا للدخول في الاسلام ، انما كان نتيجة تترتب على فهم حقيقة الاسلام . و الفرق بين المعنيين بعيد ، لان القهر متصور في الحالة الاولى ، بينما الحب هو الدافع في الحالة الثانية . ايضا لم يكن نزول قادة الاسلام الى مستوى الفقراء لجمعهم وكسب عطفهم وحماسهم كما يقول الدكتور الشيبى ، انما كان نزول القادة لمستوى الفقراء حياء من الله تعالى ورغبة في كسب رضائه سبحانه ..

لم يكن الزهد في الاسلام تكتيكا يقصد به ضرب مجموعة من الاغنياء ، كما لم يكن تكتيكا الفرض منه اقناع الفقراء باننا منكم ومعكم ، انما كان الزهد في الاسلام جوهر اساسه الحياء من الله تعالى .. فلا يأكل المسلم وجواره مسلم جائع ..

ولا يرتدى المسلم ثيابا ثمينة وجواره مسلم عار اما الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله من المسلمين .. اما هؤلاء فقد وردت في حقهم آيات تسلكهم مع الكافرين وتجعل لهم امتيازاً اُرهب في العذاب .. فان الذهب والفضة التي ادخرت ولم تنفق في سبيل الله ، قد تحولت يوم القيامة الى هذا الفيب المروع الذي يطلعنا عليه الحق ..

قال تعالى :

« والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون » .

.....

نفهم من هذا ان اكتناز الذهب والفضة ليس من طبيعة المسلم .. لانه وقف لنمو المجتمع الاسلامى وحبس للمال الذى هو ملك الله تعالى وعدم انفاقه في خير المسلمين . وليس هذا من قيم المسلم ..

الزهد اذا طبيعة وجوهر من جواهر الاسلام .. ولكنه ليس هو الاصل المنشئ لنزول الاسلام ، انما هو عنصر داخلى من عناصر القيم في

هذا الدين ، وهو عنصر ظهر في بداية الاسلام ظهوره الطبيعي ، وكان جمالا يضاف الى جلال الاسلام ، فلما انحرف المسلمون كان طبيعيا ان ينحرف الزهد ويولد في شكله الفني الجديد الذي نعرفه باسم التصوف .

كان انحراف الزهد عن طريقه وسيره في طريق التصوف مسألة طبيعية اقتضتها مشرات العوامل المختلفة ..

كما كان الطريق الجديد ممهدا لهذا التحول .. وبغض النظر عن الظروف الموضوعية التي ساهمت في ميلاد التصوف ، فهناك ظروف شخصية كانت تكفي وحدها لميلاده .. هذه الظروف هي اختلاف مشاعر الخلق وطباعهم لقد خلق الله تعالى وجوه الخلق وليس فيها وجه يشبه الآخر ، وصور النفوس اشد تنوعا من صور الوجوه . نحن نعرف ان الله تبارك وتعالى لم يخلق الناس سواء في العقول او المشاعر او القلوب او الاحساس بالاشياء ..

نعرف ان الله تبارك وتعالى لم يخلق انسانا يشبه انسانا آخر في تكوينه النفسي او أسلوبه في الاحساس ..

صحيح ان بين الناس اشياء عديدة مشتركة ، لكن الحس الداخلي يختلف من انسان الى آخر ..

في الناس المعتدل .. وفيهم المتطرف ..

وفي الناس من ينمو عقله الفلسفي ، وفيهم من ينمو وجدانه الروحي ، وفي الناس ذو الطبيعة السوية ، وفيهم ذو الطبيعة الفنية ، وتطلعنا الدراسات الحديثة في تكوين الفنانين على أنهم من طينة تختلف كل الاختلاف عن طينة البشر العاديين ، ان الاعتدال الذي يميز الانسان السوي او العادي يخلق الفنان ، وعلى حين يؤمن الانسان العادي بالحياة الوسطية المعتدلة ويعتقد ان خير الامور الوسط ، يرى الفنان ان المتطرف مبدؤه ، وهو لا يفعل ذلك افتعالا والا كان كاذبا ، والاصح انه يولد بهذه الطبيعة التي تظهر نتيجة الثقافة وقوى البيئة ..

والى جوار الانفعالات العنيفة التي تشتعل في روح الفنان ، يملك

الفنان رؤية تختلف عادة عن رؤية الإنسان العادي . ويملك الفنان هذه القدرة على الانتقال من أقصى اليمين الى أقصى اليسار دون جهد . ويختار الفنان دائما أن يحيا في قلب الغلو ، والمبالغة ، والاضطراب ، والقلق .. وهو مسير في اختياره لأن قوى داخلية تختار له وتفرض عليه .. ولو ركزت حياة الفنان واستقر وعثر على الجنة فانه ينتهي كفنان .. ولعل الفرق بين الفنان ورجل الشريعة هو الفرق بين رابعة العدوية مثلا وفقهه مثل أحمد بن حنبل ..

كان أحمد بن حنبل في محنته خلال السجن يتسم برضا ويحس بالرضا .. وحين اشفق عليه بعض تلاميذه وحدثوه ان يصبر على عذاب السجن قال « انا جنتي في صدري » .

وحدد بكلمته الوجيزة الفرق بينه وبين غيره ..

ان أحمد بن حنبل يحمل جنته في صدره .. انه رجل يعيش في جنة الرضا عن الله ، وليس يعنيه أن يوضع في السجن أو في قصر .. فهو في الجنة سواء وضعوه في قلب النعيم أو قلب العذاب .

هذه الطبيعة المستقرة الراسخة العارفة ، ليست طبيعة فنية .. لقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن الشعراء ، وهم رمز للفنانيين ، والاشارة اليهم لم ترد في القرآن الكريم صدفة أو اتفاقا . انما وردت لحكمة .. كان الله تبارك وتعالى ينفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة الشعر « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » يريد الحق تبارك وتعالى ان يقول ان الشعر موهبة يعلمها الله لبعض عباده ، ولم يكن الرسول - بما وهب من نبوة - في حاجة لهذه الموهبة الاقل .. ايضا لم يكن من المصلحة ان يكون في النبوة أي اثر لموهبة الفن ، لان الفن أو الشعر هيام بين الأودية « ألم تر انهم في كل واد يهيمون » والأودية كما اتفقنا ليست اودية مادية ، انما تنطبق على القلق المتصل بالمكان ، كما تنطبق على القلق المتصل بالزمان والأفكار ..

ولقد حدد الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم طبيعة الشعراء والفنانيين عموما ، وبين خصائصها الجوهرية التي لا تتفق مع النبوة ،

وانكر ان يكون النبی شاعرا او يعلم الشعر او علمه الله الشعر .

النبوة افق اعلى من كل الافاق ..

النبوة فوق كل تصور بشرى ، فهي اصطفاء من الله تعالى ، وحفظ من الله تعالى ، وعصمة من الله تعالى ؛ واختيار من الله تعالى ..

والنبي بشر .. ولكنه المثل الاعلى للبشر ..

وليس كل البشر انبياء ..

وفهم النبي للعقيدة الاسلامية هو الفهم اللائق بجلال النبوة ..

وليس كل البشر انبياء كما تقول ..

واذا .. فمن الطبيعي ان يختلف فهم البشر العاديين للعقيدة عن فهم النبي ..

ومن الطبيعي حين يلتقى الاسلام بانسان يملك طبيعة فنية ، من الطبيعي لهذا الفنان ان يفهم الاسلام فهما يختلف فيه عن فهم النبي ، وربما غلا بعض الشيء ، وربما بالغ بعض الشيء ، وربما كانت له رؤياه الخاصة التي تختلف عن رؤية غيره ..

لهذا كله نحسب ان التصوف كان سينشأ لأسباب شخصية وبشرية حتى ولو لم تساعده الأسباب الموضوعية في المجال الاجتماعي ..

وليست مصادفة بحتة ان معظم الصوفية شعراء وكتاب ، ليست هذه مصادفة ..

انما تشير هذه الحقيقة الى حقيقة اخطر .. وهي ان معظم الصوفية فنانون .. او اصحاب طبيعة فنية ، وفيهم من كان يستسلم لفنه ، وفيهم من كان يلزم فنه بأصول الكتاب والسنة ..

ومن هنا جاء اختلافهم ..

اذا سلمنا بذلك ، فسوف نفهم كثيرا جدا من تناقضات الصوفية ومبالغاتهم ، فان التناقض جزء من طبيعة الفن .. وجزء من تكوين الفنان

تأمل قوله تعالى من الشعراء « وانهم يقولون مالا يفعلون » ..

ان هذه الآية الكريمة ليست انتقاصا من الشعراء أو سباً لهم ، انما هي كشف لهذا التناقض الذى هو جزء من الطبيعة الفنية ..

والشعر اداة من ادوات التعبير ، والاداة لا توصف بالخير أو الشر ، انما يتعلق الخير والشر بما يفصح به الروح الانسانى خلال استخدامه للأداة .. وهناك شعراء قالوا بالحكمة كلها فى بيت واحد من الشعر. كما صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اصدق بيت قالته العرب قول لبيد .

« الا كل شيء ما خلا الله باطل » ..

وهناك بالمثل شعراء حاربوا الاسلام ووقفوا ضده ، والعبرة بما يقوله الشاعر وما يفعله ..

نريد ان نخلص الى الحقيقة التالية ..

ان معظم الصوفية فنانون ..

نقول معظم الصوفية ، ولا نطلق الكلام ليستوعب الجميع ..

ومعظم الصوفية ذوو طبيعة فنية ..

ومعظم التراث الصوفى ادب من ارقى انواع الآدب وارفعه .. بكافة المقاييس النقدية القديمة والحديثة ، وسواء عرضنا هذا الآدب على نقاد العصور القديمة او نقاد القرن العشرين ..

وتحسب ان هذا الراى الجديد فى مجال الدراسات الصوفية يمكن ان يصطدم بعقبات شتى .

وربما كانت هذه العقبات صادرة من هذه الهالات المقدسة التى أضفاها الزمن على مشايخ الصوفية وكراماتهم ..

ولكننا لا نعرف هالات مقدسة حول احد من رجال الاسلام .. واشرف خلق الله واكرمهم عليه هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

والتراب الذى يسير عليه النبى صلى الله عليه وسلم على راسى ، ودمى
كله فداء قطرة من عرقه .. ولكنه ليس مقدسا ..

كانت عظمة النبى صلى الله عليه وسلم أنه أفهمنا ان القداسة
الوحيدة لا تنصرف الا لله عز وجل .. ولا تقال الا عن الله عز وجل ، فهو
القدوس سبحانه ، وهو المقدس المتعالى وحده ..

وثمة فرق هائل بين الخالق والانسان ..

ولا قداسة لاحد من رجال الاسلام ..

فكلهم بشر يصيب ويخطئ .. وفيهم من يملك طبيعة مترنة عاقلة
وفيه من يملك طبيعة فنية متوهجة ..

وفى الصوفية من كان يملك هذه الطبيعة الفنية .

وسوف نحاول خلال تعرضنا للصوفية وآثارهم ، ان نبين هذه
الطبيعة الفنية ، سواء فى أسلوب حياتهم او ابداع عقولهم من الادب
والشعر ..

كما سنحاول أيضا ان نقول .. متى يبدأ الفن ومتى ينتهى فى كلام
الصوفية ؟ ومتى يبدأ الدين ومتى ينتهى فى كلام الصوفية ؟

ونسأل الله تبارك وتعالى ان يوفقنا الى النجاة فى هذا البحر الذى
ننوى خوضه ..

.....

لنبدا برابعة العلوية

بحر رابعة العدوية ..

امراة .. صوفية ..

ليست مفاجأة ان نعر على امراة صوفية ؟

ليست مفاجأة اذا كنا نعرف طبيعة الاسلام ، فان الاسلام دين النوع
البشرى كله ، وليس النوع البشرى قاصرا على الرجال دون النساء ،
كما ان المواهب التى وزعها الله تبارك وتعالى لم توزع على الرجال دون

النساء ..

كانت رابعة العدوية امرأة تملك طبيعة فنية مرهفة ..

وكانت لها رؤية خاصة في جوهر العبادة .. وكانت الى جوار ذلك من الفنانين المثاليين رغم حياتها التي كانت في جزء منها لا تنتمي للمثالية .
وسنرى هذا كله في تاريخ حياتها المليء ..

**و اول ما نحب ان نلفت اليه النظر .. رؤاها الخاصة للشخصية
الالهية ..**

الشخصية الالهية مسألة اهتم بها المسيحيون اهتماما اكبر من اهتمام المسلمين .. هذا رأى نيكولسون .. وهو رأى صحيح اذا نظرنا للقرنين الاولين بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن هذا الرأى لا يثبت للصحة فيما تلا ذلك من قرون ، فقد كان موضوع التصوف هو البحث في الشخصية الالهية ، بل ان علم الكلام قبل التصوف انصرف الى هذا البحث ، ونقصد بمعنى الشخصية هنا القدرة على الاتصال ..

يقول وب في كتابه الشهير « الله والشخصية » : « اتنا لا نصف الله بالشخصية الا اذا تصورنا امكان وجود صلات شخصية بينة ، من حيث هو معبود ، وبين الانسان من حيث هو عابد ، وان هذه الصلات الشخصية يمتنع وجودها اذا بولغ في جانب تنزيه المعبود أو بولغ في جانب تشبيهه وتجسيده » ..

ولقد اعتنق نيكولسون هذا الرأى ، وان تحفظ عليه بقوله انه لا يظن ان هذا يقنع علماء الكلام من المسلمين ، لان العقيدة الاسلامية تنص صراحة على ان الله تعالى مخالف للحوادث ..

ولست ارى في رأى نيكولسون أو رأى وب ما يصعب الاقتناع به ، ان الرأى يسلم كل السلامة .. اذ تؤيده آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن تنزيه الله « ليس كمثله شيء .. » وتتحدث في نفس الوقت عن سمعه سبحانه وبصره تعالى .. « وهو السميع البصير » ..

الصورة التي يقدمها القرآن لله عز وجل صورة ولا صورة ..

نعرف من القرآن أن الله تعالى يسمع ويرى « أسمع وأرى »
ونعرف أن « يد الله فوق أيديهم » .. ونعرف أنه « وما رميت إذ رميت
ولكن الله رمى » ونعرف أن الله يخالف الحوادث « ليس كمثله شيء » ..
ويحدثنا كبار العارفين بالله عن الله فيقولون :

« كل ما دار في وهمك ، وتصوره عقلك ، واستشرف إليه خيالك ..
فالله غير ذلك » ..

سبحانه وتعالى ..

كلمتان من كلمات التنزيه والتقديس يسوقهما المسلم إذا أراد أن
يتصور الله تعالى أو يتحدث عنه .. .

ولقد أصاب المستشرق « وب » حين كتب أن الإسلام يميل إلى
تصوير العلاقة الشخصية بين الله والإنسان بصورة العلاقة بين السيد
الذي لا مرد لأمره وبين عبده ..

أصاب تماما في هذه وإن أخطاه التوفيق فيما بنى على ذلك من
نتائج ، يستوى في ذلك حسن نيته ..

نريد أن نقول أن صورة تعالى والسيادة وصورة العبودية والخضوع
.. هما حقيقة الصلة بين الرب الخالق الأحد ، والعبد المخلوق الخاضع
.. هذه هي حقيقة العلاقة بين الله والإنسان في عمق الإسلام والقرآن ..
ورغم عظيمة الله وحقارة الإنسان — بالقياس إلى هذه العظمة الالهية ..

رغم تعالى الله وتقديسه وتدنى الإنسان وبؤسه وضعفه وأخطائه رغم
هذا كله ، لم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يترك الإنسان قائما في موضع
الرهبة والخشاة والخوف ..

انما سمي الله تعالى نفسه « الودود » ..

وهي كلمة نحب أن يتأملها القارئ ويقف عندها طويلا طويلا ..

ان الود هو أصفى ما في الحب ..

وتسمية الله تعالى نفسه بالودود إشارة رحيمة لخلقه . وهو سماح

لهذا الخلق ان يحبوه ..

ولقد كان الصوفية اول من فتحوا هذا الباب ..

كانت رابعة العدوية اول من استعمل - بغير تهيب - كلمة الحب في العشق الالهى ..

واليها تنسب الابيات الشعرية التى تقول :

احبك حين حب الهوى وحب لانك اهل لذاكا

ان الشطر الاول من البيت يقول انها تحب الله حب الهوى .. نحن امام حب انسانى يتجه الى الله ..

صاحبه امرأة تعدت كثيرا واحبت كثيرا واشتعلت بنار الفن كثيرا وحين فاض بها الشوق صرحت بمشاعرها ، ووضعت هذا التصريح فى قالب من الفن يستطيع الصمود للزمن .. ولقد قالت هذه المرأة كلماتها منذ اكثر من الف سنة ، ورغم بعد المسافة وجدت كلماتها من يغنيها من مغنيات هذا القرن الشهيرات ، ووجدت كلماتها من يهتز لها من جمهور هذه الايام ، يطيب للانسان ان يحس انه يحب خالقه ..

وليس فى هذا الاحساس ما يصطدم بالشريعة الاسلامية او العقيدة الاسلامية ..

ولا باس ان يقف المسلم فى مقام الرهبة او مقام الحب ..

المهم ان يكون فى طريقه الى الله ..

تعدد الطرق فى الارض وتعدد الطرق فى القلوب ، واشرفها الطرق التى توصل الى الله ..

كانت رابعة العدوية هى اول من اخترق مجال الخوف الى مجال الحب ، وهى امرأة من البصرة .

اسمها رابعة واسم ابيها اسماعيل ، والعدوية اسم قبيلتها ، ويقول عنها المستشرق ماسينيون انها كانت فى اول امرها تعزف بالمعازف ، ثم تابت ، وقد خلفت مقطوعات شعرية تعبر عن حدة عشق مؤثرة ، وقضت

حياتها بالبصرة وكأنها مسجونة ، وفي البصرة ماتت بعد ان وصلت الثمانين ، وتركت في الاسلام شدا من ولايتها لا يزال أريجا ..

ويذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه عن رابعة العدوية اننا لا نعلم عن حياتها الاولى شيئا الا عن طريق العطار في تذكرة الاولياء .. ويذكر الدكتور بدوي ان رواية العطار عن طفولتها ونشأتها وخطيئتها قبل التوبة مستفيضة ، ولكنها لا تقبل في عين المؤرخ الا اذا طرحنا منها جانب الخوارق والكرامات ..

ويذكر العطار ان رابعة ولدت في بيت فقير كل الفقر .. فلم يكن لدى ابويها قطرة سمن حتى يدهنوا موضع خلاصها .. وأصل أسرتها غير معروف ، كل ما نعرفه ان الأسرة انتسبت الى آل عتيك ، أما ديانة آبائها قبل الاسلام فمجهولة ايضا .. ولا تدري اكانوا من الفرس أم لا ..

ويفترض الدكتور عبد الرحمن بدوي المصدر المسيحي أصلا لكلامها في الحب الالهي ..

وقصة حياتها انها هامت على وجهها بعد قحط حدث بالبصرة .. هي وأخواتها الثلاث ، فأخذها ظالم وأسرها وباعها لرجل بستة دراهم ، واثقل عليها الرجل العمل فعاشت حياة بالغة العذاب .. واتخذت رابعة مهنة العرف على الناي (لاحظوا الجانب الفني في شخصيتها) ، وكانت هذه المهنة في رأى الدكتور بدوي « من المستحيل ان تستقل بنفسها ، ولا ان تكون بمنجاة من الوان الاغراء » ..

ويخيل الى الدكتور بدوي انها قطعت شوطا طويلا في طريق الاثم ، لانها ثابت بعد ذلك ، وهذه التوبة اصدق دليل على اندفاعها الى ابعد حد في طريق الشهوة .

ويؤكد الدكتور بدوي انها لم تكن معتدلة ، لان الاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين ، أما التطرف فمن شيمة الممتازين الذين يدعون ويخلقون في التاريخ ، لهذا ادعو الى التطرف المطلق كل من يريد ان يكون خالقا للقيم ..

وقد اعترض الدكتور عبد القادر محمود على هذا الحماس غير العلمي

.. ورأى أن هذا الكلام يجوز أن ينطبق على البعض ، ولا يجوز تطبيقه على الكل ، ومهما يكن من أمر فقد كانت رابعة العدوية فنانة في الأصل .. كانت امرأة متاجبة المشاعر ، عنيفة في الاتجاه والاختيار ، متقلبة في حياتها المادية والنفسية على السواء ، أخطأت وانتقادت ثم صحت ذات يوم على التوبة .. ولكنها توبة غريبة ..

إنها لا تبكى خطيئتها في تواضع ، إنما تفخر بحبها لله وهواها له .. وهى تقسم حبها حين ، وتتطلع بهدين الحبين الى الله ..

أحبك حين حب الهوى وحب لأنك أهـل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عن سواكا
وأما الذى أنت أهـل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

اختلف القدماء حول الأبيات الشهيرة التى نسبت لرابعة العدوية . كما اختلف المحدثون حول مضمون الأبيات ، وهل هو مذهب فى الحب الإلهى أم مجرد امتداد لنظرية سابقة .

وجرى نفس الاختلاف على شخصية رابعة العدوية ، فنسب إليها العطار كرامات كثيرة ، وحدثت كثير من الكتب عن الخوارق التى جرت على يديها ..

وفى البداية ..

نحب أن نستبعد موضوع الكرامات والخوارق من مجال البحث لسبب بديهي أننا ندرس فكرها كفكر ، ونحلل أشعارها كأدب صوفي ، ولن يزيد هذا الفكر أو ينقص منه أن تكون لها كرامات أو لا تكون ..

موضوع الكرامات قد يلقي ضوءاً على شخصيتها ، ويبين إلى أى حد لم تسلم شخصيتها من أضواء مسحة أسطورية عليها ، ولكن هذا الموضوع لا يضيف إلى أدبها وفكرها ولا ينقص منه ..

تقول رابعة العدوية :

أحبك حين حب الهوى وحب لأنك أهل لذاكا

تصرح في البداية أنها تحب الله تعالى نوعين من الحب : حب تسميه الهوى .. وحب لأنه سبحانه وتعالى أهل لذلك .

والهوى كلمة مشتقة من اندفاع لا يقاوم نحو شيء .. وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم في دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال :
« فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » ..

والأصل في استخدام الكلمة هو المجال البشرى . واستخدامها في المجال الإلهي هو الجديد الذي يلفت الانتباه ..

تريد رابعة العدوية أن تقول أن حبها البشرى أو قدرتها على الحب البشرى قد تحولت إلى الله عز وجل ، وأضيفت هذه الطاقة إلى الطاقة العادرة على الحب الإلهي ..

الحب مزدوج ..

ثنائي ..

حب بشري كان المفروض أن تصرفه للناس .. ولكنها قدمته لله ..
وحب إلهي الله سبحانه وتعالى أهل له ..

وفي البيت الثاني تشرح رابعة العدوية سر حبها البشرى الذي تحول إلى الله .

وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا

تريد أن تقول أن انشغالها بالذكر .. قد صرفها عن الناس .. ولأنها انصرفت عن الناس ، فقد انكشفت لها الحجب .

وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

إنها ترجع الأمر كله والحمد كله لله تعالى ..

هذه الأبيات الأربعة أثارت جدلا لم يزل ماضيا الى اليوم ، واثارت
عديدا من المناقشات لم تغلق الى اليوم ..

.....

في البداية ، اختلف القدماء حول نسبة الأبيات اليها ..

قال الكلاباذي « توفي سنة ٣٨٠ هجرية » ان هذه الأبيات لمجهول ،
اما الزبيدي فقد نسب الأبيات السابقة لسفيان الثوري . وعبد الواحد
ابن يزيد .. ولم يلتفت الطوسي الا لكرامات رابعة العدوية ، وأهمل
الأبيات ..

ومعنى ذلك ان الأبيات الأربعة التي قيل ان نظريتها في الحب الالهي
تعتمد عليها .. مشكوك في صدورها منها ..

اذا افترضنا ان رابعة هي صاحبة هذه الأبيات .. فهل ينطوى هذا
الشعر على نظرية في الحب الالهي .. أم ان الأمر مجرد كلام في الحب
الالهي ..

اختلف الدارسون والباحثون على هذا الموضوع .. اعتبر الاستاذ
« ماسينيون » - وهو واحد من أكبر المستشرقين الذين كتبوا في
التصوف - ان رابعة العدوية صاحبة نظرية في الحب الالهي ..

انه يقول « وكان تحمسها لحياة الزهد مؤديا الى معالجة احوال
صوفية مختلفة ، والى البحث في فروض دقيقة في العلميات والعقائد »

واختلف معه الاستاذ مصطفى عبد الرازق .. فهو يرى « ان من
التعسف ان ننسب الى رابعة العدوية التصدي لدقائق المسائل الفقهية
والكلامية والصوفية » .

وقد وقع نفس الاختلاف بين الدكتور عبد الرحمن بدوي والدكتور
عبد القادر محمود حول رابعة العدوية ، كتب عنها الدكتور بدوي في
كتابه « شهيدة العشق الالهي » ونقد الكتاب د. عبد القادر محمود ونفى
عنها المسحة الاسطورية التي التصقت بها ..

والمشهور عند كثير من القدماء والمحدثين أن رابعة العدوية هي واضحة مذهب الحب الالهي في التصوف الاسلامي ، وقد بين د. عبد القادر محمود تهافت هذا الرأي ، وذهب الى أنها مجرد امتداد لنظرية الحب الخالص التي تطورت من مدرسة جعفر الصادق ، ويهدي من النص المسيحي .

ولو نظرنا في نقد د. عبد القادر محمود لكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي « شهيدة العشيق » ، فسوف تكتمل أمامنا الصورة الحقيقية لرابعة العدوية .

ربط الدكتور بدوي تجربة رابعة الروحية نحو الله بثلاثة عناصر .

أولها الندم من حياة الشهوات ، وثانيها حضورها مجالس الوعاظ وخاصة الزاهد العالم الحسن البصري ، والواقع أنها لم تلتق به ، وقد هاد الدكتور بدوي فذكر هذا صحيحا ، وثالث العناصر اليأس من الدنيا، ولا شك أنها عاشت مع قول ابراهيم بن ادهم المعاصر لها « الحر من خرج من الدنيا قبل أن يخرج منها » .. ويؤكد الدكتور بدوي أنه لا مقياس لمعرفة تطور توبتها سوى درجة حرارة التضرع من حين الى حين فيما حكاها العطار .

ويعتبر الدكتور بدوي نبرة الضراعة العنيفة دليلا يؤكد أن فترة ضلالها أيام كانت تعزف على الناي لشهوات الجسد هي العامل الأوحـد في تكيف النظرية الصوفية عند رابعة ، وهي النظرة التي تحولت الى حب لذات الله لا طمعا في ثواب أو خوفا من عقاب ..

ونحن مع الدكتور عبد القادر محمود في أن توكيد نبرة الضراعة كمقياس لدى الدكتور بدوي يؤكد لنا عدم كفايته كدليل وحيد في تكيف النظرة الصوفية لدى رابعة .

هذا دليل يحتاج الى حجج قوية من آراء رابعة التي كان ادق ما في تراثها موضع شك في صحة نسبته اليها ، وكان غيره جملا رائعة عن النجوم المنيرة والعيون النائمة ، سوى عين يقظى وقلب ساهر قلق جزوع . فاذا عدنا الى العطار على رغمتنا مرة أخرى ، فاننا نجد أنه يشير مشكلة

لدى « ماسينيون » ، مشكلة يربط فيها بين العلاج ورابعة .

يقول العطار في تذكرة الأولياء ان رابعة العدوية كانت بسبيل الحج ، فرأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء فقالت : لا أريد الكعبة ، بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها .

قام الدكتور بدوى بالتعليق على هذه الحادثة التى يرويها العطار فقال « ليس بمستبعد أن تكون صحيحة » ومن المعروف ان هذا هو رأى العلاج ، وقد كان سببا فى تكفيره ثم صلبه قال العلاج « ان شوقنا الى الله يجب أن يمحو عقليا فى نفوسنا صورة الكعبة ، كيما نجد من أقامها ، وأن نحطم معبد بدننا كيما نبلغ من جاء اليه ليتحدث الى بنى الانسان »

ويمضى الدكتور بدوى فيقول (ولعل هذا قد بلغ أوجه فيما رواه ابن تيمية حين قال « قال على الحريرى ، قيل عن رابعة أنها حجت فقالت هذا « أى البيت الحرام » الصنم المعبود فى الأرض ، وأنه ما ولجّه الله ولا خلا منه » ، يقول الدكتور بدوى « وهذا يؤيد الرواية التى ذكرها العطار ، وفيه من الجرأة فى التعبير قدر هائل يدل على أى مدى بلغه فكر رابعة من جسارة لا نجد لها نظيرا فى هذا القرن ولا القرن الذى يليه عند الصوفية ، فهى ترى ان فى الكعبة صنما ، وفى التبرك بها وثنية ، وليس بين هذا وبين أن تعلن سقوط التكاليف الظاهرية فى الحياة الدنيا الا خطوة واحدة » .

يرى الدكتور عبد القادر محمود أن الدكتور بدوى قد أسرف فى حكمه ، وأعطى لرابعة بمقارنتها بالعلاج مكانا ليس لها ، فبعد ان قال عن حكاية الكعبة التى رأتها رابعة العدوية وهى قادمة نحوها ، أنه ليس بمستبعد ان تكون هذه الحادثة صحيحة ، بعد هذا الفخ الذى وقع فيه الدكتور بدوى ، أجرى المقارنة بين رابعة والعلاج ، وراها أستاذة للعلاج فى أخطر آرائه ، ووقف مع رأى العطار ، وهو ليس مؤرخا ولا عالما ، وكتابه يمتلىء بالاساطير والخرافات ..

ويفسر الدكتور عبد القادر محمود هذا كله بذكر الحقائق التالية ،

توفي العطار سنة ٥٨٦ هجرية ، وهو تلميذ لمدرسة الحلاج المتوفي سنة ٣٠٩ هجرية ، وكل ما كتبه العطار مصدره عصره والعصر الذي قبله ، ولما كانت روايات العطار عن رابعة ، وخاصة في نظرية تحطيم الوثنية في صنم الكعبة لعبادة رب الكعبة ، لما كانت هذه الرواية لم ترد الا مع العطار ، والعطار تلميذ في مدرسة الحلاج ، فمن المؤكد انه خلع عليها شيئا من هذه الرواية او اعطاها نسبا منها ، لأن رابعة من الناحية الموضوعية لا تصل في ثقافتها الى هذه النظرة ، خاصة وأن ادق مانسب اليها في نظرية الحب الخالص مشكوك في صحة نسبته اليها ، وما أورده العطار وغيره من احاديث وقصص عباداتها يؤكد انها كانت لا تنقطع عن الصلاة ، فكيف نقيم لها نظرية او مطلع نظرية في اسقاط التكاليف الشرعية ..

من الصعب ان يكون هذا رأيها .. اما عند الحلاج فهو تخريج لرأى القرامطة الذين أعادوا قصة الفيل في محاولتهم هدم الكعبة في صورة متطورة ..

يقول د. عبد القادر محمود « لو سرنا وراء امثال هذه الروايات التي أوردها العطار وتبعه المستشرقون وغير المستشرقين ، لوجدنا انفسنا ونحن في القرن العشرين وقد عدنا الى عقلية ما قبل القرن العاشر والحادي عشر الميلادي في نظرتنا النقدية غير السليمة .. ولو سائرنا هذا المنطق لجاز لنا ان نقول ان رابعة في نظريتها في الحب الخالص الذي لا يطمع في ثواب او يرهب عقابا تصل بنا لا محالة الى القول بعدم أهمية التكاليف الشرعية التي هي في نظر الوصوليين او العوام سلم الوصول الى الجنة والبعد عن النار ، ولكان من الجائز أن نكفر ونقول انه ليس من الضروري الاعتماد عليها في طريق الوصول ، ولكننا لن نساير هذا المنطق ، ولن نجد وراءه في اعطاء رابعة ما ليس لها وما لا يجوز أن ينسب اليها ، لأن بيئتها الثقافية والاجتماعية والنفسية وحياتها الماضية لا يمكن بحال من الاحوال أن تعطينا امثال هذه الاتجاهات التي اكدها الاستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه الممتاز عن رابعة العدوية ، ونسب اليها ما اعطاه للحلاج في تعليقاته على ما كتبه « ماسينيون » عنه .

.....

القضية اذاً أن الدكتور بدوى يحمل فكر رابعة العدوية ما لا يحتمله .. ويرى انها كانت صاحبة نظرية في الحب الالهى ، وصاحبة رأى في التكاليف الشرعية ، واستاذه للحلاج في اخطر آرائه التى كانت سببا في اتهامه بالكفر وقتله .. ويعتقد الدكتور عبد القادر محمود أن هذا كله غير صحيح ، لأن الدليل على أن رابعة كانت تعتبر الكعبة وثنا ، هو مجرد كلام قيل عنها أو حكى عنها ، وهو كلام لا يصدقه عقل ، مثل أن ترى رابعة الكعبة وهى قادمة نحوها ، فتقول انها لا تريدنا وتريد رب الكعبة ..

ونحن مع رأى الدكتور محمود رغم احترامنا للدكتور بدوى .. فمن الصعب علينا أن نقيم بناء كاملا لنظرية فلسفية على حكاية خرافية حكاهما واحد على لسان رابعة العدوية .. حكاية من الصعب أن تقنع طفلا ..

ان الكعبة بناء مثبت فى الأرض ، فهل يمكن بناء نظرية على أساس أن هذا البناء الثابت قد ذهب يهرول سعيًا نحو امرأة صوفية ؟ ان محاولات هدم الكعبة قديمة ، وهى جزء من محاولات هدم الاسلام ، واذا كان أبرهة قد أبعد حين حاول هدم الكعبة بجيشه الجبار ، فقد ظلت المحاولات مستمرة من أعداء الاسلام ، وليس بمستبعد أن يكون هذا القول مدسوسا على رابعة العدوية ..

القول بأن الكعبة جاءت تمشي ..

والدليل على براءة رابعة من هذا القول ما رواه ابن تيمية عنها .. فالمعروف عن ابن تيمية أنه من أعداء الصوفية ، وقد كان موقفه حاسما فيما رواه العطار عن رابعة العدوية .

قال ابن تيمية « ان رابعة كانت من التقوى بحيث لا يصدر عنها هذا ، ولو قال هذا احد لكان كافرا يستتاب ، فان تاب ، والا قتل ، وهو كذب ، فان البيت لا يعبد به المسلمون ، ولكن يعبدون رب البيت بالطواف به والصلاة فيه ، اما ما نقل من قولها (والله ما ولجته الله ولا خلا منه) فكلام باطل عليها » ..

والحقيقة ان الصورة التي يرسمها الدكتور بدوى لرابعة العدوية ، ليست هي حجمها الحقيقي ، فهو يعتبرها اول من تعرض بالنقد للمفاهيم الحسية التي فهمها العامة لبعض آيات القرآن .. فقد سمعت قارئاً يقرأ قوله تعالى « ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » فقالت مساكين اهل الجنة .. في شغل هم وازواجهم ، ويرى الدكتور بدوى ان لمحرر رابعة قد امتعض من هذا المعنى الحسى ، وهى التى ارتفع عندها معنى الجنة الى أعلى درجات الروحية ، ويعتقد أنها رمت من وراء هذا النقد ، الى الارتفاع بمستوى الحياة الدينية ومعانى القرآن والاسلام الى أعلى درجة من الروحية ..

وفى رأينا ان الدكتور بدوى لم يفهم كلمة رابعة العدوية ، فليس فى الكلمة نقد للمعنى الحسى « استخدم الدكتور بدوى كلمة « المعنى الشهوانى » ... لان الجنة ليست هى الأرض ، والناس حين يعيشون يوم القيامة ويدخلون الجنة لا يدخلونها بنفس حواسهم وشهواتهم الأرضية ، وكل ما ورد عن الجنة فى القرآن غيب ، يتحدث الله تبارك وتعالى عن لحم الطير والازواج والاعناب والنخيل ، ولكن حقيقة هذا كله غيب ، وصلته بما على الأرض من متع هو الآخر غيب ..

ولو صدقنا ان رابعة العدوية يمكن ان تقول عبارتها التى اوردها الدكتور بدوى ، فلا ريب انها تعنى شيئاً يختلف كل الاختلاف عن نقد الحياة الحسية فى الجنة ، لان الحياة فى الجنة غيب مجهول ، واى مسلم يعرف عقيدته يعرف ان فى الجنة نعيم لا يقاس به نعيم الأرض ، اما حقيقة هذا النعيم فمجهولة تماماً ، والمجهول لا يمكن ان يخضع للنقد .. ولا يمكن بالتالى ان تعتبر رابعة العدوية اول ناقدة لنعيم الجنة الحسى .. ويبدو رأى الدكتور بدوى متضارباً حين ينفى عن رابعة محاولات الطعن او الانحراف بالاسلام ، فى نفس الوقت الذى يجعلها فى كتابه جريئة جرأة لا نظير لها فى هذا القرن ولا الذى يليه ، فليس بينها وبين ان تعلن سقوط التكاليف الشرعية الا خطوة واحدة .

برفض الدكتور عبد القادر محمود ، كما يرفض الاستاذ مصطفى عبد الرازق هذه الاسطورة التى يتم بناؤها حول رابعة العدوية .. ويرى

كلاهما أن من التعسف أن ينسب اليها التصدى لمعالجة دقائق المسائل
الفقهية والكلامية والصوفية والنظريات الفلسفية كأستاذة لمدرسة
الحلاج ..

وهذا هو الراى الذى تهذى اليه الأدلة ويستريح اليه العقل ..

ولو افترضنا جدلا انها قالت ما رواه العطار عن حكاية الكعبة التى
شاهدتها تمشى نحوها ..

لو افترضنا جدلا انها قالت انها لا تريد الكعبة ولكنها تريد رب
الكعبة ، فهل يمكن تحميل هذا المعنى على أساس أنه بناء لنظرية جديدة
هدفها إسقاط التكليف ، أم أن الأولى أن يحمل على أنه تعبير فنى
لشاعرة تحمل طبيعة فنية ، أن أقوال الشعراء ليست هى الحقيقة المادية
.. إنما هى تصور الشاعر ورؤياه الخاصة .. وقد أشار القرآن الكريم
الى أن الشعراء يقولون ما لا يفعلون ، بمعنى أنهم لا يصورون الواقع ، ولا
يصفونه ، ويبالغون مبالغات فنية لا يمكن قياسها على الحقيقة ، وهناك
شاعر يقول :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجابر ساجدينا

فهل يصدق أحد أن طفلا فطمته أمه ، يمكن أن تخر له الجابرة
ساجدة !؟

ان الرؤى الشعرية للشعراء لا يمكن قبولها بمنطق الحياة الواقعة ،
إنما هى تعبير عن رؤيا فنية أو رموز لصور أو مشاعر يريد الشاعر التعبير
عنها ..

بهذا المنطق يستقيم الأمر ، وتبدو رابعة العدوية بصورتها الحقيقية ،
شاعرة صوفية وتائية محبة لله عز وجل .. كانت لها آراؤها التى لاتصلح
أن تكون أساسا لمذهب متكامل فى التصوف الإسلامى ..

عاشت رابعة العدوية فى القرن الثانى من الهجرة ، وماتت فى أخريات
هذا القرن ، كما يرجحه أكثر من كتبوا سيرتها ..

وقد كانت في رأى كثير من الدارسين القدامى والمحدثين علامة هامة من علامات الطريق الصوفى .

كتب عنها صاحب كتاب « مرآة الجنان وعبرة اليقظان » .. السيدة الولية ذات المقامات العلية والأحوال السنية ..

ويقول عنها ابن خلكان « كانت من أعيان عصرها وأخبارها في الصلاح مشهورة » ومن المدهش ، أو فلنقل ان من الطبيعي اننا لا نعرف شيئا مؤكدا عن حياة رابعة العدوية ، قبل أن تكون صوفية ، فلم يعن المؤرخون الا بهذا الجانب من حياتها ، وهو الجانب الصوفى ..

ومن المؤكد انها لم تولد صوفية ، لان المرء لا يولد صوفيا ، انما اكتسبت التصوف من طريق تجاربها الروحية ..

وهكذا سلط القدماء الاضواء على حياتها الصوفية ، وبقي الجزء الأعظم من حياتها غارقا في الظلام ..

وفي الظلام عادة تسمى الخرافة .. والاسطورة .. والعجائب .. وهذا ما وقع لرابعة ..

ان ما ينسب اليها من عجائب أشبه بالخرافات منه بالحقيقة ، وقد تداخلت الروايات عن حياتها وتضاربت الأقوال عنها حتى اختلفوا في أبسط تفاصيل الحياة والموت المتعلقة بها ..

ذكر ابن خلكان أن قبرها يزار ، فهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يقال له الطور ، وأتكر ياقوت الحموى أن يكون هذا قبر رابعة العدوية ، وقال ان قبرها بالبصرة ، أما هذا القبر الذى يشير اليه ابن خلكان فهو قبر امرأة أخرى تسمى رابعة ، كانت زوجة أحمد بن أبى الحوارى الكاتب ، وقد اشتبه الأمر على الناس .

امتد الاختلاف الى حياتها ايضا كما امتد لمكان قبرها ..

قيل انها تابت على يد ذى النون المصرى .. فقد كانت تركب سفينة مع جماعة يشربون الخمر فاتفق ركوب ذى النون المصرى (المتوفى ٢٤٥

هجرية (هذه السفينة ، وطلبت رابعة من ذى النون على سبيل التهكم ان يسمعهم شيئا من غنائه كما اسمعوه فأنشد أبياتا ركيكة تابت بعدها رابعة العدوية على يديه ، وقد أنكر المؤرخون هذه القصة لبعدها عن العصرين رابعة وذى النون .. ورجحوا أن تكون القصة موضوعة ومختلقة .. فنحن لا نعرف أن رابعة العدوية زارت مصر ، وإن كانت الاساطير قد ابتدعت لها قبرا بقرافة الامام يزار ويتبرك به ..

الشيء المتواتر عنها أنها كادت تغنى في سفن البصرة وتشرب الخمر ، وقد وقع هذا قبل توبتها ، ويذكر ماسينيون عن رابعة العدوية أن والى البصرة خطبها ، فلما دخل عليها قالت له « يا شهوانى أطلب شهوانية مثلك » ..

يريد أن يقول أن رابعة العدوية أنكرت على والى البصرة رغبته في زواجها لأنها اشتمت منها أثرا من آثار الاشتها ..

والقصة موضوعة ومختلقة ، فلم يكن والى البصرة بالذى يرضى أن يخطب امرأة تغنى في مراكب الخليج وتشرب الخمر ، ولم يكن منطقيا من هذه المرأة أن تنكر الشهوات وهى غارقة فيها لأذنيها ..

نريد أن نقول أن الاساطير والروايات لم تترك رابعة العدوية في حالها، إنما نسجت حولها ركائما من الأحداث ، حتى اختلط الصدق بالكذب ، والحقيقة بالخرافة ، وصار من المتعذر أن نكتشف الحقيقة الموضوعية أو شيئا يقترب من الحقيقة الموضوعية ..

كل ما نعرفه ان حياتها قسمان ..

قسم قبل التوبة .. كانت فيه ما كانه ..

وقسم بعد التوبة .. صارت فيه عاشقة لله عز وجل ..

وقد اخطأ كثير من الباحثين في رابعة العدوية ، رغم أن هؤلاء الباحثين كانوا أصحاب عقول محترمة ..

مثلا .. ذكر الاستاذ ماسينيون عنها أن حماسها لحياة الزهد أدى بها الى معالجة أحوال صوفية مختلفة ، وإلى البحث في فروض دقيقة في العمليات والعقائد ، وبهذا تعتبر رابعة عند الباحثين في أمور الولاية والأولياء أعظم ولية .

وهذا الرأي الذى يراه ماسينيون لا يمكن قبوله على علته ..

وهناك أكثر من سبب لذلك ..

أن التصوف كان في بداية نموه ، ولم يكن معقولا أن تقفز رابعة العدوية فجأة الى معالجة أحوال صوفية مختلفة ، أو البحث في فروض دقيقة في العبادات والعقائد ..

هذا سبب مانع في حد ذاته ...

وثمة سبب أبلغ في الدلالة على المنع ، وهو أن الآثار التى تركتها رابعة العدوية لا تدل مطلقا على أنها عالجت أحوالا صوفية أو بحثت في فروض العقائد والعبادات ..

هذا اعتساف واضح وتحميل كلامها معان ينوء تحت ثقلها ..

ولننظر في أبيات رابعة العدوية التى اشتهرت بها .. « أحبك حين » لنرى هل يمكن أن تحمل هذه الأبيات الشعرية الأربعة مذهبا من مذاهب التصوف ، أو نظرية من نظريات العبادات مثلا ..

تقول هذه الأبيات أن رابعة تحب الله تعالى حين ..

حب الهوى ، أو الحب البشرى ..

وحب آخر لأنه سبحانه أهل لهذا الحب ، يستحقه ابتداء سبحانه .

وتشرح حبها البشرى فتقول لنا أن حبها البشرى هو انشغالها بالله

عمن سواه ..

أما حبها الإلهى لله فتفهمنا أن هذا هو كشف الحجب لها حتى تراه

سبحانه ..

ثم تستطرد في تواضع فتقول إنها لا تحمد على حبها هذا أو ذاك ،

فان الله تعالى هو وحدة المستحق للحمد في ذا وذاكا ..

وتأمل الآيات يطلعنا على حقيقة جوهرية ..

لسنا أمام نوعين من الحب ..

نحن أمام نوع واحد من الحب ، وان كان يأخذ صورتين هما في حقيقتهما صورة واحدة ..

فهى مشفولة بالله عن سواه ..

وهى تقف أمام الحجب المكشوفة لتراه ..

ليس هناك حب بشرى وحب الهى ..

هناك حبها وحده لله ..

الصورة واحدة ، ولكنها على عادة الشعراء تبالغ في تجسيم حبها ، وتراه في مرآة العبقريّة ، فاذا نحن أمام أكثر من صورة لها ..

وليس هناك في الحقيقة غير صورة واحدة ..

ايضا لا تكشف الآيات عن مذهب فلسفى كامل في التصوف ، ولا تكشف عن معالجة فروض دقيقة في أمور العبادات والعقائد ..

انما تكشف الآيات عن وهج عاشقة وشاعرة في ذات الوقت ..

وقد انكر معظم الباحثين المعاصرين رأى ماسينيون كالدكتور مصطفى عبد الرازق والدكتور عبد القادر محمود والدكتور مصطفى الشيبى ..

بل اننا لو تعمقنا البحث فسوف نكتشف ان هذه الآيات ذاتها ، التى يدور حولها الحديث في محاولة لتحديد حقيقة تصوفها ، منسوبة اليها ، يقول الكلاباذى ان هذه الآيات لمجهول ، وليست لرابعة العدوية ، ويذكر الزبيدى ان هذه الآيات الشعرية تنسب لسفيان الثورى كما نسب لعبد الواحد بن زيد ، ومعنى هذا في رأى الدكتور عبد القادر محمود ان الآيات التى تتضمن رأيها في الحب مشكوك في صحة نسبتها اليها ، بدليل شك الكلاباذى ، وعدم التفات الطوسى الى ذلك ..

كل ما يمكن قوله عنها انها كانت اول من استعمل كلمة الحب في
العشق الالهى دون تهيب .. ممتدة على ورود كلمة الحب في القرآن ..
وكان من قبلها يتخرجون من كلمة الحب في هذا المقام ..

وهذا رأى ماسينيون .. وهو رأى نعتقد في وجاهته ، فقد تميزت
رابعة بكلامها في المحبة ..

وكانت من طائفة المسافرين الى ربهم .. كانت من الذين قعدوا على
الحقائق وقعد من سواهم على الرسوم ، وكان عنوان طريقها هو الحب ،
والمحبة دليل على صدق دعواها ..

ولفظه الحب في اللغة العربية تدور حول خمسة معان ..

١ - الصفاء والبياض .. يقول العرب حُبَّ الأسنان اذا ارادوا وصفها
بالبياض والصفاء ..

٢ - العلو والظهور .. ومنه حُبَّ الماء وحبابه وهو ما يعلوه عند المطر
الشديد ..

٣ - اللزوم والثبات ، وفيه يقول العرب حُبَّ البعير وأحب اذا برك
فلم يقم ..

٤ - اللب .. ومنه حبة القلب أى عمقه الداخل ولبه .. ومنه الحبة
الواحدة ومجموعها الحب ، والحبة هى أصل الشيء ومادته وقوامه .

٥ - الحفظ والامساك ، يقول العرب أحب الوعاء الماء أى أمسكه
وحفظه ..

وتعريف الحب عند العرب ينطوى على هذه المعانى الخمسة ..

فالحب عندهم هو صفاء المودة ، وعلو ارادة القلب لتعلقها بالمحبوب ،
وثبات ارادة القلب على المحبوب ، واعطاء المحب محبوبة اشرف ما عنده
وهو الحب او اللب ، وحفظ هذا التوهج على المحبوب ..

هذا رأى ابن قيم الجوزية فى معنى المحبة ومنزلتها من التصوف ..

وعلى أيام رابعة العدوية .. لم يكن التصوف قد خرج من سذاجته الى التعقيد الفلسفى وصار مذاهب أو نظريات .. كان التصوف لم يزل فى بدايته ، وجاءت كلمات رابعة العدوية نقطا مضيئة من النور لا يجمعها خيط واحد سوى هذا الاستيلاء الكامل لفكرة الحب الالهى عليها ..

كانت شأن اى فنانة تشق طريقها فى الصخر ..

وكانت كلماتها تحمل عبق الفن والتوهج .. وتنوء باحزان غامضة كانت هى المناخ العام السائد أيامها فى المجتمع ..

لقد رأينا كيف تحول المسلمون الى الفتنة ، وكيف سار الى الشهادة ازكى الرجال وأرقهم نفسا .. ورأينا كيف ارتفعت السيوف وهوت فى العالم العربى وهى تشق قلب البراءة ..

وصنعت الاحزان خيمة على الشيعة وشواهم من المسلمين ، وكانت رابعة تبكى فى جوف الليل تحت خيمة الاحزان ..

سئلت من حقيقة ايمانها فقالت :

ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته بل عبدته حبا له وشوقا اليه ..

قال الشعرانى : كانت رضى الله عنها كثيرة البكاء والحزن ..

وقد رأينا بدايات الشيعة والزاهدين وكيف شربت من امطار الحزن ودموع الاشفاق ..

وفى عصر رابعة العدوية .. وهو نهاية القرن الثانى للهجرة ، كان الاسلام قد انتشر وخفقت رايته فوق ثلث العالم ..

ولكن الاسلام نفسه كان ينسحب من نفوس الرجال والنساء فى نفس الوقت الذى كان ينتشر فيه فى الأرض ..

وكان هناك نموذجان اسلاميان يومئذ ..

نموذج يعبد الله خوفا من النار ..

سبب العبادة هو الخوف من دخول النار ..

ولم يستطع هذا النموذج احتواء مشاعرها المتوهجة .. لان الخوف لا يثير في الفنان أكثر من الرفض والتحدى ..

وكان هناك نموذج آخر يعبد الله طمعا في الجنة ..

وكان المجتمع الاسلامي يومئذ قد رفع قيمة الطمع سواء في ذلك الطمع في الرئاسات او الحكم ، او الطمع فيما عند الله ..

ولم يستطع هذا النموذج احتواء مشاعرها كفنانة .. فالطمع لا يثير في الفنان أكثر من الرفض والاستعلاء ..

واذا لا يبقى امامها الا ان تشق مجراها الجديد ..

لن تعبد الله خوفا .. ولن تعبد طمعا ..

هذه تصرفات الأجير الخائف او الأجير الطامع ..

تريد ان تغلو على النموذجين التقليديين الدائعين في المجتمع ..

واختارت ما يختاره أي انسان يملك طبيعة فنية ..

انها تحب الله لاتها تحب الله ..

لا تخاف النار ولا تطمع في الجنة ..

لغة درجة أعلى فوق هاتين الدرجتين ..

الحب الخالص الذي يصعب على المحب فيه ان يتنفس ..

.....

كان عندها أحد الصوفية يوما فقال : واحزنه .

وردت عليه رابعة العدوية مؤبة : لا تكذب وقل واقلة حزنه ، لو

كنت محزوناً لم يتهيا لك ان تتنفس ..

.....

لو توقفنا قليلا عند تصور رابعة العدوية للحزن .. فسوف نفهم انها

كانت امرأة من طبيعة خاصة ..

طبيعة فنية خاصة .. أنها تفهم الحزن فلا تراه هذه الكآبة التي تنتشر على سطح النفس وتجعل الانسان هادئا صامتا منزويا ..

انما تنظر الى الحزن فتراه في ابعاد اعماقه .. شيئاً هائلاً يمنع الانسان من التنفس ..

هذا الغلو في الحزن يتفق مع غلوها في الحب .

ويفترض كثير من الدارسين ان كلاهما في الحب الالهى يستمد اصوله من المسيحية ، وهناك نص خطير للسيد المسيح تداولته امهات كتب الصوفية يدور معناه حول المعنى الذى اوردته الابيات المنسوبة اليها في الحب الالهى ..

ولست ميالا لهذا الراى ، لان تشابه نظرة واحدة من الصوفية مع كلام السيد المسيح (لو افترضنا صحة نسبته اليه) تشابه النظرتين لا يعنى ان احدهما اخذ من الآخر ..

والاصح هنا ان يقال ان الاثنين يستمدان من مصدر اصيل ..

والمسيحية التي انزلت على عيسى عليه الصلاة والسلام هي الاسلام الذى انزل على محمد عليه الصلاة والسلام هي اليهودية التي انزلت على موسى عليه الصلاة والسلام .. (ان الدين عند الله الاسلام) بمعنى ان جوهر الأديان جميعا هو التوحيد ..

وفي هذا ليس هناك اى خلاف بين دين الهى وآخر ..

وفهم الانسان لدوره في الحياة وضالته امام الكون والله يقودانه الى ادراك عظمة الخالق وضعف المخلوق ..

ولا يملك الضعف امام العظمة سوى الحب .. اذا اراد ان يتخلى عن الخوف والطمع ..

كان الحب هو الطريق الوحيد امام رابعة العدوية .. بسبب طبيعتها

الخاصة المتأججة ، وظروف حياتها القاسية ..

ولا اتصور انها تأثرت بالمسيحية لأن الاسلام والمسيحية يتشابهان في اصل العقائد كما انزلت من الله لا كما صارت اليه عند البشر ..

كل ما في الامر ان رابعة العدوية - بفطرة الفنان - ادركت ان الخوف من النار فقط اهانة لعظمة الانسان .. والطمع في الجنة فقط سوء تقدير لعظمة الخالق ..

هذه اشياء .. الجنة والنار شيان ..

وهي لا تريد ان تتطلع الى الاشياء ..

انما هي تريد .. من ((ليس كمثله شيء)) ..

وهي لا تخاف ولا تطمع انما تحب ..

والحب هو المجال الوحيد الذي يدع لعظمة الانسان قدرها من التواضع ويدع لعظمة الله قدرها من السمو والتعالى ..

اثارت اربعة ابيات . منسوبة لرابعة العدوية ، كثيرا من الجدل والخلاف ، وراى فيها بعض المستشرقين نظرية جديدة في التصوف الاسلامى ..

وسوف نلتقى في بحار الصوفية بابيات شعر عديدة ، وشعراء كثيرين ، وادباء وكتاب ، ومن المدهش ، انه رغم مرور عشرة قرون او اكثر على بدء الصوفية وتطورها ، لم ينظر احد من الباحثين الى الصوفى باعباره فنانا .

انما كانت النظرة الى الصوفى دائما تعتبره رجل دين فحسب ..

وفي تصورى ان هذا ظلم للصوفية ورجالها ..

وسوف اشرح تصورى هذا واقدم ادلتى عليه ..

ان الصوفى انسان .. والانسان هو المخلوق الوحيد الذى يروعه الفرق بين الاشياء كما هي ، والاشياء كما ينبغي ان تكون .. ومن هذا

الحنين للكمال يولد الفن .. والصوفي فنان بمعنى البحث عن الكمال ..

وليس فنانا بالمعنى المعتاد للفن ، او المعنى المتبدل للكلمة ، وبهذا المنطق يخرج الفن الذى يرتبط بالفرائز او يثيرها من اجل الكسب ، ويخرج اداء الاعمال الفنية ، ويخرج الامتاع والتسرية ، تخرج كل هذه الانواع وامثالها من نطاق المعنى الذى اقصده ..

انما اقصد بالفن ابداع العقل الانسانى فى مجال الكتابة والشعر .. ونحن نعرف ان الكتابة والشعر تعبيران .. وكون الفن تعبيراً لا يعنى انه تعبير مبسط عن المشاعر والاحاسيس فقط ..

انما نقصد هنا كل ادب او شعر رفيع يثرى قارئه ويزيد من تجربته ويسمو بمشاعره ويطهره كما يقول ارسطو .

والفن امر بالغ التعقيد كالانسان .. والانسان هو اكثر مخلوقات الله تركيباً وتعقيداً ، وليس خلقه بهذا الشكل الا دليلاً على عظمة خالقه وقدرته سبحانه ، والفن موهبة يمنحها الله تعالى للانسان .. لحكمة يدرىها هو سبحانه ، ويشبه الفنان رجلاً دخل حجرة مظلمة .. حجرة لا يبدو فيها شيء ولا يظهر منها شيء .. ثم استطاع هذا الرجل ان يدير مفتاح النور ..

حين تسبح الحجرة فى الضوء يتغير منظرها على الفور .. تظهر فيها اشياء لم تكن ظاهرة ، ويتضح فيها ما كان خافياً ..

يشبه الفن هذه القدرة على اضاءة النور .. سواء كان النور داخلنا او داخل الآخزين او فى الحياة او فى الكون ..

ان اضاءة النور تعنى اسدال الستار على الظلام ، تعنى اطلاق طاقة الكهرباء ، والكهرباء طاقة ، ولكنها مجهولة تماماً ، يدرس العلماء آلاف الحقائق عن الضوء ، ولكن احداً من البشر لا يعرف سر الضوء .. ذلك العلم من شئون الخالق القوى العزيز الممتنع .

والفن سر يتوصل به الانسان الى الكشف عن مصدر الطاقة .. وضاءة الحياة .. وحين نقرا ونعرف يتسع وعينا للتجربة ، ونرى

افضل مما كنا نرى ..

وهناك فرق بين الرؤية الفنية والرؤية العادية ..

هو نفس الفرق بين العصفور والدودة .. والعصفور والدودة كلاهما خلق من خلق الله تعالى .. ولكن الدودة تسير على الأرض ، او تسير تحت سطح الأرض ، تصنع لنفسها انفاقا في طين الأرض وتسير .. اما العصفور فيملك القدرة على الطيران والتحليق .. ويملك القدرة على ان يرى مساحة اكبر مما تراه الدودة .. ولا فضل للعصفور على الدودة .. فلا الدودة هي التي خلقت نفسها ملتصقة بالأرض ، ولا العصفور خالق نفسه قادراً على الطيران ..

الفضل هنا او هناك منسوب للحق .. عز وجل ..

والسر في خلق الدودة دودة ، وفي خلق العصفور عصفورا .. هذا السر من اسرار الحق عز وجل ..

والفرق بين الرؤية العادية والرؤية الفنية هو الفرق بين رؤية الدودة ورؤية العصفور ..

يعيش معظم النوع الانساني وذهنه مغموس في مشاكل اللحظة الحاضرة ، ومتاعب الحياة اليومية .. لا يرى الا حاجات جسده ومشاكل نفسه .. وتجيء لحظة حاسمة ..

فينسحب هذا الانسان من كهفه الطيني ويطير وينظر ..

ان الرؤية الصوفية تتم حين يزاول الانسان نظرة عصفورية على الحياة ، اى حين ينسحب منها ولو للحظة واحدة ، فيرى منها قدرا اكبر ، بدلا من بقاءه محصورا ضمن البؤرة الضيقة ، بؤرة نظرتة الدودية للأشياء ..

وهذه الرؤية هي نفسها الرؤية الشعرية او الادبية ..

وليس الفرق بين تراث الانسانية الادبي والفنى وتراثها المعتاد غير

الفرق بين النظرة العصفورية والنظرة الدودية ..

والصوفية هم الذين يملكون القدرة على الطيران والتحليق ورؤية الحقيقة ..

والشاعر أو الكاتب العظيم يملك نفس القدرة على التحليق ، ورؤية مساحة أكبر من الحقيقة ..

وليست مصادفة ان معظم الصوفية شعراء وكاتب ..

وميزة الكاتب العظيم حقا هي قدرة عقله على الوثوب من مستويات الانسان العادى ، وادراك القيم الشاملة ..

وحين يختزن الكاتب تجربة ما .. ويشبثها في ذهنه او روحه ، ويعيد خلقها من جديد بأسلوب وشكل وتعبير يختلف عن التجربة ، حين يقع هذا للكاتب يقع مثله للصوفى ..

ان تجارب القرب من الله عز وجل تختزن .. ويجيء التعبير عنها في الشعر الصوفى .. يجيء التعبير عنها ، او عن المعادل الموضوعى لها ، فاذا نحن امام تجربة جديدة ، ليست هي الصورة الفوتوغرافية للتجربة الاصلية ، انما امام اضافة جديدة كل الجدة ..

ولو سالنا عن هدف الادب والفن .. فسوف نتلقى عشرات الاجوبة ، ربما كان افضلها هو تأكيد الوعي الانسانى ، واثراء تجاربه ، وازدانة الجمال الى الحياة ، والبحث عن الحقيقة ..

وتختلف الحقيقة عند الكاتب والشعراء ، تبعا لاختلاف حظوظهم من العظمة ، وكلما ارتقى الانسان ادرك ان الحقيقة هي الله .

وكلما زادت عظمة الانسان ادرك ان الله هو الخير المطلق والحق المطلق والجمال اللانهائى وذلك هدف الآداب الرفيعة والشعر العظيم . .

ومن الصعب ان تجد مفكرا رفيعا او كاتباً انسانيا أو شاعرا كبيرا قد انصرف عن البحث عن الحقيقة ..

الادب العظيم يبحث عن الحقيقة ..

وكلما ارتقى الفنان الكاتب اقترب من الله عز وجل .. وكلما اقترب
تحرير وزادت دهشته وسجدت روحه ..
في الصوفية شعراء وفنانون يكابدون تجاربهم الروحية وهم يسمعون
سعيًا إلى الله ..

كيف ننظر إلى تراثهم في الشعر ..

هل نعتبره فنا .. أم نعتبره دينًا ..

لكي نجيب على هذا السؤال سوف نضرب المثال التالي :

لنفترض أن شاعرا قرا القرآن ، وأعجبه أحد المعاني في إحدى
الآيات ، وصاغ هذا المعنى شعرا .. كيف ننظر إلى هذا الشعر .. هل
نعتبره قرآنًا لأن فيه جزءًا من معاني القرآن ، أم نعتبره فنا ونلحقه
بالشعر ونناقشه على هذا الأساس ..

ان الإجابة على هذا السؤال هي التي ستحدد نظرنا إلى شعر
الصوفية وآدابهم والجواب بسيط رغم خطورة الآثار المترتبة عليه .

من الصعب أن نعتبر أي شعر عن القرآن قرآنًا .. لأن القرآن قرآن
والشعر شعر ، وليس القرآن شعرا كما قال مشركو مكة أو منافقو
المدينة ، ويجب أن نناقش هذا الشاعر الذي صاغ معنى من معاني آية
قرآنية ، يجب أن يناقش باعتباره شاعرا لا باعتباره رجل دين ، ولا يجوز
أن نستنبط من هذا الشعر حكما شرعيا ، إنما يستنبط الحكم الشرعي من
النص القرآني الأصيل ، كما أننا لا يمكن أن نتعبد بقراءة هذا الشعر ،
وإنما يجوز التعبد بقراءة الآيات القرآنية ذاتها ..

تمضي في مثالنا إلى مرحلة أبعد ..

لنفترض أن هذا الشاعر الذي قرا القرآن ، وأعجبه معنى من معاني
آياته ، وقرر أن يصوغها شعرا ، لنفترض أنه لم يكتب المعنى القرآني
تماما ، وإنما راد فيه قليلا ، وأضاف عليه من خياله ، وتحدث عن تجربة

سابقة له تؤكد ما يقوله ..

هل يناقش شعره على انه شعر رجل دين ، او يناقش على اساس
انه شعر متصل بمعنى ديني .. ولكنه في نهاية الامر شعر ..

.....

نريد ان ننظر في شعر الصوفية ونناقشه بهذا المنطق ..

انه شعر متصل بالدين .. وليس شعرا لرجال الدين ..

والفرق بين المعنيين خطر ..

والسر في كل المنازعات التي وقعت بين الصوفية انفسهم او بينهم
وبين غيرهم .. هو ان الناس اعتبروا شعراء الصوفية رجال دين يقولون
الشعر ، ولم يعتبروهم شعراء يتحدثون في الدين .. وبسبب هذه
النظرة الخاطئة قتل الناس شعراء صوفيين بتهمة الزندقة والالحاد ..
وكانت تهمتهم الحقيقية هي اتساع الخيال وغرابته وعمق التجربة
وتوهجها ..

كما انه بسبب هذه النظرة اتهم رجال بما يخالف حقيقتهم ، لان
الناس نظرت في شعرهم وادبهم واعتبرته ديناً وحاكمتهم على انه دين ،
امام قضاة من رجال الدين ، وكان المفروض ان يحاكموا على انه شعر ،
امام قضاة من النقاد والشعراء ..

ان الدين معروف عند الله .. وهو الاسلام .. اسلام الانسان ذاته
له . ويدرك المسلمون ان دينهم يضمه كتاب هو القرآن .. والقرآن هو
الكتاب الوحيد الذي يتعالى على التفسير والتبديل والمحو والاضافة والنقد
والمناقشة .. اما غيره من الكتب فتخضع لما تخضع له الكتب من نقد
وتحليل واطافة وتبديل ومناقشة ..

وبهذا المنطق سننظر في الشعر الصوفي ..

ان الشعر الصوفي رؤية شعرية اولا .. وصوفية ثانيا ..

فن شكله الخارجي هو الشعر ..

• ومضمونه الداخلى هو الحب الالهى •

وهذا الفن ينبع من فنان هو الصوفى ، وتجربة الصوفى رؤية ، وهى حال تعتريه ، ويصل اليها بالرياضات الروحية والاعتزال والتجارب والتحليق ، وثمة تجربة غنية تجرى فى دماء روحه ..

والتعبير عن هذه التجربة تم بالشعر ..

جوهر المعنى رؤية ، بينما الشكل الخارجى فنى ..

ثمة مساحة من الفن فى الرؤية وفى الشكل الخارجى ..

• والصوفى فنان له رؤياه الدينية •

وليس كل فنان صوفيا .. الا اذا بلغ درجة من الجدارة والتعمق الدينى .. واى رؤية صوفية ليست دينا ملزما ، ولا يجوز أن تكون ، ولا يصح أن تعامل معاملة الدين •

وسننظر فى الشعر الصوفى بهذا المنطق •

ما هو رأى نيكولسون فى الشعر الصوفى ؟

ان رايه كان فحا عقليا منصوبا دخله كثير من الدارسين فى التصوف .. وسنرى ان رأى نيكولسون هو رأى تقليدى اعتبر الصوفية رجال دين أولا ، وناقش شعرهم بعد فصله من الشعر ، والحاقه بالدين ، ولست اتهم أحدا بسوء الطويه ، ونحن الاسلام قد انكبه هذا الخلط الذى يضيف اليه ما ليس منه ، كما انهكته الحرب بين الصوفية والفقهاء ، كما انهكته الخلافات بين الصوفية ذاتهم .. والحزب والخلافات أصلا مفتعلة ، لان الصوفية أنفسهم يقولون انهم أصحاب احوال لا أصحاب اقوال .. وهذا يعنى انهم أصحاب تجارب روحية ، ورؤى خاصة ، ولهم فنهم الخاص ، ومن الخطا اضافة هذه الرؤى الخاصة للاسلام او مناقشتها كجزء من الاسلام ، الاسلام واضح بين له كتابه ، وفى المسلمين فنانون كبار ، عبروا عن أنفسهم شعرا ونثرا .. ومنهم من تاه وشطح ، واطافة كل متاهات الصوفية وشطحاتهم الى الاسلام ، لا يمكن أن تكون صداقة للاسلام •

هذا عداء مستتر يختبئ في ظل بحث علمي رصين ..

يعترف نيكولسون في مقاله عن الشعر الصوفي « انه ليس بين الأشياء التي ابتدعها الصوفية لتحريك وجدانهم الديني ما هو أقوى من « السماع » أي الاستماع الى الموسيقى والغناء ، وفي أخبار الصوفية حكايات تربو على الحصر ، وتقص علينا كيف كانت تعترى الواحد منهم حالة الجذب عند سماع بضعة أبيات من الشعر تتفنى بها إحدى الجوارى ، وقد كان ذلك الشعر عادة من شعر الغزل غير الصوفي ، وكثيرا ما يتشابه النوعان في الظاهر ، الى حد أننا اذا لم نقف بطريقة ما على غرض الشاعر ، لا نستطيع التمييز بين قصيدتين احدهما يتفنى صاحبها بالحب الانساني والأخرى بالحب الالهي . »

يريد نيكولسون أن يقول هاتين الحقيقتين :

١ - أن الصوفية متصلون بأهل الغناء لانهم أهل سماع .. أي أنهم متصلون بأهل فن الشعر والغناء والموسيقى .

٢ - أن الشعر الصوفي يتشابه مع الشعر غير الصوفي ، الى الحد الذي يصعب فيه على عقل ناضج مثل نيكولسون أن يفرق بينهما ..

بعد هاتين الحقيقتين ينكر نيكولسون أن يكون الشعر الصوفي وليدا لوعي فني أدبي .. رغم ما في قصائده من جمال النظم ورقة الأسلوب وأناقته ..

ونحسب أن هذا الحكم غير صحيح ..

ولو مضينا مع منطق الباحث نفسه فسوف ننتهي الى عكس النتيجة التي انتهى اليها ..

أن الصوفية يحبون السماع ، وهم متصلون بأهل الغناء والشعر ، وشعر الصوفيين الذي يمتلئ بالغزل يشبه شعر غير الصوفيين في مجال الغزل .. ومن الصعب التفرقة بينهما ..

كيف لا يكون الشعر الصوفي وليدا لوعي فني وأدبي هو بالقطع وليد وعي فني يقع في مجال الرؤية الدينية ..

هو فن دينى .. فن نبغ من تأثر المسلم الشاعر بالدين ، ولكنه ليس ديناً وليس فيه وحى كما يقول نيكولسون .

يميل نيكولسون الى القول بأن قصائد الصوفية « وضرب مثلاً بجلال الدين الرومى وابن الفارض وابن عربى » كانت نتيجة لوحى احوال الوجد الصوفى .. وانها تشابه فى عرف علم النفس الحديث ما يسمونه « الكتابة الآلية » ومن خصائص هذه القصائد الغريبة أن أوزانها وانغامها واساليبها الرمزية ، كل هذه عوامل تساعد على انتقال احوال الوجد التى يشعر بها الشاعر الصوفى الى سامعيه ، ويزداد اثرها فى السامع اذا أنشدت ، كما تنشد عادة ، فى حفلات الذكر مصحوباً بالموسيقى .. »

هذا رأى نيكولسون ، وهو رأى نعارضه لسببين :

١ - ان مسألة وحى احوال الوجد الصوفى هى نفسها حالات الالهام والاشتغال التى تعتري الكاتب أو الشاعر حين يريد أن يعبر بالشعر أو الكتابة .

٢ - ان تحديد خصائص القصائد الصوفية بأنها تنقل احوال الوجد الى السامعين ، هو وصف ينطبق على الشعر عمومًا ، والاصل فى الشعر ان ينقل حال الشاعر ووجدته واحتراقه الى السامعين .

وذلك اسلوب الفن وبغير هذه القدرة لا يكون الفن فناً ، او يكون ادعاء لصفة الفن دون حقيقته ..

اعلى طراز من الفنانين اذا هم الصوفية ..

وهم ارفع النماذج لان فنهم يتصل بالحقيقة المطلقة الخالدة .. فهم اهل بحث عن الله ..

اهل حب الله ..

وشانهم شان اى فنان يعبر عن حبه ان شعرا او نثرا ..

.....

اذا اتفقنا ان الصوفى فنان يجهد البحث عن الكمال الاعلى ، اى الله

عز وجل واذا اتفقنا ان الصوفي يعبر عن شوقه الى الحق تعبيراً تدخل فيه الصور الأدبية كالنثر والشعر ، اذا اتفقنا على ذلك ، فما هو حظ الصوفية من الفلسفة ..

سنعثر في عالم التصوف على فلاسفة ، وسنعثر في بحار الصوفية على اعداء الداء للفلسفة ، رغم ان فيهم فلاسفة بمعنى البحث عن حقائق الأشياء وحكمتها .. وسنعثر في الصوفية على عقليات ناقدة استوفت حظها من معرفة اصول النقد ودقائقه . رغم هذا كله ..

فليس هناك قانون عام او قاعدة عامة يمكن تطبيقها على جميع الصوفية .. حتى كلمة الفن - بمعناها الرفيع الذي اخترناه - لا يمكن اطلاقها عليهم بشكل عام .. فكل واحد فيهم نسيج وحده ..

وكل واحد فيهم فنان بمعنى من المعاني غير المألوفة او المتعارفة .. والفلاسفة فيهم ليسوا فلاسفة بالمعنى التقليدي للكلمة ، بالعكس .. ان فيهم من يرتدى ثياب الفلسفة ويمسك أسلحتها لضرب الفلسفة التقليدية وهزيمتها ..

ولو تأملنا ثلاثة نماذج للصوفية لأدركنا المعنى الذي نقصده ..

ان الغزالي .. وجلال الدين الرومي .. والحلاج ثلاثة نماذج من الصوفية .. وهب الله تبارك وتعالى كل واحد من الثلاثة موهبة البحث عن الحقيقة الالهية .. ورغم انهم جميعاً صوفيون ، الا ان كل واحد فيهم يختلف عن الآخر بشكل محدود وواضح ..

عرف الغزالي باسم حجة الاسلام ، لأنه استخدم عقله الناقد الجبار في ضرب الفلاسفة وعلماء الكلام والانتصار للتصوف السني القائم على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

اما جلال الدين الرومي فيسمونه شاعر الصوفية الأكبر لأن موهبته كشاعر قد استخدمت في التغني بالحب الالهي استخداماً بالغ الروعة .

اما الحلاج فقد قادته موهبته الى شطحات انتهت حياته بالقتل .. واسدلت على اسمه أكثر من تهمة اقلها الزندقة ..

وللثلاثة انتاجهم من الكتابة والشعر ..

كان الغزالي عالما وكاتبا حمل لواء الدعوة لحقائق الاسلام ..

وكان الرومي والحلاج شاعرين تغنيا بالحب الالهي ، على اختلاف في درجة الموهبة ومضمون الفن .

يقول الصوفية عن انفسهم انهم ارباب احوال وليسوا اصحاب اقوال ..

ومعنى العبارة - طبقا لرؤيتهم - انهم لا يريدون ان يحاسبوا على اقوالهم ، وانما على احوالهم .. من معاني العبارة ايضا - طبقا لرؤيتنا - انهم يريدون تفي صفة الفن منهم .. والايعاء بانهم لم يقصدوا بكلامهم ان يتكلموا فحسب كما يفعل الفنانون ، وانما كان كلامهم تعبيرا عن احوال وتجارب تدوقوها ..

وهذا كله مفهوم ومقبول ..

وربما كان الفرق الناعم الرفيع بين الصوفي والفنان ان الصوفي اذا تكلم فانه يتكلم غير قاصد انتاج الفن ..

اما الفنان فيقصد انتاج الفن .

عدم اتجاه القصد الى انتاج الفن يبدع فنا لا مثيل له .. تماما مثلما تفيض احدى ازهار الفل بعطرها دون ان تقصد او تريد ..

هذه العفوية هي التي جعلت من تراث الصوفية الادبي والشعري فنا لا يقارن به شعر او ادب آخر ..

واذا كان الفنان يرفض ان يستسلم وينجرف لمتطلبات الحياة اليومية ، بغية اكتشاف حقيقة اعلى ، فان الصوفي يفعل اكثر من ذلك بهدف اكتشاف نوع اكثف من التجربة الروحية ..

والانسان يعيش عادة في الحياة مشدودا لاهداف معينة ، واحيانا تسجن الاهداف المادية الانسان داخلها ، وهذا هو السير في الحياة على غير هدى ، حتى لو كان الانسان يحقق اهدافه في الشراء او السلطان او السيطرة

.. هذا كله - رغم النجاح المادى - سير فى الحياة على غير هدى ..

وفى اللحظة التى يقنع الانسان وعيه بالتوقف عن السير على غير هدى .. فى اللحظة التى يدرك فيها الانسان ان الحياة ليست هى الانحصار فى الوجود المادى .. وليست هى ذاته ومتطلبات هذه الذات .. فى اللحظة التى يتخلى فيها الانسان عن نفسه ، ويوجه عقله نحو اوسع معنى ممكن لتجربة الحياة ..

فى هذه اللحظة يولد الفنان .. ويبدا انتاج الفن ..

اذا ادرك الفنان انه ينتج الفن بهدف انتاج الفن .. فنحن لم نزل فى منطقة الفن ..

اما اذا تجاوز الوعى الفنى ذاته متجها الى الله تعالى .. فنحن ندخل بحار التصوف ..

وهى بحار تتجاوز فيها التجربة الفنية حدود الحياة المادية كما تتجاوز حدود التجربة الانسانية ، فى محاولة للاتصال بخالق الحياة والتجربة سبحانه وتعالى .

ولهذا السر .. سوف نجد فى الشعر الصوفى مذاقا ليس له وجود فى شعر الغزل ..

وليس صحيحا ما يقوله نيكولسون ان الشعر الصوفى والشعر الغزلى يتشابهان الى الحد الذى يجعل التمييز بينهما صعبا ، الا اذا وقفنا على فرض الشاعر .. ليس هذا صحيحا ..

الصحيح ان بينهما فروقا جوهرية .. وهى فروق يخفيها شكل القصيدة ولكن مضمونها يكشف عنها من القراءة الاولى ..

ان الشاعر الذى يتغزل فى امرأة او يصف صورة حلوة من صور الوجود الانسانى ، ينفصل عن المرأة او الصورة ليبر عنهما ، وانفصاله لازم لانتاج الفن ، اما الصوفى الذى يعبر بالشعر عن تجربة ما .. فانه يتصل بالاشياء اتصالا غامضا ، ويتخلص من اواصر نفسه بهذا الاتصال .

وعلى حين ينفصل الفنان عن ذاته ليؤكد ذاته .. ينفصل الصوفي عن ذاته لتأكيد حقيقة أكبر من ذاته ..

وهذا التجريد يجعل الشعر الصوفي صعبا وغامضا ورمزيا ..

وصحيح أن الشاعر والصوفي الشاعر يستخدمان أحيانا نفس المصطلحات .. كالخمر .. والشعلة .. والجمال .. والحسن .. والكأس .. والحبيب .. هذا صحيح ..

ولكن .. نحن نعرف أن اللغة الانسانية اشارة الى شيء ..

وعلى حين يشير الشاعر لشيء .. يشير الصوفي لمن ليس كمثله شيء .. هذا الفرق يجعل شعر الصوفية فنا ليس له مثيل ..

يقول محمود شبستري ..

الخمر والشعلة والجمال كلها للحق مجال ..

هو الظاهر في جميع الصور ..

الخمر والشعلة للعارف جذبة ونور ..

فأشهد الجمال غير الخفى على احد ..

يريد الشاعر الصوفي أن يقول أن كل ما في الوجود من جمال .. هو مجال لتجلي الحق بالجمال .. هو الظاهر في جميع الصور .. كل ألوان الحسن تستمد الجمال منه .. هو سبحانه وتعالى الذي يوصف بالكمال الأعلى ، وهو سبحانه الذي يضيف على الجمال حظه من الجمال :

الخمر والشعلة والجمال كلها حضور ..

فاحذر الإهمال في معانقة هذا الجمال ..

واشرب خمر الفناء لعلها في لحظة ..

تخلصك من أواصر النفس ..

اشرب الخمر فكأسها وجه الحبيب ..

يتحدث الشاعر الصوفي في هذه الأبيات عن حضور الخالق سبحانه
وتعالى في كل مجالات الجمال ..

ويتجاوز الشاعر الصور الى المصور المبارىء ..

ويحاول أن يتصل بما لا يمكن الاتصال به ونحن أحياء .. ولهذا
يشرب الشاعر خمر الفناء والمحو .. اذا تخلص من أوامر نفسه فهذا
معناه أنه في الطريق الصحيح الى الله ..

وهذا الفناء عن الذات وتأكيد الحق .. هو جوهر التجربة الصوفية .
وليس للشاعر الصوفي صلة مباشرة بالفلسفة وان بدا أحيانا وهو يتدثر
بثياب الفلسفة ، انما يدع الشاعر الصوفي قلبه يفيض بالمعاني المتعلقة
بذلك الحب القاهر ، لأن الحب هو الأساس الحقيقي الذي قامت عليه
الحياة وانسجم به ميزان الكون ..

.....

يقوم الفكر الصوفي على أساس فكرة الحب ..

حب الله تعالى للانسان .. وحب الانسان لله عز وجل .. وقديما
طرح السؤال الأزلى ..

لماذا خلق الله العالم ، وهو سبحانه ليس محتاجا الى العالم ؟

اختلفت اجابات السؤال عند افراد النوع البشرى ، ولم يناقش
السؤال كثير من الناس ، وان خطر على قلوبهم ، وظل السؤال يتنقل من
عقل الى عقل .. حتى وصل الى الصوفية .

وأحال الصوفية السؤال الى القلوب قالوا ان ادراك سر خلق العالم ،
وهو شيء كلى ، ادراك ذلك بعقل الانسان الجزئى أمر مستحيل ..

هذا السؤال ليس في قدرة العقل او تخصصه ان يجيب عليه ، هذا
اختصاص القلوب ..

ان الله تبارك وتعالى ليس محتاجا الى العالم ، ورغم ذلك خلق العالم

لماذا خلقه ان لم يكن هذا الخلق فيضا من فيوض الحب الالهى والرحمه ..
يورد القرآن الكريم نصاً فيه اجابة على سؤال خلق العالم ..
يقول تعالى :

((وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما اريد منهم من رزق
وما اريد ان يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين)) .

تحدد الآية الكريمة هدف الخليقة بالعبادة ..

عبادة الله تعالى ..

ليس شرفا ان يأذن الله لمخلوقات من تراب او نار بان تعبد سبحانه ،
ليس تشريفا لتراب ان يرتفع لمقام الحب ..

ان عبادة الله تعالى تعنى الحب والطاعة ، اذا نظرنا اليها من جانب
الانسان ، فاذا نظرنا اليها من جانب آخر ، كانت مجدا حقيقيا للانسان .

او بعبارة اصح .. هى المجد الحقيقى الوحيد .. وما عداه وهم
وصور .. مثلما ان الله هو الموجود الحق ، وما عداه صور تظهر ثم
تموت ..

يدرك الصوفى ان الله تعالى خلق الانسان لانه يحب الانسان ولهذا يبدأ
سبحانه فى بحار الحب الالهى على الفور ..

يقول جلال الدين الرومى ..

ها هو .. قد طلع بدرا لم تر السماء له نظيراً فى حلم او يقظة وحوله
هالة من النار الأبدية لا يقوى اى طوفان على اخمادها يا رب .. لقد
اسكرتنى خمر حبك وتهدم كل شىء فى بيت جسمى الطينى لقد عمل الحب
بيده القوية فى هدم بيوت الظلام من سقفها الى ارضها .. فلا يتسرب اليها
الا بصيص من الأشعة الذهبية خلال الشقوق ..

وحين لاحت لقلبى لجة الحب .. ألقى قلبى بنفسه فيها .. وسمعت
((لن ترانى)) .

لا أريد أن أعقب بشيء على أبيات شاعر الصوفية الأبر . . أى تعليق عليها يفسدها . . نحن أمام مظهر يتصاعد أريجته من زهور الحب . . وهو مظهر لا يمكن تفسيره إلا إذا اعترفنا أن الحب هو سر الوجود وعلته الأولى عند الصوفية . .

يقول عبد الرحمن جامى . .

((فى الوحدة ، حيث الوجود الموحش ، وحيث العالم سر فى باطن الحق محتجب باستار العدم ، كان ((الوجود المطلق)) المنزه عن ((انا)) و ((أنت)) وعن كل اثنينية ، لم يكن ذلك الجمال معروفا إلا لذاته ، تجلى لنفسه فى نفسه بنوره الأزلى ، وفيه من القوى ما يبهز العقول جميعا .

ولكن الجمال يأبى البقاء مختفيا ، لا تراه عين ولا يسعد به قلب .
لذلك فك عقاله وانطلق يفيض على الكون . . بصورة كل جميل .
تلك طبيعة الجمال ، وذلك أصله . .

فاض على الوجود من عالم الطهر والصفاء . .

سطعت شمسُه على الأكوان وملأت ما فيها من النفوس . .
كل ذرة فى الوجود مرآة تعكس صورته . .

تفتتح عنه الأزهار . . وتشبهو به الطيور ، ويستمد النور من ناره
النور الذى يجذب الفراش الى اقداره . .

حذار ان نقول هو الجميل ونحن عشاقه . . فلست الا المرآة التى
تنعكس عليها صورته ويرى فيها وجهه .

هو وحده الظاهر وانت الباطن . .

والحب المحض - كالجمال المحض - ليس الا منه ، وهو يتجلى لك
فيك ، فاذا لم تستطع ان تنظر الى المرآة ، فاعلم انه هو المرآة ايضا ،
هو الكنز وهو الخزانة .

اما ((انا)) و ((وانت)) فليس لهما محل هنالك . .

تلك اوهام خادعة لا حظ لها من الوجود . .

يريد الشاعر الصوفي أن يقول أن كلمة « أنا » و « أنت » ليس لهما محل هناك أو يريد أن يقول أن كلمة « أنا » و « أنت » أوها م خادمة ولا حظ لها من الوجود .. أو يريد أن يقول أن الوجود الحقيقي هو الله ..

ويشير معظم شعر الصوفية في مضمونه لهذه الحقيقة الكبرى .. ورغم اتحاد الشعراء في المضمون إلا أن اختلافات الأحوال التي تتعاقب عليهم ، واختلاف حظهم من الحب والشوق والفناء والصحو وموهبة التعبير ذاتها يجعل شعرهم يختلف من حيث الشكل .

ومهما يكن من أمر فإن شعر الصوفية هو سر عظمة الآداب التي ينتمي إليها الصوفيون ..

يرى الباحثون أن الشعر الصوفي الفارسي هو سر عظمة الأدب الفارسي .. ويرون أن أجمل ما في الشعر العربي هو الشعر الصوفي ، أو يرون أن أرفع ما فيه هو الشعر الصوفي ..

ويدرس النقاد أشعار الصوفيين الفارسيين مثل أبي سعيد بن أبي الخير ، وأشعار فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي ، وعبد الرحمن جامي ، وفي اللغة العربية يرون أن قصائد ابن الفارض ترد في الطبقة الأولى منه ، وهناك قصائد ابن عربي التي يرى نيكولسون أنها تمتلئ بالجمال رغم امتلائها بالفموض .. أما الشعر التركي فأجمل ما فيه شعر النسيمي الذي كان من المعجبين بالحلاج ..

واهم خصائص الشعر الصوفي هي أهم الفروق بين شعر الصوفية والشعر البحت ، أن مشكلة القضاء والقدر ، ومشكلة معنى الوجود ، ومشكلة الشر ، من المشاكل العويصة التي حار فيها الشعراء ، وهي في ذات الوقت من الأمور المحولة عند الصوفية ..

يرى الخيام بعد سياحته في الكون أنه قد عاد بجرباب يمتلئ بالسخط . من الذي يخبره لماذا جاء إلى الحياة ، ومن أجل ماذا يفارقها ، من الذي يخبره من أين جاء وإلى أين سيذهب ، وما هي حال الداهيين يا ترى ، وانت أيها الروح .. من أجل أي شيء سكنت في هذا البدن ، ما دمت تنوى

الرحيل على أية حال .. وماذا كان قصد من خلقتى وأحسن صورتى ثم
القانى على المسرح الترابى ، لماذا يهلكنى بعد ذلك ويفننى ، كآته الخراف
يتأنق فى صنع القوارير ثم يضرب بها الأرض ..

وهذا الكون الشاسع ما بدؤه وما نهايته ، كيف شرع الفلك يدور
كأنه الطاس الذهبى ، وكيف سيندثر وينهار كأنه البناء الشامخ .. الفاز
وراء الفاز تحير فيها الخيام وطففت حيرته فى ربامياته ..

جاء بى فى البدء مضطرا الى دنيا التراب

حائرا ما ازددت فيها غير جهل واضطراب

ثم وليت برغمى .. غسير دار فى اياى

لم قد كان مجيئى .. ومقامى .. وذهابى

نحن امام شاعر يسأل من حكمة الوجود وسبب الخليفة .. ويتجاوز
السؤال الى الشك فى فائدة كل شئ ..

ما افاد الفلك الدوار ربعا من حياتى

لا ولا زاد جمالا او جلالا بوفاتى

انا لم اسمع مدى عمرى فى دار الشتات

ما هو المقصود فيها من حياتى ومماتى

لا يدرك عمر الخيام سر حياته ولا يعرف سرا لماته .. وهذه الحيرة
تسلمه الى الخمر والشراب .. ويحتسى الخمر فى الدنيا من خلال كأسه
.. فاذا بلفته انباء الدين الذى يأمر بالعدل وينهى عن غياب العقل ،
صاح الخيام ..

ليست الدنيا مقاما لك او دار مثاب

فليب من غدا فيها ولوعا بالشراب

صب من ماء ابنة الكرم على نار الأسى

قبل ان تلقى وفي كفك ريح فى التراب

هذه المشكلة التى يحلها شاعر كعمر الخيام بالشراب والشك والاحساس بأنه مجبور جاء رغم انفه ، مجبور سيمضى رغم انفه ، هذه المشكلة تأخذ شكلا آخر فى اشعار الصوفية ..

ان الحيرة عند الشعراء .. تتحول الى سلام عند الشعراء الصوفيين .. ليست هناك حيرة وتنافر ، ثمة انسجام ويقين ، فالصوفى يعلم أنه لم يأت مضطرا الى دنيا التراب ، انما جاء لحكمة عليا هي العبادة ، والعبادة حب لا يرى فيه المحبوب غير وجه الحبيب ..

والعبادة مجد لا يناله الا كبار العاشقين للحق ..

ومشكلة القضاء والقدر التى فتت فيها الخيام ذهنه محلولة تماما عند شاعر كجلال الدين الرومى .. واسرار القدر المجهولة عند الشعراء معروفة عند الشعراء الصوفيين .. فبمقدار حب المرء لربه يكون علمه بأسرار القدر ، لأن الحب اسطرلاب يكشف اسرار السماء ، وهو الكحل الذى تكتحل به عين القلب فينجلى بصرها كما يقول جلال الدين الرومى .

والحب عند الشعراء الصوفيين هو الذى يرينا الشر خيرا ، او على الأقل يرينا الشر شرطا أساسيا لظهور الخير ، كما يبين لنا أن الشر لا وجود له على الاطلاق فى نظر الله .. او يتحدد اذق .. ليس الشر أمرا بغير حكمة ، وليس ظلما يعيب الكون ، انما وجوده سر لاظهار الخير ، فمن طريق هزيمة الشر نصل الى الخير ..

الشر عند الصوفية طريق تسير فوقه نعالهم احتقارا له .. من اجل الوصول الى الخير ومن كمال الحب أن تتحدد ارادة المحب والمحبوب ، وبهذا يذوب الفرق بين الجبر والاختيار ، وهذا هو معنى القدر عندهم ..

يقول جلال الدين الرومى ..

« من اجل الحب كرهت كلمة الجبر .. فان المجبور لا حب له .. »

والحب الذي هو غاية القرب من الحق لا جبر فيه ..

هو ضوء شمس ساطع لا ظل سحابة قائم ..

ليس معنى هذا أن قلق الشعراء وحيرتهم أمر يفتقر اليه الشعراء الصوفيون .. وليس معنى هذا أن نظرتهم الى الحياة وغرضها ليست معقدة ولا مركبة وليس فيها هذا التركيب الفنى ..

هناك بناء بالغ التعقيد في شعر الصوفية ، وهناك قلق وحيرة ، ولكن هذا كله يقود الى سلام نفسى عظيم .. يقود الى خمر الحقيقة المعنوية ..

يقول جلال الدين الرومى ..

مجهول انا عند نفسى .. بريك خبرنى ما العمل

لا الهال ولا الصليب معبودى .. ولا انا كافر ولا يهودى

ولا فى الشرق ولا فى الغرب موطنى .. ولا لى قريب من ملاك ولا جن

ولا طينتى من تراب ولا ظل .. ولا صورتى من ماء ولا زبد

ولا بالصين ولا بسقسين ولا بيلغار مولدى

ولا بالعراق ولا خراسان ولا الهند ذات الأتهاز الخمسة منبتى

ولا طردت من عدن ولا يزدان .. ولا من آدم اخذت نسبتي

بل من مقام رفيع المقام .. وطريق خفى المعالم

تجردت عن بدنى وروحي .. فمن جديد احيا فى روح محبوبى

ينكر الشاعر الصوفى أن ينسب نفسه الى الأماكن أو الأشخاص أو الصور أو الأديان أو العقائد أو البلدان أو الأتهاز ويثبت نسبه متصلا بشيء واحد .. انه يحيا فى روح محبوبه ..

انه يحب الله تبارك وتعالى .. هذا نسبه الوحيد .. ولأن الصوفى ينسب الى الحب الالهى ، ترى مشكلة الموت تأخذ حجمين مختلفين عند

الشعراء والشعراء الصوفيين ..

كان احساس الخيام بالموت يختلف كل الاختلاف عن احساس جلال الدين الرومى بالموت ..

وقف الخيام وسط حيرة قائطة وقلق قاتل ، واذا الظلمة الموحشة تتكشف عن شبح هائل مروع ، ينعقد لرؤيته لسان الخيام ، ويسد عليه مسالك الحيلة ويتعطل التفكير .. شئ لا كالأشياء ، جبار مخوف يلتهم كل شئ .. هو الموت ..

يقول الأستاذ عبد الحق فاضل في دراسته الممتعة عن الخيام إن شبح الموت كان يتمثل لعينى الخيام حيثما التفت .. فهذا جسدك كان طينا لأجساد الغابرين ، وسيصير طينا لأجساد الآتين ، وهذه حياتك ليست إلا موتا ، ففى كل ليلة يموت منها يوم .. وسوف تأكلك الأرض فيما بعد كما تأكلها اليوم ، فان كان غرك أنها لم تأكلك بعد فاصطبر ، فما فات الأوان ..

صار عبق الموت يفوح امام الخيام فى كل مكان وكل زمان وكل شئ ..

اصبح الخيام يرى الأجساد فى كل جماد ، يمشى على الأرض فيشفق أن يطاء. العيون الناعسة والثغور اللعساء ، ويضع شفته على كأس الخمر الخزفية فيتوهم أنه يقبل ترابا كان فى الأصل شفة كاعب حسناء ، تكلمه وتذكره أنها كانت مثله ، ويرفع الخيام رأسه الى شرفات القصور يرى فى لبناتها كف ملك أو رأس وزير ..

إذا وقعت عيناه على كوز خزفى قال انه انسان باعتباره ما كان ، وإذا ابصر انسانا قال انه كوز باعتبار ما سيكون ، وإذا شاهد الوجه الجميل تذكر انه سيدفن فى التراب فتنمو منه الزهور ، وإذا نظر الى الزهور قال انها نبتت من الوجه الجميل . ورب طين يركله الانسان بقدمه فيسمعه الخيام يقول مستعظفا « لقد كنت مثلك فارمنى وارفق بى » ، أو يسمع الطين يهدد الانسان قائلا « لا تركلنى ففدا تذوق الركل مثلى » ..

فيا ويح الخزافين يصفعون الطين ويلكمونه خافلين ، وما يدرون أنه
تراب الآدميين انظر الى هذه الوردة الرائعة ، تستيقظ مع الفجر وتقص
حكاية لنسيم الصبا ، فما تكاد تتم حكايتها حتى تنتفض انتفاضة الموت
وتهوى ، أفهكذا في عشرة أيام فحسب ، تنبثق برصا صغيرا حيا كالطفل
الوليد ، ثم تنمو كما تنمو الصبية الكاعب ، ثم تكتمل كما تكتمل الغادة
الناهد ، ثم تموت .. يا لغدر الدهر ..

هذا موقف الشاعر من الموت ..

ما كره الخيام شيئا كما كره الموت ، ولا هاب شيئا كما هاب الموت
ولا شغل فكره شيء كما شغله الموت ..

يقول الخيام ..

حلت مشكلات الكون كلها

ووثبت من كل أحبولة نصبها الخداع لاقتناص

وفضحت كل الأسرار ..

الا سر الموت ..

ويسبب هذا الموقف من الموت ، وربما بسبب الموقف من الحياة ،
تساءل الخيام عن جدوى الوجود بعد أن ذهب الشباب ، وحلت الأحزان .
ويرى أنه لم يبق الا الأسف على العمر الذي مضى عبثا كما تمضى ليلة
السكر ، ويصل الخيام الى أننا لعبة بيد الفلك ، لعب بنا برهة على مسرح
الدهر ، في حياة كلها خيبة آمال وقنوط ، ثم جمعتنا يده الجبارة واحدا
واحدا وألقتنا في صندوق العدم ..

ليت الانسان يعود بعد دهور الى الحياة ، ولكن هيهات ..

.....

إذا كان الشعر البحت يقول عن الموت انه غدر الدهر .. فان الشعر
الصوفي يرى في الموت رأيا آخر .. ربما لأنه يرى في الحياة رأيا آخر ..

لا ينظر الشعر الصوفي الى الموت هذه النظرة المتشائمة التى ينظر بها عامة الناس أو عامة الشعراء ..

ليس الموت عند الشعراء الصوفيين نهاية حياة سعيدة ، وإنما هو مقدمة حياة خالدة .. وبداية انطلاق أكبر فى سلم الخليقة .. والعمران لا يكون الا بعد خراب .. والكنز الثمين لا يستخرج الا بعد حفر الأرض وإثارتها ، فاذا رأيت بيتا يهدم ويخرب ، فاعلم أن هناك بناء جديدا ، واذا رأيت أرضا تحفر فاعلم أن هناك كنزا وراء هذا النقص ، والشجرة لا تعطى الثمار الا حين تتفتح وتسقط الأزهار .. وحين تسقط الأزهار وتموت تبدأ حياة الثمار الجديدة ، وكذلك الروح لا تقوى ولا تلبس كسوة جديدة حتى يتهدم الجسد الفانى ، ويخلع العمر البالى .. والله تعالى هو الجواد المطلق ، وهو لا يسلب نعمة الا ويعطى نعمة أكبر منها فاذا سلب الحق تعالى الحياة الضعيفة السقيمة ، أعطى بدلا منها حياة أوسع وأبقى وأجمل وأرقى ..

يقول جلال الدين الرومى ..

« لماذا هذا الاشفاق من الموت ، ولماذا هذا الفرار من الأجل ، أنك لم تزل فى انتقال من مرحلة الى مرحلة ، ومن عدم الى وجود ، ثم من وجود الى عدم ، ولم تزل تخلع لباسا وتلبس لباسا حتى وصلت من العناصر الأربعة الى القلب الانسانى ، فاذا تشبثت بحالة وتمسكت بها ورفضت الانتقال منها الى حالة أخرى ، بقيت على بدايتك ، ولم تصل الى قمة الانسانية وذروة الكمالات الروحية والعلمية ..

ان الانسان لم ينل البقاء الا عن طريق الفناء ، فلماذا تفر يا هذا من الفناء الجديد الذى هو مقدمة للبقاء الخالد .. ولماذا تتمسك بهذه الحياة وتلتصق بها مع انها تخلف حياة لا زوال لها ولا خوف فيها ولا احزان بها ولا متاعب ..

ان هناك فرقا بين موت وموت .. فالعارفون لا يقاس موتهم على موت الجهلاء والعامة .. ان العارف لا يتوجع لفارقة هذه الحياة ولا يحزن ..

ان الموت عند العارفين نفخة حياة ..

.....

اذا كان الموت يخيف الانسان لانه محو لذاته او فناء لها .. فان الصوفي يسعى خلال حياته لمحو ذاته وفنائه ..

وهكذا يهرب الانسان من الموت ، ويهرع الصوفي الى الموت .. وهكذا يقول الصوفيون في كلماتهم الفامضة الموحية ..

((موتوا قبل ان تموتوا)) ..

فمن هذا الموت تولد الحياة الحقيقية

ويقصد الصوفيون بالموت هنا .. موت الرغبة في الدنيا .. وفي الخلائق والعلائق .. وفي كل سوى .. اى كل ما سوى الله عز وجل .. وفي هذه المرحلة ترد على الصوفي الكرامة ..

.....

والكرامة من المسائل التى تثير الخلاف عند خصوم الصوفيين وعند بعض انصارهم ، يجحدها الخصوم وينكرها بعض الصوفيين انفسهم والافضل ان ننظر في موضوع الكرامات قبل ان نجوز في بحار القوم ..

ها هو ابراهيم بن ادهم ..

صوفي كان يعيش كالمملوك قبل ان ينطلق في الصحراء بحثا عن الحقيقة .

تقدم الفقر واستولى على ملابسه وسيفه الذهب وعباءته المرصعة بالجواهر .. ولم يترك له الفقر غير رداء واحد من الصوف الخشن الممزق .. ابراهيم بن ادهم جالس على شاطئ النهر وقد اخرج الابرة والخيط ليخيط ثوبه الممزق ..

ها هي الابرة تنزلق من يده الى النهر ..

ضاعت وضاعت معها فرصته في رثق ثوبه .. اى فقر بعد هذا ..

في المشهد رجل يتأمل ما يجرى امامه .. كان هذا الرجل يعرف ابراهيم حين كان بالغ الثراء .. ويقول الرجل في نفسه .

— سبحان مغير الاحوال .. كان ابراهيم غنيا وصار فقيرا يشير الشفقة .. حين انتهى الرجل من الاعتراض في قلبه على حال ابراهيم بن ادهم .. نظر ابراهيم بن ادهم الى مياه النهر وقال ..

— اين الابرة .

وعلى الفور خرجت من النهر الف سمكة ، كل سمكة في فمها ابرة من الذهب ..

قال ابراهيم : اريد ابرتي ..

وخرجت من النهر سمكة تمسك الابرة ..

وادرك الرجل الذي اعترض على فقر ابراهيم بن ادهم ، انه لم يكن يدرك الى اى حد بلغه ثراء ابراهيم بن ادهم .

هذه كرامة من كرامات ابراهيم بن ادهم ، وربما عثرت عليها منسوبة لصوفي غيره ..

وهذا الامر كثير الحدوث في الحياة الصوفية ، اهنى نسبة الكرامة الواحدة لأكثر من صوفي ، أو ادعاء صدور الكلمة الواحدة من أكثر من صوفي ، ونحن نحسن الظن بأهل التصوف ، ونعتقد أن تلاميذهم هم المسئولون عن اضافة هذه الهالة عليهم .. سواء كانت الاضافة بحق أو غير حق ..

وموضوع الكرامات هو الخطوة الثانية بعد موضوع المعجزات ..

والمعجزات تصدر من الانبياء ، اما الكرامات فتصدر من الاولياء ..

وموضوع المعجزات واضح ، والاصل في المعجزة انها امر خارق يأمر الله تعالى بوقوعه على يدى نبي من الانبياء أو رسول من الرسل ، لتصديقه واقامة الحججة على قومه .

وتختلف معجزات الانبياء من حيث نسبة الخوارق فيها ، في الانبياء من كانت معجزته طوفانا اغرق الكافرين ، وفي الانبياء من شق الله تعالى له البحر أو احيا له الموتى ، وفي الانبياء من كانت معجزته ناقة ، وتشترك

جميع معجزات الانبياء السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها مؤقتة بزمان معين ..

فشق البحر أو احياء الموتى أمران خارقان لم يعاصرهما غير أهل هذا الزمان البعيد .. على حين تنفرد معجزة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدوام .. فقد شاء الله تعالى أن تكون هذه المعجزة كتابا حفظه الله عز وجل من التدخل البشرى سواء بالاضافة أو المحو أو التبديل أو التحريف ..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر الانبياء ..

وكان عصره ايدانا بانتهاء المعجزات المادية المبهرة الخارقة ، وبدء لون جديد من عصور الرشد العقلى ..

وليست مصادفة أن تكون معجزة خاتم الانبياء كتابا يرفع قيم العقل والنظر العلمى ويسخر من المقلدين لما كان عليه آباؤهم ..

.....

موقف الاسلام من المعجزات واضح ..

**اقر كتاب المسلمين الذى انزله الله كل معجزات الانبياء السابقين ..
وصحح حقائقها واوردها كما وقعت بحق ..**

بل ان هناك معجزات تسكت عنها الاناجيل والتوراة .. ولم يسكت عنها القرآن الكريم ..

ان عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام تكلم فى المهد ..

تكلم بعد ولادته خرقا للقوانين الطبيعية التى تجعل الاطفال المولودين لا يستطيعون الكلام قبل سنتين تقريبا ..

لم تورد الاناجيل هذه المعجزة ..

سكتت تماما عنها واوردها القرآن فى سورة مريم .. فى موقف يؤكد ان اتهاما سحفا فد وجه الى مريم فرد عيسى على الفور ..

وكان الرد معجزة من عيسى .. بوصفه نبيا وكرامة لمريم بوصفها من اولياء الله ..

يقول تعالى في سورة مريم ..

« فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا اخت هرون ما كان أبوك أمرا سوء وما كانت أمك بغيا . فإشارت اليه قالوا كيف تكلم من كان في المهد صبيا . قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا اين ما كنت واوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا .. »

قال عيسى ابن مريم ٣٢ كلمة وهو مولود ..

واثبت بكلماته اكثر من حقيقة ..

نسف اتهام مريم الظالم بأنها بغى ..

واكد انه عبد الله الذى آتاه الكتاب وجعله نبيا مباركا واوصاه باقامة الشعائر ..

واشار الى ان الله تبارك وتعالى قد جعل ميلاده وموته وبعثه سلاما عليه ..

هذه المعجزة تؤيد عيسى في دعوته الى الله ..

وهى معجزة علنية شهدها الدين اتهموا مريم وشهداها الدين تجمعوا في هذا الموقف من الفضوليين وما أكثرهم ، وحكاها هؤلاء بعد ذلك ، وربما يكون هؤلاء قد اسدلوا عليها ستارا متعمدا من الصمت ، فلم يذكروها تحقيقا لمصالحهم الخاصة في انفرادهم بالشرعية وكجزء من خطتهم في حرب هذا النبي الجديد ..

ولقد ذكر القرآن معجزات الانبياء ، كما اشار الى معجزات الاولياء وذكرها ..

ومن الاولياء الذين تحدث القرآن الكريم عن كراماتهم مريم ابنة عمران

التي أحصنت فرجها فنفخ الله تبارك وتعالى فيها من روحه .. وكان من كراماتها ما يحكيه القرآن عنها ..

« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » ..

قال العلماء كان يجد فاكهة الشتاء عندها في الصيف ..

ومن الأولياء الذين يورد القرآن قصص ولايتهم هذا العبد الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما .. وهو العبد الذي يعتقد بعض العلماء أنه الخضر ، ويختلف العلماء على درجته فمن قائل أنه نبي ومن قائل أنه عبد صالح من الأولياء ..

وقد سار هذا العبد مع موسى وعلمه من علمه ولم يصبر عليه موسى . من الأولياء الذين ورد ذكرهم في القرآن بغير إشارة لأسمائهم .. هذا الذي عنده علم من الكتاب ..

قال تعالى في سورة النمل ..

« قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك واني عليه لقوى امين . قال الذي عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني اأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم » ..

نحن في مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام ..

يطلب سليمان احضار عرش ملكة سبا .. عفريت من الجن يتقدم لاحضاره ويحدد فترة من الوقت هي الفترة التي يستغرقها سليمان في مجلسه ..

« قبل ان تقوم من مقامك » ..

الفترة ساعة أو شيء بين الساعات ..

لم يرض سليمان عن هذه الفترة .. ربما اشاح بيده أو بدا من ملامح وجهه أن فترة احضار العرش طويلة ..

عندئذ تقدم واحد كان يحضر المجلس ..
واحد لم يحدثنا القرآن الكريم عن اسمه ..
أشار اليه القرآن إشارة تزيد غموضاً على غموض ..
« قال الذى عنده علم من الكتاب » ..

من الذى قال ؟
ما هو هذا العلم ؟
ما هو هذا الكتاب ؟

ثلاثة أسئلة لم يجب عليها القرآن .. تخطاها عمداً .. ولحكمة الهية ..
فالأمر يتعلق بأمر خارق .. والجن قد عرض خدماؤه وسيحضر العرش
فى ساعة من مسافة تبعد خمسة آلاف كيلو متر « من فلسطين الى مملكة
اليمن » .. ورفض سليمان هذه الخدمة رغم أنها أمر خارق ..

المطلوب شيء فوق طاقة الجن ..

من الذى يملك قدرات فوق قدرات الجن المسخر لسليمان .. لم يقل
لنا الله تعالى ..

وسوف نلاحظ ان أولياء الله تعالى الذين أشار اليهم القرآن ، قد
أشار اليهم دون ذكر اسمائهم ..

أخفى اسماءهم تماماً ..

وأخفى أمكنة وجودهم ..

ودثرهم بسر خفى غامض ..

وليست هذه مصادفة ..

.....

أولياء الله الذين ورد ذكرهم في القرآن قليلون .. منهم ولى ورد ذكره في سورة الكهف ..

((فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلماها من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معي صبرا)) ..

يعتقد بعض العلماء أن هذا العبد هو الخضر ..

ولو التصقنا بالقرآن الكريم كمبدا ومنهاج .. فسوف نلاحظ أن الآيات قد أغفلت ذكر الاسم ..

وما يورده القرآن يورده لحكمة .. وما يسكت عنه يسكت عنه أيضا لحكمة « وسبحان الله عز وجل » ، والقرآن كنز من كنوز الحكمة ، ومعنى سكوت القرآن الكريم عن ذكر الاسم ، أن الله تعالى لا يريد أن يحدثنا عن اسم هذا العبد . جعل الله تعالى اسم العبد سرا كعلم هذا العبد ..

وترك الفضول في هذا المجال من آداب العارفين بالله ..

ومن كمال السر الا نسأل من هو هذا العبد الصالح ..

.....

أيضا يرد ذكر ولى آخر من أولياء الله في سورة النمل ..

((قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك)) ..

يعتقد بعض العلماء أن هذا العبد هو آصف بن برخيا .. وقد استغلت الأساطير الدينية موضوع الخضر فجعلته يعيش الى يوم الساعة ، وجعلته يقابل كثيرا من الصوفية ويجرى معهم أحاديث ويحدثهم ويحدثونه ، ولم تهمل الأساطير الدينية موضوع آصف بن برخيا . فجعلته طرفا في مسائل عديدة ، رغم أنه كان موجودا في زمن سليمان .. ونحن نأبى الدخول فيما لم يرد فيه نص ، كما تأبى أن نفهم فضولنا على قرآن الله ..

لقد تعدد القرآن الكريم أن يورد إشارة لهذا العبد الصالح دون أن

بذكر اسمه .. سكت القرآن عن ذكر الاسم لنفس السبب الذي سكت فيه عن ذكر اسم العبد الذي صاحبه موسى ..

اتصلت قدرة العبد الذي يحضر مجلس سليمان مع علم العبد الذي صاحبه موسى ..

أحدهما يملك قدرة تعجز عنها قدرة الجن ، والآخر يملك علما يعجز عنه صبر نبي من أولى العزم .

صاحب سليمان أوتي قدرة تتصل بأسرار الله عز وجل ..

وصاحب موسى يملك علما يتصل بأسرار الله عز وجل ..

نحن اذاً نبحر في منطقة أسرار ..

ولهذا تختفى الوجوه وراء اقنعة واستار ..

ولهذا لا يورد القرآن أسماء الأولياء ..

إذا كنا لا نصدق فلنمض مع الأولياء الذين يورد القرآن لمحات من فصصهم ، سنلاحظ أنهم يظهرون بغير أسماء ، أحياناً يصفهم المولى بصفات .. ولكن أسماءهم تظل سرا ..

أهل الكهف ..

اليسوا من أولياء الله الصالحين ..

أنهم باتفاق العلماء ليسوا أنبياء .. فهم فتية آمنوا بربهم .. وهم من آيات الله المعجب . وكرامتهم من الكرامات المدهشة في التاريخ البشري .

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً » ..

لا يذكر القرآن أسماء هؤلاء الأولياء ..

وهو يتجاوز عمداً عن ذكر أسمائهم لاتصال أمرهم بآية من آيات الله العجيبة .. وهو لا يحدثنا في بداية القصة عن السبب الذي جعلهم يأوون

الى الكهف ، ائما يبدأ قصتهم بدعائهم عند دخول الكهف ..

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من امرنا رشدا » ..

واضح انهم يسألون الله ان يفيض عليهم من رحمته .. وان يهيئ لهم من امرهم رشدا .. نفهم انهم مقدمون على عمل خطير ويخشون مطاردة شيء بالغ القسوة ، وربما امتدت يد هذا الشيء اليهم وعثرت عليهم في مكانهم .. لم يكذبوا دعائهم ينتهى حتى ضرب الله على آذانهم فناموا ..

ضرب الله على آذانهم ..

تأمل هذا التعبير باعجازه واسرارته .. نعلم الآن ان صلة النائم بالحياة واليقظة هي الأذن .. اى صوت يصل الى المخ من الأذن يوقظ النائم .. واى ضوء يسقط على العين يترجم ويصل الى المخ فيوقظ النائم .. فاذا كنا امام قوم ضرب الله على آذانهم فنحن امام ناس لن تستيقظ الا اذا ارتفع الحجاب المضروب على الأذن ..

« فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم اى الحزبين احصى لما لبثوا امدا » ..

استمر الحجاب على آذانهم سنين عددا . سنعرف فيما بعد من السياق القرآنى انها كانت ٣٠٩ سنوات ..

هل ينام ناس اكثر من ثلاثمائة عام .. لو نام الانسان اياما متتالية هلك من الجوع ..

لكن هؤلاء ناموا اكثر من ثلاثمائة عام واستيقظوا جائعين ...
ما هذا السر ..

كيف وقع ما وقع ..

نحن امام سر هائل .. حياة ولا حياة .. موت ولا موت .. ناس نائمون وليسوا نائمين ..

كيف دقت قلوبهم ٣٠٩ سنوات ، كيف تنفسوا طوال هذا الوقت ..

كيف اطاعت اجهزة اجسامهم هذه الفترة الطويلة واستمرت في العمل
كان الثلاثمائة سنة ليل عادى واحد ..

نحن امام عمل الهى خارق .. امام كرامة من كرامات الاولياء .. ولم
يحدثنا الله تعالى كيف ناموا هذه الفترة ثم استيقظوا بشكل عادى ..
يتصل هذا الامر بمشيئة الله ..

لقد امر الله تعالى .. وانما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن
فيكون ..

ما هى قصة اهل الكهف بالحق ؟

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم
هدى . وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن
نسعوا من دونه الها لقد قلنا اذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة
لولا ياتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا . واذ
اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فالووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته
ويهيئ لكم من امركم مرفقا » ..

هذه قصتهم بالتفصيل ..

بحكيها القرآن بالتفصيل ..

انهم فتية يعيشون وسط مجتمع كافر يعبد من دون الله عز وجل
آلهة متعددة ، ولا شك ان هذا المجتمع يريد ان يقهر هؤلاء الفتية على عبادة
الوثان والاصنام .. وربما اتهمهم المجتمع بالخروج على نظامه لانهم يعبدون
الله ، لا حل امامهم غير الخروج والهجرة .. ولكنهم لا يعرفون اين يذهبون
.. واحساسهم بانهم مطاردون امر واضح .. ويلجأون الى الكهف
للاستتار والاختباء ريثما يفكرون .. دخلوا الكهف فناموا ..

نرب الله على آذانهم فناموا .. ولعبت الشمس دورا في المعجزة ..

« وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت
تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله » ..

تحدثنا الآيات ان الضوء لم يكن يصل اليهم .. فقد كانت اشعة الشمس تتجنب الكهف وتميل عنهم في الشروق والغروب .. ولكي يبدد النص القرآني الغرابة التي يمكن ان تنشأ في النفس من هذا الامر الخارق .. يضيف قوله : « ذلك من آيات الله .. »

لا غرابة اذا ما دام الامر معلقا بآية من آيات الله ..

« من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » ..

يريد النص ان يقول ان هؤلاء الفتية من اوليائه المهتدين .. ولهذا وقعت لهم الكرامة .. بعد ان ازال النص كل سبب للدهشة ، ببيانه ان الامر آية تقع لمن هداه الله وتولاه .. عاد النص يورد ما هو ادعى الى المعجب ..

« وتحسبهم ايقاظا وهم رقود .. »

نظن انهم احياء والحقيقة انهم موتى ..

« ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » ..

رغم انهم موتى الا انهم يتقلبون .. وهم ليسوا موتى لانهم يتقلبون .. وليسوا احياء لانهم لا يقومون .. وليسوا وحدهم في الكرامة الخارقة التي وقعت لهم فمعهم كلب ..

« وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » ..

ان الكرامة التي وقعت للبشر .. وقعت لكلبهم الذي احبهم وتبعهم الى الكهف .. وبهذا الحب للأولياء دخل الكلب تاريخ الكرامات كما دخلت نملة سليمان وناقة صالح وحيوت يونس تاريخ المعجزات ..

ورغم انهم رقود .. رغم انهم لا يقومون كالموتى ويتقلبون كالأحياء ، رغم ذلك تطول لحاهم واظافرهم بشكل مستمر .. ويتحول منظرهم الى شيء يخيف ..

« لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » ..
ومر الوقت ..

مرت ٣٠٩ سنوات ..

ثم بعثهم الله من هذا الموت العجيب الذى تعمل فيه أجهزة الجسم
ويطول الشعر واللحية والأظافر ..

بعثهم الله ليعلموا أن وعد الله حق ... يستخدم النص القرآنى لفظ
« وكذلك بعثناهم » إشارة الى أنهم كانوا موتى ..

ولقد تساءلوا حين بعثوا كم من الوقت مر عليهم وهم نيام ..
« وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم . قال قائل منهم كم لبثتم . قالوا لبثنا
يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم » ..

اتفقت الآراء أنهم لبثوا يوما أو جزءا من يوم .. ثم اختلفوا فى تحديد
الوقت فأرجعوا الأمر الى الله .. وقالوا ان الله أعلم بما لبثوه .. أحسوا
بالجوع فقرروا إرسال أحدهم ليشتري لهم طعاما ، وأوصوه أن يتخفى
حتى لا يقع فى قبضة السلطة الحاكمة الكافرة التى تهددهم بالقتل ..

« فابعثوا أحدهم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر ايها ازكى طعاما
فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . أنهم ان يظهروا عليكم
يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا ! » ..

حتى الآن يخفى الله تعالى عن الفتية المطاردين حقيقة الوقت الذى لبثوه
نائمين ..

كانوا يتصورون حتى هذه اللحظة أنهم قضوا يوما أو بعض يوم ..
وكانوا يتصورون أن نقودهم وأوراقهم المالية تصلح لشراء طعام ، كانوا
يجهلون مرور أكثر من ثلاثمائة سنة على نومهم ، وكانوا يجهلون أن نقودهم
قد تحولت الى عملة أثرية ..

هذه العملة الأثرية هى التى قادت الى اكتشافهم ..

عثر الناس عليهم وعرفوا أنهم ناموا هذه الفترة ..

« وكذلك أعثرنا عليهم » ..

المفاجأة هنا مزدوجة ..

فوجيء الناس ان هناك من بخرج عليهم من وراء ثلاثمائة سنة ليشتري طعاما بنقوده الاثرية ..

وفوجيء الفتية الاولياء انهم ناموا اكثر من ثلاثة قرون ..
وكانت هذه المفاجأة المزدوجة سبيلا لاكتشاف حقيقة كونية يجهلها كثير من الخلق ..

هذه الحقيقة ان وعد الله حق ..

وعد الله ان ينصر اولياءه ..

وعد الله ان ينصر الخير على الشر .. مهما نفش الشر اسلحته واستعلى وظن انه الاقوى والافنى والاثبت ..

« وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لا ريب فيها » ..

لم تكن كرامة هؤلاء الاولياء قد اثمرت ثمرة واحدة فقط .. كانت هناك ثمار كثيرة في الشجرة ..

عرف الناس ان هناك من نام منذ ثلاثمائة عام وتسع سنوات ثم استيقظ ..

وعرف الاولياء ان تطورا خطيرا قد حدث في مدينتهم الكافرة ، ان السلطة التي طاردتهم بتهمة الخروج على قوانين عبادة الاوثان ، وكانت تعد لهم القتل رجما بالحجارة ، هذه السلطة قد سقطت منهزمة امام المؤمنين بالله .. اسفرت المعركة عن انتصار الخير في النهاية .. لم يشهد اهل الكهف هذا الانتصار لعقيدتهم .. ولكن الاجيال التالية شهدته ..

كان هروبهم الى الكهف هو المقاومة الوحيدة الممكنة في زمنهم لكثرة الكافرين وقلة عددهم .. كانت هذه السلبية هي الحل الوحيد المتاح لهم ، ثم مرت الايام ، وزاد عدد المؤمنين وحاربوا الكافرين وانهزمت دولة الاوثان وجاءت سلطة تؤمن بالله .. واذا فان الممارك بين الخير والشر

محسومة مقدما ومعروفة النتائج مقدما ..

ينتصر الخير وان طال الوقت واستحكم اليأس وراود العقل التفكير
فى الهرب ..

ويتحقق وعد الله بانتصار الخير كما وعد ..

ويعرف الناس ان الحياة والموت والبعث أمور من أمور الله عز وجل ،
والموت ليس نهاية للحياة .. وليس عدما محضا كما يتوهم الواهمون ،
انما هو نوم تليه يقظة .. ورقود يعقبه بعث .. وها هى كرامة أهل
الكهف تثبت فيما تثبته حقيقة البعث والنشور ..

فما هو الفرق بين نوم يستمر ثلاثة قرون او نوم يستمر عددا
أكبر من القرون .. ان القدرة القادرة هنا او هناك هى نفسها قدرة الله
عز وجل .

.....

حين تتعلق قدرة الله تعالى بشيء ، تخرج قوانين هذا الشيء عن
طبيعته المعتادة التى خلقها الله ، وتخضع بخروجها لمشيئة الله الطليقة ..
هو اذاً خروج من الله الى الله ..

حين انشق البحر امام موسى ، وليس من طبيعة البحر ان ينشق ،
كان هذا الأمر الخارق خروجاً من قوانين البحار الى مشيئة الله .. وهذه
المشيئة ذاتها هى التى قضت فى الأزل أن يكون البحر بحراً فلا ينشق موجه
الا بمعجزة ..

وحين أحيا عيسى الموتى امام أعين الناس ، خرج هؤلاء الموتى من
طبيعة الموت التى تقضى بعدم القيام الا يوم البعث ، وكان خروجهم خاضعاً
لمشيئة الله عز وجل ..

وحين نام أهل الكهف أكثر من ثلاثة قرون ، واستيقظوا من نومهم ،
وليس فى الطبيعة البشرية نوم كهذا او يقظة كهذه ، حين وقع هذا خضع
أهل الكهف لقانون الخوارق .. وهو قانون غامض يتبع مشيئة الخالق

تبارك وتعالى ..

واذا كان الله سبحانه وتعالى قد بسط امام اعين الناس قوانينه في الكون المخلوق ، وامرهم بتتبع دقائقها واكتشاف حقائقها ودعا الى النظر والسياسة والتأمل والاكتشاف ، فانه سبحانه قد اخفى قوانينه التي تتصل بالخوارق وحجبها وراء ستائر السر واقنعة الخفاء العظيم ..

وحكمة ذلك واضحة ، فالخوارق تتصل بمشيئة الله ، وليست مشيئة الله تعالى شيئا مخلوقا كالكون وعلاقاته ، انما هي امر يتصل بالذات الالهية ويصدر عنها .. والاسئلة هنا ليست جائزة ..

ولهذا السبب لا نعرف كيف وقعت المعجزات .. لا نعرف كيف انشق البحر لموسى ورفع الجبل له ، ولا ندرى كيف نهض الموتى حين امرهم عيسى ولا نفهم كيف اهلك الله الكافرين القدامى بالصيحة او الصرخة ، ولا نستطيع ان نصل الى القوانين التي حكمت بتدمير اصحاب الفيل الذين هجموا بجيشتهم على الكعبة ..

ايضا لن نفهم طبيعة القوانين التي جعلت قوما ينامون اكثر من ثلاثمائة عام ثم يستيقظون وهم يحسون بالجوع ..

هذه كلها امور خارقة ..

هي اسرار من اسرار الله ..

شاء الله ان تقع لحكمة ارادها سبحانه فوقعت كما شاء .. وليس من حق احد ان يسأل كيف وقعت .. لان السؤال عن كيفية وقوع المعجزة ، يشبه سؤال الله ان نراه ..

ان ابراهيم هو خليل الله تعالى .. (واتخذ الله ابراهيم خليلا) وموسى هو كلم الله تعالى .. (وكلم الله موسى تكليما) رغم مقام النبيين سأل ابراهيم ربه ان يريه معجزة احياء الموتى فسأله الله : اولم تؤمن ؟

وسأل موسى ربه الرؤية فقال : لن تراني وامتناع رؤيته معجزة احياء الموتى كامتناع رؤية الله عز وجل ، لان المعجزة هنا هي مشيئة الله ..

ورؤية الله تعنى رؤية الذات ..

وكل ما تعلق بالذات والمشيشة والاسرار امور لا يقوى عليها الوعاء
البشرى ..

« واذ قال ابراهيم رب ارنى كيف تحيى الموتى قال اولم تؤمن قال
بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل
على كل جيسل منهن جزءا ثم ادعهن ياتينك سميا واعلم ان الله عزيز
حكيم » ..

اراد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو خليل الله عز وجل ، ان
يثلج قلبه برؤية يد القدرة الخالقة وهى تدع امرا خارقا كاحياء
الموتى ..

وسأله الله : اولم تؤمن ..

كان الله تبارك وتعالى يعلم ان ابراهيم مؤمن محب ، ولكن الحق يريد
اقرار حقيقة تتصل بذاته ومشيشته ومعجزاته سبحانه ...

هذه الحقيقة هى استحالة رؤية هذا او شئ من هذا لانه ليس شئنا
وليس كمثله شئ ..

وقد انبعث طلب ابراهيم كما انبعث طلب موسى من حب كبير لله ،
وعبودية كاملة ، واخلاص عظيم ..

ولكن الامر كان يتصل بذات الله عز وجل او اسراره ولهذا لم ير
احدهما ما اراد رؤيته ..

امر الله ابراهيم ان يقطع اربعة من الطير ويفرق اجزاءها على الجبال
ثم يدعوها اليه .. فتأنيه مستيقظة من الموت والذبح ... لو افترضنا ان
ابراهيم نفذ ما امره الله به .. فما الذى سراه ..

هل يرى السر ؟

هل يرى سر بعث الموتى من الموت .. ويعرف القانون الخارق الذى
يسيطر على هذه المنطقة الغامضة ؟

لم ير شيئا ، لان اقبال الطيور تحوه مستيقظة من الموت لا يضع عقله

على أسرار معجزة البعث ..

أيضا كان جواب الله عز وجل لموسى مماثلا .. طلب موسى الرؤية ..
وطلبها في موقف حب عظيم ..

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أدنى انظر اليك قال لن
ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى
ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك
وأنا أول المؤمنين » ..

أفهم الله تعالى موسى أن طلبه الرؤية مستحيل ، ولكي يرفق بحبه
الذي دفعه للتجاوز وطلب الرؤية ، أمره أن ينظر الى الجبل ، ثم تجلى الله
على الجبل .. وأندك الجبل واستحال ترابا ، وخر موسى صعقا ومات
.. مثلما خر سليمان ميتا ، استخدم النص القرآني تعبير « خر » للدلالة
على الموت ، وكانت أول كلمات رددتها شفتى موسى حين بعث من الموت
قوله : « سبحانك .. تبت اليك » ..

أدرك موسى أن الإنسان المخلوق من تراب لا يقوى على الصمود لنور
الله ..

وتاب موسى من طلبه الرؤية ..

كان يتوب من تصويره أن انسانا - كائنا من كان - يستطيع وهو ابن
الفناء المخلوق من تراب ، أن يعاين انوار الجلال الاقدس ..

تتصل مشيئة الله تعالى بذااته ..

وتظل أسرار الله تعالى أسراراً ، سواء منها ما تعلق بمعجزة احياء
الموتى أو شق البحر أو نوم يمتد ثلاثة قرون ..

.....

كانت الخارقة التي وقعت لأهل الكهف كرامة للفتية الدين هجروا
مجتمعهم ، وكانت في نفس الوقت معجزة عاينها الناس بعد ثلاثة قرون

وتسع سنوات ..

وادرِك هؤلاء واولئك ان وعد الله حق ..

ادرِكوا ان نصر الله تعالى لعباده حق ..

وذهبت دهشة المفاجأة وغبابة الصدمة ..

وعاد اهل الكهف الى الكهف ..

تسللوا الى الموت بهدوء كما تسلل اُحدهم الى القرية ليشتروا طعاما

بهدوء ..

لم يعد لحياة اهل الكهف معنى ..

كانت حياتهم حتى الآن معجزة شاهدها الناس ، انتهى الوقت المحدد

لحياتهم في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض ..

ومات الفتية الذين آمنوا بربهم وزدناهم هدى ..

هَجَرُوا مجتمعهم بكل ما فيه من علاقات واصدقاء واقارب واعداً ،

وعادوا الى مجتمع لا علاقة لهم به ولا قرابة لهم فيه ولا اصدقاء ولا

اعداً .. عادوا كأبطال الاساطير ..

خرجوا في السر خائفين على دينهم ، ودلفوا الى السكف في صمت

خشية ان يراهم احد ، كانوا يخبثون سرا دون ان يعرفوا ، او كانوا هم

انفسهم السر المختبىء الذى سيظهر بعد ثلاثة قرون وتسع سنوات ..

بعد ان ظهر السر واكتشفه الناس عاد للاختفاء ..

يعبر السياق القرآنى على نهايتهم ، ويضع القارىء امام موتهم ..

نعرف انهم ماتوا من اختلاف الناس فى امرهم ..

((اذ يتنازعون بينهم امرهم ، فقالوا ابنوا عليهم نبينا نعلم بهم ،

قال الذين غلبوا على امرهم لنتخذن عليهم مسجداً)) ..

انتهى الامر الخارق وبدأت ثروة الناس فيما لا قيمة له ..

« سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم احدا » ..

اختلف الناس في عددهم ..

واختلف اهل الكتاب في عددهم ..

وقيلت اشياء كثيرة .. كانت كلها رجما بالغيب ولا تستند على اساس صحيح .. وليس لعددهم اى قيمة .. الا قيمة الفضول البحت ، وذلك امر لا يعبا به عقل جاد ..

ما قيمة عددهم ..

ان المعجزة قد تحققت بوقوع ما وقع لهم ..

ولن يزيد العدد فى كمال المعجزة شيئا ولن ينقص العدد من كمالها شيئا ..

تجاوز القرآن الكريم عن عددهم وامر بعدم المراء والجدل والسؤال .. سؤال اهل الكتاب ..

وفى هذا المجال .. حيث لا زال الجو نديا بأصداء الكرامة المعجزة .. احال النص القرآنى كل تصرفات الانسان على مشيئة الله .. حتى ما يريد الانسان فعله غدا ، ذلك شىء لا يقع الا بعد مشيئة الله .. هذه الاحالة على طلاقة المشيئة الالهية هى العمق الذى يكشف عنه البعد النهائى للقصة .

ولا قيمة لشيء بعد ذلك كالعدد او الاسماء او التفاصيل ..

« ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى ان يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا » ..

بعد بيان حقيقة التسليم والدعاء .. ذكر القرآن الكريم عدد السنوات التى قضاها اهل الكهف فى كهفهم ، لأن العدد هنا جزء له دلالة فى المعجزة التى وقعت .. بل هو لب المعجزة ذاتها ..

« ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله اعلم بما
لبثوا له غيب السماوات والارض ابصر به واسمع ما لهم من دونه من ولى
ولا يشرك في حكمه احدا » ..

انتهت قصة اهل الكهف ..

انتهت بالتوحيد ..

توحيد من له غيب السماوات والارض من له اسرار السماوات
والارض ..

.....

ليست مصادفة ان القرآن لا يحدثنا عن اسمائهم وعددهم ..
كانوا جزءا من سر الله ، وعلى السر ان يدثر نفسه جيدا فلا يكشف
الا عبرته ..

ليس اهل الكهف هم وحدهم اولياء الله الذين يذكرهم القرآن بغير
اسماء ..

في القرآن آيات تتحدث عن أحد أولياء الله ..

لا تذكر الآيات له اسما ، وانما تذكره بصفته ..

« ذو القرنين » ..

والصفة تزيد غموضا وسرا ..

وهو صورة مقابلة لصورة اهل الكهف .. كان اهل الكهف مغلوبين
على أمرهم فارين بدينهم .. أما ذو القرنين فهو حاكم يقضى بين الناس
وحكمه بلا استئناف ..

ورد ذكر ذى القرنين في سورة الكهف بعد قصة موسى والعبد الربانى
الصالح الذى لم يستطع موسى ان يصبر عليه ..

« ويسالونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . انا مكنا له
في الارض وآتيناه من كل شيء سيبا . فاتبع سيبا » ..

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، ويبدو أن السؤال صدر ممن سمع عنه من أهل الكتاب . ويبدو أن قصته كانت معروفة لأصحاب الكتب القديمة ، ويبدو أن الاساطير كانت قد لعبت دورها في القصة ، وأورد الله تبارك وتعالى قصة ذى القرنين في ١٦ آية من سورة الكهف ، وبدأت الآيات ببيان أن الله مكن له أسباب الحكم والولاية .. وسنرى أنه منح حرية مطلقة ليعذب أو يعفو ، ولكنه اختار العدل الذى قامت عليه السماوات والأرض ..

« حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا » ..

يمنحه الله تعالى الحكم المطلق .. ويكل الى مشيئة ذى القرنين ان يختار ما يريد .. ما الذى اختاره ذو القرنين ؟ ماهو القانون الذى اختاره ولى مطلق الحرية وحاكم لا رد لقوته أو حكمه ..

« قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا . واما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من امرنا يسرا »

اختار ذو القرنين قانون الشريعة .. من ظلم فسوف يعذب .. ومن آمن وعمل صالحا فله الثواب والطمأنينة .

هذا حكم الشريعة .. وأجمل ما فى الحكم أنه يتفق مع حكم الحقيقة .. فحين يموت من يموت ويبعث الموتى ويردون الى الله ، فسوف يعذب الله من ظلم ويشيب من آمن ..

حكم ذو القرنين بحكم الله عز وجل ..

رغم حرите فى أن يحكم فيهم بما يشاء ..

كان مطلق المشيئة ، ولكنه قيدها بمشيئة الله عز وجل وعدله .

وهذه هى الولاية ..

وتمضى قصة ذى القرنين ..

« ثم اتبع سببا . حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم

لم نجعل لهم من دونها سترا . كذلك وقد احطنا بما لديه خبرا . ثم اتبع سببا «

وصل ذو القرنين الى مكان مجهول يرجحه العلماء بأنه خط الاستواء حيث تشتد حرارة الشمس ويعيش الناس وسط غابات حارة فلا يظيقون ارتداء الملابس (لم نجعل لهم من دونها سترا .. اشارة الى عريهم) .

وحكم ذو القرنين هذا المكان كما حكم المكان الاول .. ويؤكد النص القرآنى ان الله قد احاط بما لديه خبرا ..

بمعنى ان الله تعالى كان محيطا باخياره عالما باسباب قوته ممدا له بهذه الاسباب ممكنا له من الملك على كل حال ..

لم تزل رحلة ذى القرنين مستمرة ..

وصل بين السدين ..

« حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا » .

من اغرب العبارات التى ترد فى قصة ذى القرنين هذه العبارة ..
ما الذى تعنيه ؟

تحدثهم ذو القرنين عن الحق والباطل ، فوجدهم لا يستمعون اليه ..
أو يستمعون اليه ولا يفهمون حديثه .. أو يستمعون اليه وهم مسجونون وسط خوف يمنهم من الاستماع اليه أو تأمل كلماته .. كانوا يتعرضون لغزو دائم من جيرانهم . وهم ياجوج وماجوج .. لا احد يعرف أين وقعت احداث القصة ..

ولا احد يعرف من هم ياجوج وماجوج ..

يتجاوز القرآن عن الاسماء والاماكن والمعلومات التى لا تقدم ولا تؤخر الى عمق القصة وغرضها الاصلى .

« قالوا ياذا القرنين ان ياجوج وماجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكنى فيه ربي

خير فاعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما » .

لجأوا الى ذى القرنين بموضوع واحد .

طلبهم للحماية من ياجوج وماجوج .. واجابهم ذو القرنين الى
ماسألوه ..

وافهمهم انه سيجعل بين الجبلين حاجزا يمنع ياجوج وماجوج من
الهجوم عليهم او اختراقه . .

واستجابة ذى القرنين لهؤلاء الذين لا يكادون يفقهون قولا ، يعنى ان
الرفق كان جزءا مرادفا من حملة ذى القرنين ، العدل والرفق . كما اراد
الله ان يكشف على يدى ذى القرنين ان الحماية من الله وان الطمأنينة منه ،
وان الاسباب كلها منه « قال ما مكنى فيه ربي خير » .

يرد ذو القرنين القوة الى الله . .

ويشير في نفس الوقت الى قانون الاخذ بالاسباب ، وهو قانون لازم
للحياة على الأرض ..

« فاعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما » ..

وبدا تنفيذ السد .. قال ذو القرنين : « آتوني زبر الحديد حتى اذا
ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتوني افرغ عليه
قظرا فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا » .

استخدم في صنع السد قطعا من الحديد الكبيرة ، واتسعت النار
تحتها حتى تحول الحديد الى نار واحمر مثلها ، وافرغوا عليه النحاس
المصهور فصار قطعة واحدة يستحيل اختراقها .

واثبت ذو القرنين لهؤلاء القوم ان السد قد انتهى .. ولن ينقبه احد
او يخترقه احد او ينفذ منه احد ..

حين انتهى ذو القرنين من بناء السد .. قال كلمته في الولاية .. واحال
الامر كله الى مشيئة الله الطليقة ووعدده الحق .

« قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكا وكان وعد ربي حقا » هذا عمق القصة البعيد ..

ان وعد الله حق ..

ترد هذه العبارة الموحية في قصة أهل الكهف .

« وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق » .

وترد العبارة في قصة ذى القرنين **« وكان وعد ربي حقا »** ..

ووعد الله تعالى هو عمق الولاية البعيد .

شيء مؤكد ان الولي انسان موصول القلب بوعد الله ..

انه يصدق هذا الوعد ابتداء .. ويسمى في تحقيقه انتهاء ، ومن تولاه الله جعله سببا من اسباب تحقيق وعده ، واجرى على يديه اسراره .. واذا فان الانسان حين يختار لنفسه ما شاءه الحق عز وجل .. يتحول الى الولاية ..

هذا قانون الولاية الحاكم ، اما عمقها البعيد فيتمثل في التوحيد .. وقد اورد القرآن الكريم اكثر من قصة لاكثر من ولي من اولياء الله ، وراينا هؤلاء الاولياء يختلفون في كثير من التفاصيل والسمات كما يختلفون في حظهم من الفنى والفقر ، ولكنهم جميعا صدروا من نبع واحد .. هو توحيد الله جل شأنه ، والسعى في تحقيق وعده .

كان استاذ موسى عالما بأسرار الحق .. ولم تكن نعرف هل هو غنى ام فقير ، واغلب الظن ان مركزه المالى كان غامضا كتصرفاته وان بات مع موسى بغير عشاء حين ابت القرية ان تضيفهما .

وكان اهل الكهف فتية من الشباب المؤمن ، واغلب الظن انهم كانوا متوسطى الحال ، او كان معهم ما يكفى لاطعامهم حين نهضوا من نومهم في الكهف .. لانهم ارسلوا احدهم بورقهم ليشتري طعاما .

وكان ذو القرنين ملكا حاكما في الارض ، واغلب الظن انه كان غنيا ،
فسياحته في الارض وقدرته على الفتح والحرب تعنى قدرته على الانفاق .

ولقد مر السياق القرآني في القصص السابقة مرورا عابرا على حظ
هؤلاء الأولياء من الغنى والفقر .. لأن هذا الموضوع لم يكن له دور بارز
في القصة أو اثرها الموحى .

ثم ها هو السياق القرآني ينقلنا في قلب قضية الفقراء والاغنياء بقصة
رجلين ..

أحدهما فقير فقير ..

وثانيهما عظيم الثراء ..

القصة في سورة اهل الكهف .. ومعظم قصص الأولياء في هذه السورة
.. والقصة تصور لنا حوارا بين عقليتين ، عقلية رجل فقير ولكنه من أولياء
الله ، وعقلية رجل نظر في ثرائه فاستكبر وظن ان البعث وهم والحساب
أسطورة ..

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما
بنخيل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا
وفجرا خلالهما نهرا » .

أحد الرجلين فقير ..

والثاني غنى يملك حديقتين بديعتين ، فيهما زرع وأعناب ونخيل وبهر
.. يرسم الله تعالى صورة لثراء قد استغنى بنفسه عن غيره : ان الماء
موجود : فالنهر يجري خلال الجنتين ، والشمس كائنة ، والتربة خصبة
.. وكل شيء يؤكد دوام هاتين الحديقتين الى الأبد .

« وكان له ثمر » ..

كان شديد الثراء .. يرمز الثمر هنا الى وفرة الثراء ، ويرمز الى
ان الحديقتين ثابتا من حدائق الفاكة ، ولم نزل حدائق الفاكة اعلی

الحدائق في العالم ، ولم يزل كسبها أعلى كسب في الأرض الزراعية ..
كيف يفكر صاحب الجنتين ..

وكيف يفكر الرجل الذي لا يملك شيئاً .

« وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا » .

المتكلم هو الفنى ، والعبارة التي يقولها تكشف عن شخصيته من
المحظيات الأولى .. فهو رجل شديد الكبرياء ..

— أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا .

يريد أن يقول لصاحبه المؤمن أنه أفضل منه . أو يرى أنه أفضل منه
.. لقد نظر في ثرائه وحكم لنفسه بالافضلية .

الكبرياء هو الخطيئة الأولى لصاحب الجنتين ..

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا »

دخل الحديقة ونظر في خضرتها وثمارها وأحس بالزهو .. وأدلى بأول
تصريح من تصريحاته الحمقاء ..

قال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا ..

ظن أن هذا الثراء لن يزول أبدا ، تصور أنه سيبقى إلى الأبد ثريا ،
نسى أن أسباب الثراء والفقر بيد الله عز وجل .. توهم أن أسباب الثراء
بيده هو ..

حين وصل إلى هذه النتيجة ، لم يعد مؤمنا ..

خرج من الإيمان ودخل خيمة الكفر ، ومن المنطقى إذاً أن ينكر البعث
والساعة والحساب وكل أصول الإيمان ..

« وما أظن الساعة قائمة »

مسألة الساعة والبعث مسألة يظن أنها وهم ..

« ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا »

حتى لو افترضنا جدلا أن هناك بعثا ، فعندما يبعث صاحب الجنتين ،
فسوف يراعى وضعه كرجل غنى ، وسوف يجد جنتين افضل من جنتيه
هناك ..

نحس بأثر السخرية في كلمته .. ونحس بكبريائه العظيم أمام ثرائه
الابدى .

استمع صاحبه الفقير الى كلماته واقشعر بدنه .. ان ما يقوله صاحب
الجنتين كفر .. وبدأ صاحبه يحاوره .

**« قال له صاحبه وهو يحاوره اكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من
نطفة ثم سواك رجلا »** .

أفهم الرجل الفقير صاحبه الغنى أن ما يقوله كفر .. ولفت نظره
برفق الى معجزة خلقه من تراب ثم من نطفة ، وقام بتأنيبه في كلمته الاخيرة
« ثم سواك رجلا » ، وكأنما أراد أن يقول له ان الرجل لا يقول ما تقول ..

ان الرجولة التى تنسى أصلها الترابى ، أو تنسى انها نطفة ، أو تتعالى
على خالقها .. ليست رجولة ..

« لكن هو الله ربى ولا اشرك بربى احدا » ..

اعترف الفقير بعبوديته لله .. وتوحيده له . وفراره من الشرك ..
أى شرك ..

هل كان الفنى مشركا .

توحى الآيات القرآنية أن الفنى كان مشركا ، فهل كان يعبد آلهة وثنية
يعتقد انها هى التى حمت جنتيه ؟ أم كان مشركا حين نسب الفنى الى
نفسه وتصور أنه باق الى الأبد ربما تحقق السببان في حقه ، وربما اكتفى
بأحدهما ، وكلاهما شرك عميق .

« ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله » ..

يعلمه الفقير هنا اصول الايمان وآداب استقبال النعمة .. حين تدخل
حديثك او منزلك او عملك او كل ما هو مصدر رزق لك .. فعليك ان
تقول :

ما شاء الله لا قوة الا بالله ..

بمعنى ان هذه مشيئة الله ، ولا قوة الا بالله ..

تنبع القوة من الله .

هو سبحانه مصدرها ..

وهو سبحانه القادر على سلبها ..

هذه هي حقيقة القوة ..

بعد هذه الاشارة العميقة الى خالق القوة والغنى والضعف والفقر ..
عاد الفقير يحاور صاحبه فافهمه ان عليه الا يفتر بدوام النعمة ، ولئن كان
الفقر اقل منه في المال والولد ، فعسى الله ان يغنيه ، ولا ينبغي ان يامن
الغنى من عاصفة تحيل جنتيه الى خرائب ..

**« ان ترن انا اقل منك مالا وولدا فعسى ربى ان يؤتين خيرا من جنتك
ويرسل عليها حسابانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا . او يصبح ماؤها
غورا فلن تستطيع له طلبا » .**

لا شيء في الدنيا ابدى ..

لا شيء على الارض يدوم ..

لا الغنى يدوم ولا الفقر يستمر .. يقلب الله الناس في صور شتى من
صور الابتلاء .. وليس الفقر والغنى غير صورتين من صور الابتلاء ..

في نفس الوقت الذى كان العبد المؤمن يحدث الغنى الكافر .. اشار
العبد المؤمن الى نبوءة قاسية تتصل بصاحبه ..

مثل ريح غامض تنبأ المؤمن للكافر بان جنتيه منتصيران الى الخراب
.. سوف ينزل عليهما من السماء ريح مشثوم يحيل ارض الجنتين الى

صحراء قاسية ، وسيجف ماء النهر ويغيب في شقوق الأرض وتموت حياة النبات ..

بعد هذه النبوءة ، ينقلنا السياق القرآني نقلة مفاجئة الى صورة الجنتين بعد أن تحققت النبوءة ..

« واحيط بشمره »

يستخدم التعبير القرآني لفظاً له جرسه العسكري ، يقول العرب حين ينهزمون « أحيط بالجيش » أى حوَصر الجيش وأحاطه العدو وتحققت الهزيمة ..

استخدم القرآن الكريم هذا اللفظ لبيان هزيمة الرجل الذى اشرك بربه ..

انتهى الثمر تماماً وأبىد .. وتغير حال الكبرياء فصار ذهولاً حائراً متخبطاً يبعث على الضحك .

« فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى خاوية على عروشها »

المشهد ارض خراب .. نبعت من نفس خراب .. ثمة رجل يمشى وسط الخراب وهو يخبط كفاً على كف ، ويقلب يديه ذهولاً وحيرة .. ويكلم نفسه مثل مجنون « ويقول : ياليتنى لم اشرك بربى احداً » ..

اكتشف - والندم يعتصره ويجففه - انه كان مشركاً ، وتمنى لو كان مؤمناً .. ادرك أن الشراء الفاحش مع الشرك ينتهى الى الهزيمة والفقر .. وعرف أن لا شئ فى الدنيا يعيش الى الأبد ، كل شئ تطحنه دورة الميلاد والموت حتى الأرض .. أحياناً تدب فيها الحياة وأحياناً تموت .. ادرك انه فصل نفسه عن قوة الله ومشيبته ، واتصل بما يظن انه قوته الذاتية ومشيبته ، وحين فعل ذلك كان قد انهزم .

هزيمة ساحقة كاملة ..

هزيمة لا ينفع فيها نصر احد أو رثاء احد أو عون احد ..

« ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً » ..

بهذه الحقيقة الحاسمة انتهت قصة الرجلين .. الغنى والفقر ..
انهزم الغنى حين فصل بين غناه وقدرة الله الغنى .. وانتصر الفقير حين
شاءت ارادته ما شاءه الله تعالى لعباده من توحيده والايمان به وعبادته
سبحانه ..

((هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا)) ..

نريد أن نتوقف بالتأمل والاستفراق في هذه الآية ..

هنالك الولاية لله الحق ..

هذه هي الولاية ..

هي التوحيد ..

وما وقع من تحقق نبوءة العبد الموحّد ، كان سرا من أسرارهِ كشفه له
فراه بعين البصيرة ..

يرى بعض العلماء أن هذا الفقير الذي وردت قصته في أصحاب
الجنة كان وليا من أولياء الله ، ويدللون على ولايته بأنه رأى أمرا لم يقع
بعد من أمور المستقبل ، وهذا هو الدليل على ولايته ونحن نعتقد أنه ولي ،
ولكننا نسند رأينا في ولايته إلى أمر أخطر من نبوءته بما لم يقع بعد في
المستقبل .

هذا الأمر هو التوحيد

وصول هذا العبد إلى عمق التوحيد وإدراكه المثل في قوله « لكن
هو الله ربّي ولا أشرك بربّي أحدا » ..

هذا معنى الولاية الحق ..

والدليل على قولنا قول الله تبارك وتعالى في نهاية القصة .. « هنالك
الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا » ..

يشير النص القرآني إلى أن الولاية الحقيقية هي التوحيد .

ويسند استقراء القرآن هذا الفهم .. أيضا تؤكد السنة .. كما

يهدى اليه فقه اللغة العربية ..

كل آيات القرآن تؤكد أن الولاية هي الوجه الآخر لنوحيد الاسلام
وعبودية الله .

قال تعالى : « **الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » ..

ونفى الخوف والحزن عن اولياء الله يعنى انهم قد تحصنوا بقلعة
التوحيد والعبودية الحققة ، وهي قلعة من دخلها امن كل شيء .. يؤكد
هذا الراى قوله تعالى : « **فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا
وعلمناه من لدنا علما** » .

هذا العبد ولى من اولياء الله - قيل انه الخضر - وهو ولى لم يذكر
النص القرآنى له صفة تقدمه للقارىء أكثر من كونه « **عبدا من عبادنا** »
ذكر هذه الصفة وحدها والاقتصار عليها ليس مصادفة ، انما هو امر
مقصود ، فاصل الولاية الحقيقى هو العبودية لله ..

يقول تعالى « **ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** تتنزل عليهم الملائكة
الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن اولياؤكم
فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

ويقول تعالى : « **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور** »

وحين يربط القرآن قول من قالوا ربنا الله ثم استقاموا .. بالولاية .
حين يربط القرآن الذين آمنوا بأن الله هو وليهم ..

حين يفعل القرآن الكريم هذا يضع قاعدة الولاية وقانونها .

الولاية هي الايمان .. والاستقامة ..

ليست الولاية اذا هي الاتيان بالخوارق .. ليس هذا صفة الولاية
وليس هذا من خصائصها ..

صفة الولاية هي الايمان بالله ..

اما الخوارق فأمور قد تقع وقد لا تقع .. وليس وقوعها لازما للدلالة على الولاية ، كما ان عدم وقوعها ليس دليلا على عدم الولاية ..

بهذا الفهم السليم للاسلام نستطيع ان ننفض عن ثياب الصوفية ما علق بها من مبالغات في نسبة الخوارق اليهم ..

اذا كان الايمان والعبودية والعلم بالله من صفات الولاية ، فما هو معناها .

يدق كثيرا معنى الولاية ..

اذا ذكرت عن الله عز وجل اتصرف معناها الى الربوبية والحراسة ان عبارة ((الله ولي الذين آمنوا)) تعنى الله رب الذين آمنوا وحارسهم واذا ذكرت الولاية عن الانسان اتصرف معناها الى العبودية والتوكل فاذا التقت مشيئة العبد بمشيئة الله عز وجل صار العبد وليا من اولياء الله ..

والطريق الى معنى الولاية يمر بطاعة الله عز وجل .. او بمعنى اصح يبدأ بطاعة الله تعالى .

ورد في الحديث القدسي الكريم قوله ((من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب الى عبدي بشيء احب الى مما افترضت عليه . وما يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى احبه ، فاذا احبته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها)) الى آخر الحديث

من معانى الحديث ان اولياء الله محروسون برعايته ، فمن عادى وليا لله حاربه الله ، ومن معانى الحديث ايضا ان الولاية تعنى القرب من الله ، وقد حدد نص الحديث القدسي أسلوب القرب من الله بانه اداء النوافل ، وفي الاسلام لا تؤدي النوافل الا بعد الفرائض ، فمن أدى الفرائض والنوافل فقد تقرب الى الله ، بعد هذا القرب تجيء درجة الحب .. يحب الله تبارك وتعالى هذا الولي ..

فاذا احب الله عبدا صار يسمع بالله ويبصر بالله ويبطش بالله ويسير

بالله ويعيش حياتها كلها لله وبالله .

وفي السنة النبوية قصة توضح معنى الولاية .

وردت القصة في البخارى في كتاب بدء الخلق في فصل حديث الفار .

حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ثلاثة اشخاص ممن كان قبلنا كانوا يسرون فسقطت الأمطار فهرعوا الى كهف فسقطت صخرة ضخمة من الجبل فسدت عليهم الكهف ..

وادرکوا انهم حوصروا فقال بعضهم لبعض :

((انه والله يا هؤلاء لا ينجيكم الا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم انه قد صدق فيه)) .

نريد ان نلاحظ تصوير الصدق كمعيار للنجاة في الحياة . بعد هذه العبارة بدأ كل واحد من الثلاثة يحكى حادثا صدق فيه ايمانه بالله . وحكم تصرفاته هذا الايمان بالله .

قال احدهم انه كان يستأجر رجلا للعمل عنده . فذهب هذا الرجل بعد ان ترك عنده نصف كيلة من الارز ، فزرع المالك الارز وجمع المحصول وباعه واشترى بثمنه ابقارا ، واثاء الزجل الاجير يطلب اجره فلم يعطه نصف كيلة من الارز ، وانما اعطاه ابقاره ، وقد فعل ذلك حساسية وخشية من الله ان يظلم احدا من خلقه .

((فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا فانسأحت منهم الصخرة)) ..

وحكى الثانى انه كان له ابوان شيخان كبيران فكان ياتيها كل ليلة بلبن غنم له ، فأبطأ عليهما ذات ليلة فجاء فوجدهما قد ناما ، ووقف ببناء اللبن حتى استيقظ ابواه في الفجر وشربا ، وكان له عيال جوعى استغاثوا به فرفض ان يسقى ابناؤه الا بعد ان يشرب والداه ..

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا . فانساحت عنهم الصخرة » ..

وحكى الثالث أنه كان يحب ابنة عمه ، وراودها عن نفسها ، فأبت الا ان يعطيها مائة دينار ، فاحضر اليها النقود ودفعها اليها ، ثم هم بها فذكرته بتقوى الله فانصرف بغير ان يعتدى عليها ناسيا تقوده .

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ففرج الله عنهم فخرجوا » ..

.....

يحكى هذا الحديث النبوى قصة الامر الخارق الذى وقع لثلاثة لجاوا الى غار فسقطت صخرة سدت عليهم باب الغار ..

ومن المدهش ان بعض المسلمين قراوا هذا الحديث من نهايته ، او قراوه ولم يفهموا الا السطر الأخير فيه .

السطر الذى يتحدث عن انسياح الصخرة ودحرجتها ونجائهم .

وهذه القراءة الناقصة للاحاديث النبوية هي السر المسئول عن عدم فهمنا لمعنى الولاية ، او عن خلطنا بين الولاية والخوارق ..

نحن امام عمل ادى الى نتيجة ..

كيف تلتمس النتيجة بغير اداء العمل .

ان القصة الاولى فى الحديث النبوى تعطى صورة للأمانة الانسانية المطلقة ، وهى امانة تتصل بالشئون المالية ، حيث يميل الانسان عادة مع هواه ويؤثر ان يظلم غيره ، ولو ان صاحب المال اعطى العامل ما كان له من الارز لما كان ظالما ، ولكنه اراد ان يكون صادقا فاعطاه ما صار اليه الارز الذى كان له ..

أما القصة الثانية فتقدم صورة للبر بالوالدين ، وهى صورة تبلغ الذروة فى احسان البر بالوالدين ، ولو أن هذا الرجل الذى وقف بالبن حتى جاء الصباح فى انتظار أن يشرب والداه ، لو أنه سقى أولاده الجائعين قبل أبويه لما كان ظالماً ، ولكنه أراد أن يكون صادقاً فى البر بوالديه فسقاها أولاً .

أما القصة الثالثة فتقدم صورة للعفة الانسانية ، فى البدء تحن أمام خطيئة تنهيا للوقوع ، ولكن كلمة واحدة عن تقوى الله توقظ المخطيء وترده الى الصواب وتذكره بالله فينصرف بغير أن يرتكب خطيئته .

لو تجاوزنا سطح المعنى فى القصة فسنرى أنها رمز للأمانة والبر بالوالدين والعفة .. وهى ثلاثة اضلاع لمثلث لا يكون الايمان أيمانا بغيره ، ولا يكون الاحسان احسانا بغيره ..

ولقد وقعت الأمانة والبر والعفة .. خشية من الله تعالى ومراقبة له وحبا فيه سبحانه .. « **فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا** » ولم يكن انسياح الصخرة ونجاتهم الا لأنهم صدقوا فى خشية الله .. هذا هو مضمون الولاية الحقيقى ..

خشية الله عز وجل ..

وهذه الخشية ثمرة العلم .. قال تعالى « **إنما يخشى الله من عباده العلماء** » .

هذا المستوى هو الجدير بأن نتوقف عنده ونتأمله ..

المستوى الذى يظهر فيه سلوك الانسان المؤمن ..

أما مستوى العجائب والخوارق فنتيجة تترتب على السبب ، ومن الظلم للعقل أن تسقط السبب ونتوقع النتيجة ، أو ننظر فى النتيجة ولا ننظر فى السبب ..

ولقد رأينا كيف حرص القرآن الكريم وهو يقص أخبار الأولياء على إخفاء أسمائهم وإخفاء أمكنة وجودهم وتدثيرهم بسر الخفاء ..

ونفهم من هذا أن العبرة بمضمون الولاية لا بأسماء الأولياء .. كما أن المهم هو خشية الأولياء لله لا الخوارق التي يجريها الله على أيديهم ..
والحق أن أهم معنى للولاية هو الصدق مع الله ..

ومن المدهش أن يمتد الضباب لهذا المعنى فلا يبقى من الولاية في عصرنا - بين عامة المسلمين - إلا معنى الكرامة الممثل في الخوارق والمعائب ..

.....

ما هي الكرامة التي تقع لأولياء الله ؟

وما الفرق بينها وبين المعجزة ؟

وكيف ينظر كثير من المسلمين اليوم لكرامات الأولياء ؟

لماذا اخترت كلمة البحار تعبيراً عن الحب .. هل هو الولع بالأسرار
الكامنة في مياه البحر .. أليس الماء أصل كل شيء حي ..

قبل أن يبدأ البدء أو يكون الكون ..
قبل أن تصفع الشمس ظلالها على الأرض ..
قبل أن تخلق الأرض من انفجار كوني أو إبتسامة كونية نتيجة أمر
يتألف من حرفين ..
قبل أي قبل ..
كان الله ولا شيء مع الله ولا شيء قبله ..

التقبل بالفعالة والإكثريّة
ومؤسسة المعارف ببغداد

